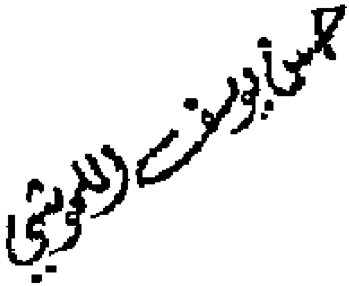
# سيرة بني غازي



أحمد الفيتوري

مجلس الثقافة العام





سيرة بني غازي

# سيرة بني غازي

أحمد الفيتوري

الناشر
مجلس الثقافة العام

اســـم الكـتاب سيرة بني غازي

اســـم المؤلـف أحمد الفيتوري

سـنـة النـشـــر 2006م

رقـــم الإيـــداع 7232 / 2006 م

الترقـيم الدولـي ISBN - 9959 - 38 - 146 - 3

تصميم الغـلاف علي العباني

التنفـيذ الفـنـي عاطف الأطرش - نجلاء المنقوش

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات سرت

هاتف 002185468622 بريد مصور 002185473161

فـرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فـرع بنغـازي - الفويهات الغربية الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني LCC2_2005@Yahoo.ca

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى





تنفيذ الطباعة

القاهرة ت 0020123140315

# إهداء

يذكر تاريخنا الوطني : أن مقاتلا فارسًا وشاعرًا شارك في معركة ضد المستعمرين الإيطاليين، شاهد وسمع،كل مقاتل يندفع للمعركة، يذكر اسم محبوبته ولم تكن له محبوبة بعد.

فقال : نا خالك يا للي ما لك خال .

قتل في المعركة، سمعت شابة بذلك فقالت : وأنت خالي .

ولم تحب غيره ولم تتزوج حتى ماتت. لهذين العاشقين أهدي سيرة بني غازي، ولمثيليهما.

[ كنت مثاليا فمنذ عودتي من مصر سنة 1957، وأنا أنظر إلى ليبيا نظرة تقديس. كنت أرى البشر فيها كآلهة الأوليمب، لا يسقطون، وإن سقطوا فسقطتهم تهز الأعماق، ويأتي بعدها التطهير المطلق! كنت أراهم مجردين من خطايا البشر. صدقني إذا قلت لك إنني كنت أنظر فأرى كناساً مثلاً يكنس الشوارع فأود لو اجري مقبلا يديه. صدقني إنني وصلت بنغازي ورأيت بيوتها مهدمة من أثر الحرب، ورأيت النفوس مطحونة، ولكنها معاندة وصلبة ،فأحسست وكأنني هبطت إلى مستقر أبطال طراودة].

عبدالله القويري .

**[عبدالله القويري مفكر يبدع في الأدب والفن- أحمد محمد عطية- دار المستقبل العربي- القاهرة- 1992 م ]**

# عين الغزالة، ميدان الشجرة

الجو بارد لهذا التحف وفى النفس مرجل يضطرم، أتدفأ بالذكريات إن الوالد "كواش" صاحب مخبز، وعن هذا وعن ما بي انشغل بالشارع وحيويته .

بعد الإفطار في حمى ليال رمضان أتمشى، في مدينتي بنغازي، من حي البركة، حيث أسكن، مخترقا شارع جمال عبد الناصر، الاستقلال سابقا ،حتى ميدان الشجرة، شجرة الأرز التي ماتت وحمل الميدان اسمها، فبقي الاسم رغم موت المدلول، في كنه ثمة نُخَيلَةٍ عجفاء تحتاج لمسبار لتتبين وجودها. في هذا الميدان محل أحذية يقف أمامه صاحبه مثل شجرة منذ تجرأت في مقتبل العمر وخالفت الوالد وزحفت من حي الصابري نحو قلب المدينة النابض المتلألئ.

اخترق الشارع الرئيس من ميدان البركة، ما تغير حتى شيء، البركة حي نصف شعبي، حي الطبقة الوسطى منذ سالف الأيام، ومساكن هذا الحي في الغالب معمارها قديم، منازل ليبية فيها ما فيها من طرز عثمانية ولا أقول تركية: المدخل قوس حجري بزخرف

أحـيانا والـبـاب بابـان في الـبـاب قوسـان، يدعـى في الجملـة بـاب بوخوخـة، على البـاب الصغير الذي هو لدخول البشر مدق بوجهي الإله الرومانـي جـانوس وكذا حدوة حصان لدرء العين والحسد، لون البابين أخضـر في العـادة، تجـتاز الـبـاب فتلتقـيك السـقيفة المستطيلة الـتـي تحولك، إن كنـت ضيفا؛ للمربوعة، وشكلها في اسمهـا ومساحتها تدل عـلى صـاحـب البيـت، الشـيخ الوجـيه الـثرى، مضـيفتهم واسـعة وفـيها تكايـا والمساحة الضـيقة لغير هـؤلاء، للسقيفة مدخـل مقـوس عـادة مـا يفصل البيـت بشرشـاف يحجـز النظر لصحن البيت الذي لا سقف لـه وقـد يكون فيه بئر ونخلـة، تطل عـلى هـذا الصحن غرف نوم مستطيلة ومسـاحتها صـغيرة وأبوابهـا حـيز لمفـرد، أمـا الـنوافذ فكـوة للتـنفس، في جانـب مـن الصـحن كنـيف ضـيق ومطـبخ أضـيق ممـا يجعـل الـنسوة في الململمات يطبخن في وسط البيت، الذي يبنـي في مجمله من الحجـارة والجير، الحـيطان في عـرض نصـف مـترو الأسـقف مـن جـذوع الـنـخيل وتـبن الـبحر والطين، يسمى نـوع البـنـاء هـذا بضـرب الـبـاب. كثيرا مـا تكـون مسـاحة البيـت شـاسـعة ولكـنه بيـت يفـتـح عـلى داخلـه؛ الشمس ضيف ثقيل والهواء أثقل لأنه يستجلب معه قرينه العجاج ابـن الصحراء المدلل. هنـاك منـازل معمـارها إيطالي مميز وشهير، ثمة بيـت قـرب سينمـا الزهـراء بـالبركة من هذا الطراز الإيطالي، اعتنـى بـه صـاحـبه وصـينه و أعـاد الحـياة لـه فجعلـه بهـذا يشـد الـروح لمـن مثلي يغتبط بكل جميل حي قدم.

في البركة منزل شريك والدي، أعيش فيه كما يعيش أبناؤه، أختلف معه في سيارته الكبيرة الواسعة إلى مكتبه، أحضر مباريات كرة القدم وأعجب بـ"تعولة"، وألعب الكرة في شوارع المدينة الخالية، غير هياب ولا وجل، فقد كان محمود إلى جانبي، وكان شوقي، بجسمه العريض وصوته الجهوري وعنته، يخيف حتى الجنود البريطانيين الذين يحمون كل شئ بما في ذلك اليهود وتجارة الخردة، يجمعونها من الصحاري يكدسونها في الساحات، يشحنونها على عربات كبيرة كالطود، يجنون منها آلاف الجنيهات، يركبون السيارات الفاخرة، ويقيمون الولائم للسادة السنوسيين وكبار الضباط. كان عَلَيّ ومحمود أن نبرر بقاءنا في بنغازي، أن يكون لوجودنا عند الرجل الكريم مردودٌ ما، غير لعب الكرة في الأزقة والشوارع، وإيذاء الجيران ومخاصمة الأولاد، ومتابعة مغامرات شوقي في المدينة كأنه يملكها. راجع محمود حسابات تصدير الكاكاوية، فاكتشف خطأ أعاده إلى صواب، ومن يومها صارت له مهمة، أن لا ينام حتى يراجع الحسابات، وكانت الحسابات بسيطة لا تعدو الجمع والطرح. كان لابد أن يُطَعَّم من يريد الدخول إلى مصر أو من شاء أن يتوقى الوباء ولو كان بعيدا عنها، أوقفتنا السيارة أمام مستوصف البركة وأدخلوا في جلود ذراعينا إبرة حادة ظلت تنتفخ حتى خلت أنها سوف تنمو أكبر من رأسي، ويومها خفت أن أموت! فلا أنا بالأزهر ولا أنا بـ " صالحه" ولا أنا بالمحلة .. ولا شئ سوى حفرة بسيطة يهيل عليها أناس أغراب التراب، في زاوية منزوية في

جبانة مجهولة، يتوسطها ولي لا أعرف له اسما وينحسر عني ظله ليمتد إلى مريديه!. سافر محمود، فقد كانت له فيزا، وبقيت في انتظار أن يحل الوباء عن مصر وأن تفتح الحدود، و أن أنتقل إلى جامع الأزهر. ولفترة الثلاثة أشهر التي انتظرت فيها، حياة اللهو، والاختلاف إلى المدينة، ومكتب السيد عمر، طفقت صورة الحاج حسن وصالحة تبهت رويدا رويدا حتى خفت أن تنمحي ..!. وبطريقة ما، يعرفها المهربون ورجال الصحراء، قاموا بشحني مع اثنين من طلبة بنغازي على ناقلة للخردة، لم تعرف طريقا يمر بالبوابة أو القرى حتى استقر بها المقام في الإسكندرية .. ويا خاش مصر منك ألوف! .

على عجل من أمره مر كامل المقهور على البركة؛ كانت القصة – المحامي - وإن حط به المقام فترة فقد شده شغف لمصر؛ ما منعه وأوقفه وأسكنه بحي البركة إلا انتشار وباء الكوليرا في مصر مبتدأ الخمسينات، مر كامل المقهور على عجل في سيرته الذاتية بمحطته بنغازي، بذلك البيت؛ منزل شريك الوالد، ما سكن آنذاك وبقيت هامته مرفوعة في وجه غدر الزمان .

وفي الجانب المخالف لهذا البيت، وبين البيوت الليبية القديمة الخافية، يتجلى مبنى يبدو للوهلة الأولى وكأنه كتلة نيزك ساقط من السماء مفارق لما يحوطه ويحوط في نفس الوقت كل ما يحوطه، هذا المبنى المفارق من طرز ما بعد الحداثة؛ جسدها مهندسو العمارة كما

هذا المبنى المخترق بعيون مختلفة وفي أماكن متباينة حتى تبدو كفجوات في نيزك، سرعان ما تتجلى كنوافذ تطرز الكتلة، وتكسر الإيقاع المعماري الهارموني النشاز.

إن شئت وتابعت النظر والتحرك للواجهة تباغت بقلعة، أبوابها من حديد ثقل في خفة غير محتملة، وإن كان المبنى يتدثر البياض فإن باب الواجهة والمدخل رمادي غامق، كأن السماء الغاضبة في ليلة شتوية أرادت فلق البياض.

ادخل في المكان الذي بحاجة لسياحة فيه تتغياها مفردا، قبل أن تتخطى العتبة تشدك ويلتطم مداسك برخام غير مستوي، رخام لم تعالجه أيد مليمترية بل عالجته يد مدربة على تنغيم النشاز، لذا لم يشذب ترك التشذيب لما فعلته يد الدهر و أزميل الطبيعة.

في الباب رهبة القلاع المحصنة والواثقة النفس حيث يتشكل الحديد الصلب ويطوع غصبا لعين مخيلة مشاغبة، كأن المفتاح أثقال لكن في الباب دس مدخل صغير مفتاحه يد عادية وقفله المعتاد كي يكسر هذا سطوة الباب. فإن تخطيت هذا ستأخذ الحيرة العقل هكذا طلع عليك من ثنيات المبنى المعقول واللامعقول؛ كل ما تتوقع في مبنى وما لا تتوقع: هذا رواق أو بهو أو سقيفة أو ذلكم كله وزيادة، إن انحيت في الديوان هذا تنصت عيناك لميوزات إغريقية قورنائية في أرضية فرشت من فسيفساء السلفيوم نقشتها ووضبتها الأيدي الناعمة، إن تسلقت السقف فلن تطاله، إن تيمنت فالبهو اتساع

اعتيادي، إن تيسرت فثمة مكان مشروع لمصعد يعطيه البلور، إن تقدمت فالدروج لوحة التأمل، بتؤدة وتمهل ترقب الدرج، مزيجا من حديد وخشب، سهل الصعب، بعد أن يعيد مشهد الرخام عليك استعراض نشاز هارموني عند مطلع الدرج أما على جانبه فصفحة من ورق حديدي يباغتك بطاعته المبالغ فيها لعكس الضوء ومعاكسة الأنوار: تارة فلقة برتقال، تارة يبهج وهو حزين، هو البنفسج المتساقط من قبة، عين كولومبس تمخر بك عباب أمواج الضوء لتهتك الخباء؛ القبة المدسوسة/ المحفورة بسكين السر في السقف عند مطلع الدرج تحلب الشمس، وتعيد ترتيب شعرها الانطباعي اللون في هذه اللوحة الطائشة من المخيلة المشاغبة، هذه اللوحة تأسر الانتباه وتطلق سراح الدهشة المأسورة.

عند الدرج الأخير ممر ككل ممر ينطرح أمامك وطرقة متيسرة، الممر يأخذك لمكتب فسيح يشمل في شماله مستراح المنتظر ستلاحظ التباين اللامألوف بين الأبواب، المساحات، النوافذ حيث يتم توظيف واستدخال الحائط المجانب للدرج في الدرج كي يمكن أن يكون غاليرى للمكتب الرئيسي .ولأن العمارة الحيز والفسحة فإن الطرقة تجذبك لمكتبين مدسوسين في شمال الدرج، لكن بابيهما يتجليان كما مدخل المبنى، هكذا الحيز محيوز حتى تضيق الفسحة التي تراءت لك عند الدرج الأخير، المشار إليها بالمكتب الرئيس الذي قبل أن يستحوذ عليك يباغتك منور يبهر العين المشدودة لأفق الممر،

تكسر حدة ذلك أصص الخضرة والمقهى المنزوى. أن حق لك أن ترتقى الدرج ففي السطح ثمة حديقة معلقة، قد يخطر ببالك انك ببابل، أو تستعيد المشهد من البدء كان المبنى كتلة متميزة ومحوطة بعمارة ليبية قديمة وبسيطة يفترض صونها، فإنها سنو غرافيا هذا المسرح وخلفية لعمارة هذا البيت الهارموني النشاز.

وعلى أي حال وبالمختصر المفيد هذا المبنى المابعد حداثي يبتغى تحطيم الاعتيادي في مشهدية المكان وبهذه المفارقة يؤكد انتماءه له، انه قلعة وما هو قلعة ولكن شبه لهم، بذا هو قديم في عين قديمة حديث في عين حديثة، وان كان ليس هذا ولا هذا فبهذا ينتمي لمدينته فاكا عنها الطرز الأمريكية للمعمار الوظيفي ما يحجب المدينة بحجاب ليس منها في شئ، هي المدينة السافرة.

هذا المبنى البركاوي يشكل نسيجه مطمحا للتشبب ببنغازي، وللتجدد في مدينة تنعت بالمدينة العجوز في أدبياتها فيما انتج بنوها ومبدعوها الكتاب، هذا المبنى لأسرة المحامي عمران بورويس، من تخطيط وتنفيذ صغاره كما علمت.

في الجانب الجنب لهذا المعمار المابعد حداثي، مرسم وبالأحرى مشغل الفنان حسين بللو، جراج من طوب أسمنتي، مبنى التقشف المغصوب عليه كل فنان مجد، فيه يشتغل هذا الفنان للسوق نعم لكن لذائقته أولا و أخيرا، شغله ومشغوله تحف تشكيلية متفردة وليس كمثلها شيء، يعيد فيها تطويع كل ما فاض عن حاجة المدينة بيديه

تتجسد: تحفة منحوتة، تشكيل لبيوت مدججة برتابة الرماد .

عن هذا أحيد مخترقا البركة، أعطيها بظهري وصدري لشارع جمال عبد الناصر، ووجهي قبالة البحر وميناء المدينة التي يحدها البحر أينما شئت، تواجهني زحمة احبها واستأنس بها، على الجانب الأيمن مكتبة المعارف فيها كل ما لذ وطاب لي، خاصة في شهر رمضان حيث لا شغل ولا مشغلة، فيها كتب تطبيب لي كما يطيب النزر القليل من الصحف والمجلات التي تصل البلاد، ما من زاد في الجيوب، العين بصيرة واليد قصيرة لهذا أحث الخطى مزورا عن المكتبة مغتبطا : أطفال وأطفال مع ذويهم يتزودون بحاجتهم لملاقاة عام دراسي جديد، مغتبطا بالزحام ما يطال القرطاسية الأولى أبجد هوز المتأنقة بلون الورد المتحوطة بقمامتها، ثم الثانية المجانية ليسار الشارع، قبالة سينما الهلال التي يأكلها السوس لقدمها، وما علق في حلقها من أفلام قديمة، استهلكتها ولاكتها آلة العرض بعد أن انفض من حولها عشاقها وهرمت .

أحث الخطى، ومن كتبت عليه خطى، في مدينة بنغازي وفى شارع جمال عبد الناصر الطويل، مشاها حثيثا مخافة زحمة السيارات والظلام الذي يحوطه ساعة يصل نادى النصر هذا النادي العريق، الذي مكانه أكثر عراقة في تاريخ الكرة الليبية أي ملعب 24 ديسمبر سابقا : امسك بالترانستور على أذني، بيليه يسجل أهدافه المتتالية وان كان الفريق الإنجليزي يحث الخطى للفوز بكأس العالم

في هذه الدورة، أوه مصطفى المكي هذا القصير القامة الراسخ القدم ضيع الهدف، هكذا سيخسر الأهلي المباراة، رن هذا التعليق في أذني المتحررة من الراديو، وقد غصت التريبونة بمشجعي الأهلي، فيما ديمس الصغير من يشبه بيليه يقطع ملعب 24 ديسمبر كفهد ارتوى من حليب نيدو وهو يقدم له الدعايات على شاشات السينما تلك الأيام، ديمس الفهد الأسود الصغير أوقفه وسد تقدمه شبل الأهلي أحمد بن صويد شريكه في الدعاية للحليب المجفف الجديد نيدو، الملعب صغير لكنه يضم كل سكان المدينة عشاق الكرة المنقسمين بين أهلاوى وهلالية، بين هذين يندس خليفة الغريانى بطل المصارعة الحرة المهزوم أبدا، خالي صانع السندوتشات المميزة، يبيع القازوزة ماركة الأهلي والكازوزة ماركة الهلال. أما نادى الفحامة، كما يطلق علية الشارع الرياضي دون أن أعرف سبب التسمية، فيقفل الشارع حيث ينوى النصر ملاحقة التحدي والهلال في مسابقة بناء أسواق وتأجير المحلات، أما مسابقة الكرة فمن لزوم ما لا يلزم .

لهذا وغيره أسرع الخطى كي اندلف تحت جسر البركة وأتلحفه خاصة إن كان ثمة مطرٌ سماويٌ أو هطولٌ مباغت للسيارات، بعيد ذلك ينبثق من تحت الجسر القصر الوارف نخلا شجرا خضرة منذ عرفت شوارع مدينتي ولم أعرف حتى الساعة صاحب هذا القصر الجميل رغم تحيته، هل يحق القول قصر وهو يقع تحت النظر..؟. السيلس، خزانة الحبوب الفارغة التي بناها الطليان كما يخيل لي

من طراز البناء، على يميني، المدينة الرياضية شمال حيث تسطع أقمار الملعب وأصداء المعلق محمد بالرأس على تغمرني وكذا ضحكته، وجذله بأن ما يعرف حول اللعبة واللاعبين أكثر مما يعرف أي مهتم غيره، وإن كانت حدوده المعرفة؛ فهذا الجسد القصير البدين يكشف عن مفارقة: أن أكثر المهتمين بالرياضة في المدينة الأقل ممارسة لها.

عند السيلس عند المدينة الرياضية يشملني السمافروا كما يشمل موج السيارات الهادر المتدفق من جهة الميناء، أتوقف عن السير منتظرا طلوع الضوء الأحمر ليوقف سيلان السيارات الكورية ما يسبغ مراكيب هذا الزمان، وأحشر في مسرب السيارات المتلاطم حيث لا ممشى لمرتجل بعد أن زحفت أشجار مهملة، بنغازي مدينة مشوبة بمشاعر رومانتيكية لهذا تجنح للتوحد مصابة بفيروس الوحيدة في كل شئ وأن لا تشبه غيرها؛ لا تحب المشائين، تكره كل راجل، فيها تغتال الأرصفة.

ثم انطلق هائما في ملكوت الرب والعباد، سائحا بشعاب الشارع الطويل مشمولا في شماله، بعد كنس محطة الكهرباء وما تبقى من محطة سكك حديدية في مدينة تحب أن تفوت قديمها وتتوه. مشمولا بحديقة مهجورة وفي طول ليلة دون عشاء. في يمينه يحمل دكاكين: زاد الخير، الصافي، الفريد... وغيرهم؛ سوبر ماركت عودة راس المال حاسرا زاهيا بتعدده، ببضائعه من كل لون ، من كل شكل، من

كل شئ غير وطني، وتتلألأ فتريناته بما حمل الجمل الحديدي من سفين وطائر. تندس بين هذه الركن مقاه محتشدة بلاعبي الورق المخدومين من نساء مغربيات يقدمن القهاوي والمرطبات في الشهر الكريم، مقدمات غير ذلك في الأشهر الآخر، هذه القهاوى ست طالعات من عند فندق القرضابية حتى فندق الممتاز ذي الثلاث نجمات- في حسابي- مسكن المغربيات ومأوى ليلهن، وجمهور القهاوي هذا ليس مما كانت تعرف المدينة وهو في وئام حميم ظاهر بالمكان وفيه.

كما لو أني أنهكت من الكتابة وما يشغلني، تنتقل الركب ويخض حليبها، قبيل فندق تيبستي برج بنغازي المنطفئ، ما يعرف عند أهلها ب، [ الردياتوري] لقربه من شبهة، أنه مبرد وخزان ماء السيارة ولسواده العنتري، فندق خمس نجوم زاهي بنجوميته متكبرا بذلك عن مدينته كأنه غريب شرق في مدينة السباخ، خاصة وأن فندق أطلس وسينمائه الحرية قد أكلهما تماسيح السوق محولينهما إلى غير مهمتهما الأصلية، وفي حاشيتهما التي تطل على شارع جمال عبد الناصر تطاول مبنى أسمنتي موحش لم يكتمل منذ دهر، قاصفا الرصيف قاذفا المشاة في هول البغال الحديدية.

كنت مغمورا بالضوء وزهوا المدينة به عن غيرها من مسكون بالوحشة والظلمة وقلة البشر والحيلة، سيغمرك الظلام حيث لا تحسب؛ بين مدرسة شهداء يناير أشهر المدارس في البلاد بنتها

اليونسكو لما ما كان ثمة نفط، وعمدها طلابها بدم حيث ما لزم، هذه المدرسة قبالها مبنى إيطالي قديم في المباني كما قدمه في الوظيفة فما عهدته إلا كبناء للبوليس وأدارته؛من حيث يمكن لك أن تحصل على هوية تغنم بطاقة، يسميها أهلنا بطاقة شخصية أن أردت أن تكون لك شخصية، وحتى إن لم ترد فالقوانين العصرية توجب ذلك وتفرضه في أي أين.

# مسرح المجاهد، عروس البحر

مستغرقا فيما يتلاطم من مناظر في عين النفس، وما يسقط في بؤبؤ العين المبصرة، اقطع ككل ليلة في رمضان بين التاسعة والعاشرة خيط الضوء الشاحب المنساب ما بين ميدان البركة وميدان الشجرة، يندس في شعب الذاكرة صديق اغترب، آخر رجل وامرأة حجبت عن عين المدينة وكانت منارة كـ" منارة سيدي خريبيش" تشي بالمدينة لسفين ضال، لرجل به حرقة للسكينة؛ لبنغازي الفاتنة الراسخة في أوهامها.

يأسرني عن موج نفسي، عند السليس يمين محطة الوقود، مطعم صغير متوارب عن توقد شارع عبد الناصر يزدهي مطعم القبعة البرتقالية بحداثته وذائقته البرتقالية المذاق، في مدخل الشارع المقابل للمحطة كأنه يمامة جافلة عن صخب عبد الناصر. حيث كل شئ مبعثر بفعل شركة كهرباء المدينة أمشي وجسا، شديد الفضول تجاه عجيج الحياة، في ممالك من خيوط الكهرباء المبعثرة كرخويات لاصقة أو مصارين لزجة أخرجت من عمدان النور/ عمدان الظلمة لتشكل فخاخ "خطر من يمسه يموت " وككل مثالي عتيد أحترس في هكذا ممشى .

عند مدرسة شهداء يناير ، مطعم الرفاق مشوي للدجاج ينبعث مخلوطا بالفحم ممتزجا بما ينبثق عن الذاكرة المثقوبة؛ هنا كان يا ما كان ملهى الأولمبياد الليلي ما توجب أن يكون قربه مشوي الرفاق وميزة أخر الليل.

ولأن الرتابة ربيبة الريبة فإن جحافل الرتابة، التي تجتاح الشارع عند مكان الملهى ما حول لمدرس للصفيح الكوري السيار ما غطى المدينة، تحل ريبة تحولني لسلحفاة حرونة تلتمس السكينة في درعها، هذه الريبة تمسك بخناقي جاثمة على الصدر حتى مطلع القوقعتين المتحاضنتين المخبئتين عن النظارة، المنحوتة الوحيدة في المدينة، المنحوتة الحداثوية، المنحوتة المدسوسة بين مدرس القعدان الحديدية الكورية وبين ما لا يلزم من حديد وحفر؛ ماء ينسكب دون لزوم، هذه المنحوته، يقطعها تقاطع الشوارع عند مدخل ميدان الشجرة ويطعني مراها مغبونة تكافح غير الزمان والنسيان، من أجل أن تفهم وتدرك ماهيتها في مدينة غارقة في المستقبل؛ دون أن تدرك أن المستقبل ما يحدث هنا الآن.

ولأن من السهل أن يكون المرء حكيما بعد وقوع الواقعة أيمم صوب البحر في درب التبانة من بشر وحديد ونور وعجلة، في زحام ميدان الشجرة الخلاص من كل ريبة حيث يقطع دابر الرتابة، في عين الغزالة المقهى المرشوشة بعطر النزوة، نزوة الصحبة، في الملتقى أطلب من القهوجي مكياتا ما جد على نبغازي من مشارب، يشرب

الأصدقاء كبوتشينو ما اعتادوا وما عرفت بنغازي من أيام الطليان في مطلع القرن الغارب؛ كنت أقول مازحا نهاركم أبيض بقليل من البن وليلي أسود بقليل من اللبن.

هذه الليلة مستراحنا الأسبوعي؛ كي لا نقطن عين الغزالة كل الأسبوع ارتأى الأصدقاء أن نقضي ليلة في مسرح، موعدنا في مسرح المجاهد. من عين الغزالة نطلع قبالتنا مباشرة المسرح الشعبي، [سينما الحرية سابقا لصاحبها الجاعوني المنتج السينمائي الفلسطيني / الليبي] ، بين المقهى والمسرح مدرس السيارات وعن ميدان الشجرة زبدة بنغازي المبين ازور غير كاره لصرتها مسرتها ومحشدها، والمدشن الليلي لأهلها الموبوئين بسؤ مزاج وعجز عن التمييز بين الالتزام والتعصب.

أجول فيها نتفة نتفة أتصفحها وأتصفحها كأني ما رأيت بنغازي قبل؛ قبل هذه الليلة الرمضانية التي تعج فيها مدشنة تحولا خاطفا للبصر ولبصيرة المدهوسين بما مضى، الشاخصين النظر عند بنغازي العجوز، المتشرنقين عنها بورق اللعب: الشكوبة والسكمبيل والطرنيب، المعتكفين في غيهم يعمهون.

بنغازي هذا المساء نهد يخض حليب الركب.

فيها أسوح وهي تصب غضبها على السياحة ومن يلطخ حيوطها، من حول عمدانها لعمدان مقابر: قبيلة آل القرنيط ينعون،

قبائل بني قبح يعلنون، آل فجيعة يبلغون: أن على من يعثر على صاحب هذه الصورة، أن يتصل بأول مركز علما بأن الضائع يلبس بدلة رياضية ويناهز من العمر رشاد.

أتخطى شارع بن موسى على يميني، تفوح في الذاكرة خمكارة القوبو ما تحول، بعد منع الخمر في ليبيا، لمصوراتي قبل أن أتعدى شارع فياتورينو؛ عمر بن الخطاب حاليا، لكن الاسم السابق درج، تشدني خيوط تنسل من ذاكرة ضاجة: هنا ترعرعت، تفوح سينما النهضة، هنا نهضت، ينبثق المسرح الحديث في مكان النهضة، هذه عباد الشمس المسرحية الأولى للمسرح الحديث، ولي مطلع السبعينات أول ما كتبت مسرحية شارع بوخمسين.. الخ، الخ .. قشعريرة باردة ناجمة عن الشعور بالخواء تنتابني: هذا كله دشن مدرس سيارات قبالة شارع جمال عبد الناصر حيث ثمة مدرس، في مكان الناقوس المدق أحس أن بنغازي ليست مدينتي، هذه من طبعها طابع ذاتي التدمير، وما أجد في هذا الوجد ملاذا يعتقني من عتاقة ذاكرتي البنغازية الطزاجة، غير أن العتق الحرية والعراقة والقدم كما تدل المادة في معجم لسان العرب على الجمال والنجابة، والسبق في الخيل- هل بنغازي من الموريات قدحا؟-، والشباب والصباحة في وجوه البنات، وعتاق الطير: الجوارح منها، والعتيق: الكريم الرائع من كل شئ، والعتق: الكرم والنضج، وغير لسان العرب اجدني ملوذا بالشعر في الصبر على الوطن قصيد عامر بن هشام

القرطبي: وإنما اسفي إنـي أهيم بها/ وان حظي منها حظ مغبون/ يا لحظ كل غزال لست املكه/ يدنو ومالي حال منه تدنيني/ ياليت لي عمر نوح في إقامتها/ وان مالي فيه كنز قارون.

البقاء لله آل القصب ينعون فقيدهم من وافاه الأجل المحتوم.. تشاركيه المعقل للسفر والسياحة خبراء في تنظيم رحلات العمرة كذا تتلطخ المدينة بما يعزقون حيث ما كان؛ يدفنها بالورق صاحب السياحة الدينية ما تعمر القلوب لتعمر جيوبه وتكدس: أم الغزلان للسفر والسياحة بمناسبة شهر رمضان المبارك تسير رحلات العمرة لسنا الوحيدين لكننا الأفضل، أقرأ هذا على الخيوط بين نتفة ونتفة في المدينة المحولة بفضل المقتدرين لمدفن، وأفكر بصوت عال انتم الأفضل، ترمقني السابلة وأكتم وجعا عند: الشامل للتدريب واللغات لمساهمة جادة في نشر علوم الساعة وبفريق من المحترفين. أبسمل الساعة والحاقة يا بنغازي كذا تنطق خيوطك المتخفية عنا بالورق: أبو لونيا وكيل معتمد المنظمة الدولية للطيران.

عن هذا وهذا يشدني مبنى المجمع الحكومي ما يستعيد نضارته مع ما يجري فيه من صيانة، وأمد البصر فيعلو خارقا كبد المدينة داخلا في سباق مع تيبستي ومبنى الدعوة، تجذبني مكتبة الفضيل [ الجربي للكتب الأجنبية سابقا] أجوسها في نظرة خاطفة ألمح الشاعر محمد الشلطامي في الدواوين العشر الصادرات مؤخرا، وغير ذاك ركام من طبخ وطبيخ، واتقاء القبر والسحر، وجلب الحظ

وما تيسر مما يروج رجا، وما يروجه وراقة الزمان الجادون في عدم الجدية ، وعند كل مكتبة / بنغازي لسان حالي: وانما أسفي أنى أهيم بها/ وان حظي منها حظ مغبون.

كل صراف بخيل، عند كل مصرف يخطر بالبال من آهل بنغازي من لم يستسلم لغواية بيع أرواحهم مقابل المال، عند مصرف ليبيا المركزي البناء ذي الطرز الأميركية/ الوظيفية أذهلتني صدمة مفاجئة لاقتران المال بالشح والقبح، ليس ثمة وقت للنظافة. لذا هذا المصرف في شمال من صوبه الميناء ومصرف الوحدة [شمال أفريقيا سابقا] على يمينه سيلتقي مبانيها أعشاشا للعناكب وأخواتها، ولهواة تصوير الحشرات خير مكان، لكن دكاكين الكومبيوتر تنتزعني من المشهد وعلى شمالها المبنى الإيطالي القديم ما تتوزع فيه محلات عدة أشهرها أقدمها مصوراتي الفلاح من زين ويزين هذه الأقواس بحلاق الفلاح ايضا، تنسى مقهى العصافير وطلوبة لست أنت ولا أنا مجايلها. عند المقهى أتبين حلقة قلادتها شاب هيبي يرتديه بنطال جنز وتي شرت أبيض، كانه في عراك مع البرد فهو عائد في التو من صقيع هلسنكي، شعره أكرت منكوش، كان زنوجة مندسة في سلالته البعيدة. أخاله الصادق النيهوم يرتد عن الجامعة معطيا بظهره لك شئ ولا شئ. وأن مريديه من يشكلون الحلقة يستزيدونه، كانوا قبل وصباح كل سبت يصطفون للحصول على نسخة من العدد الأسبوعي من جريدة الحقيقة كي يقرأوا مقالته، أين تذهب هذا المساء: يشاع

عن بنغازي- أم اليتامى- إنها مدينة الكساد، وأن الموتى يمشون في شوارعها في وضح النهار، ويشاع عنها أيضا أنها " غولة مدينة" لأن بنغازي الحقيقة ماتت مقتولة في الحرب..

والإشاعة بالطبع تتسرب إلينا من مصادر الدعاية التي تهدف لخدمة الصهيونية والنوادي الليلية في أثينا على حساب غولتنا، ولكنها- للأسف- تلقي قبولا واسعا بين صفوف مواطنينا البسطاء حتى أنه تردد- بهدف الإيحاء النفسي- أن أحد الأطفال الليبيين ولد مكفنا.. تلك الكذبة غير المعقولة التي لا تعني شيئا في الواقع سوى أن إحدى مواطناتنا وقعت تحت تأثير الحرب النفسية وبدأت تخلط بين سجل المواليد وسجل الوفيات.. لكن بنغازي ليست مدينة مملة أعني ليس إلى هذا الحد على الأقل .. وإذا كان المرء يسمع أحيانا عن حدوث بعض الخوارق في الازقة الخلفية، أو خروج أحد الموتى من قبره المعترف به لكي يزاحم مواطنيه على صلاة الفجر، أو إصرار ملك الجن على احتلال أحد بيوت دكاكين حميد دون آذن من مصلحة الأملاك معتقدا أن الدنيا عندنا فوضى فإن ذلك لا يعني شيئا في الواقع سوى أن بنغازي- التي تعتبرها الدعاية المضادة مدينة ميتة- ما تزال تعج بالحياة من تحت ومن فوق. هذا وجه الحق.. وتموت الدعاية المضادة بعد ذلك بغيضها، وتموت أثينا أيضا.. فأسطورة الكساد لا تستطيع أن تقف على قدميها في مدينة مثل بنغازي ينقلب عاليها سافلها آلف مرة كل يوم، ويستطيع المواطن

فيها أن يجلس على عتبة الباب الجواني عاما كاملا وهو يتسلى بمشاهدة ملك الجن يتمرغ في الحرارة. أين تذهب هذا المساء: إذا تعب المواطن في نبغازي من الفرجة على الملك في فناء بيته، فإنه يستطيع هكذا في غمضة عين- أن يستدير للجلوس على عتبة الباب البراني وينعم بمشاهدة غولة المنطقة التي تقف على أهبة الاستعداد لتلبية نداء المتفرجين في كل الأوقات. وسوف يكون بوسعه أن يرى جاره الميت يخرج للوضوء في الخربة المقابلة ويرى جاره الآخر يركض أمامه بدون رأس في غمرة تسرعه لتلبية النداء، ويرى " الحاجة امدللة" تشرب حصتها من النبيذ بعد سنوات الحرمان في دار الفناء. ويقضي عاما كاملا في الفرجة على اشباح المنطقة، ويقضي كل سهراته بالمجان وسط برنامج حافل تتضاءل بجانبه كل برامج النوادي الليلية في اثينا. أن ذلك لا يتوفر في أية مدينة اخرى، أعني حتى إذا دفع المرء وزنه ذهبا، فإنه لن يرى قط ما يراه مواطننا على عتبة الباب البراني في أي شارع في نبغازي، وإذا كانت بعض الاشباح تظهر أحيانا في بقية المدن الأخرى- وخاصة في اثينا- فإنها في الواقع لا تصلح للتسلية بأي حال، لأنها تظهر وتختفي في غمضة عين كان وراءها ما يشغلها دائما، ثم إنها لا تظهر بدون راس، أما عندنا في بنغازي فإن الأمر يختلف كلية، وكل أشباحنا ليس لديها ما يشغلها وكلها تخرج في جميع الأوقات وتتحدث معك وتنزع لك رؤوسها وتقول لك: بخ، وتصلي معك الفجر. وذلك بالطبع دون مقابل، فميزة بنغازي عن بقية مدن العالم أنها مدينة لقضاء السهرة بالمجان.

أين تذهب هذا المساء: يستطيع المواطن في نبغازي أن يعرج في طريقه على سوق الظلام، وينعم بالظلام ومشاهدة أشباح الجنود الإيطاليين الذين حصدتهم طائرات الحلفاء في الحرب الماضية، ويتبادل معهم الشتائم بشأن الاستعمار ويتمتع بالشماته فيهم، ثم يذهب إلى شارع بوغولة بعد منتصف الليل، ويشق طريقه وسط الأشباح إلى المسجد نفسه الذي يصلى فيه صاحب الشارع دون رأس.. أعني إذا كان المواطن يرغب في متابعة السهرة.. أما إذا كان يملك ما يفعله في الصباح، فإنه يستطيع بالطبع أن يعود إلى بيته موقنا من أن بنغازي لن تحرمه من حصته على أي حال، وانه سيجد في الطريق ثمة من يخبطه بحجر على ظهره أو يتظاهر بالرغبة في إشعال سيجارته ثم يقول له: بخ!.

أين تذهب هذا المساء بعد أن هدم سوق الظلام؛ ما بناه الترك على شكل محلات مقوسة في ممر طويل مسقوف، تتفرع عنه ممرات قصيرة، حافلة بأسواق أصغر مختصة بين الذهب والحلى المحلية من سنيبرة ودملج وبين عطارة الدهر: ميدان السلفيوم قبالة قصر المدينة الذي من منارته أعلن استقلال البلاد؛ الجامعة الليبية، معهد الإدارة حاليا، مدرج رفيق مهرجان المدينة الثقافي، ميدان السلفيوم ما سماه جيلنا ميدان البيكاديلي: تفتش في ذكريات الليالي الطويلات / هل كنت أنا حقا ذلك المارد المتدفق بالأمنيات / أيها الشعر: أسالك الآن / كيف تخبو الأماني الصغيرات / هل ذبلت زهرة القلب / أيها

الشعر: آه ... لو جئتني / قبل هذا السكون / حين كان القميص مشجرا. هكذا ينطق عني صديقكم الراحل جيلاني طريبشان، يلفني صمت نبت في مكاني لا أتزحزح؛ في قبضة الكرب التالي لليقظة.

نبات السلفيوم أسطورة أثينا أفريقيا، قورينا: عند ذكر أنها شحات حاليا، جال بخاطري إنها كذلك مجلة الجامعة الليبية حين كنت ذلك المارد المدجج بالأمنيات، نبات السلفيوم دواء كل داء أو كما تذكر اساطير اغريق ليبيا، ومنحوتة زهرة السلفيوم محطوطة على مسلة بالميدان- قبل أن تسرق ويوضع مكانها منحوتة فالصو / مزورة - قبالة الجامعة، حيث في المبنى أرقب بنات بنغازي زرافات زهر: نرقب مجيء من يعدن للبيت عقب انتهاء دروس الإدارة الليلية.

اترك مصرف الجمهورية بنك باركليز سابقا عن يمين وعمارة كانون عن شمال، اندلف في حديقة المجمع الإداري، ميدان الملح يوم كانت بنغازي تدعى كوية الملح، الحديقة غائصة في ظلمة مسرح المجاهد ينيرها، سينما الزني؛ ركس مثل أختها غصت بالأفلام القديمة كذا الفعل الوخيم المحتوم، فم قاعة المجاهد يغص بمحل للمشروبات كما يغص بالإعلانات ولوحة اعلاناتها ثملة تتعتع بصور وملصقات، غير ذلك من قبالة فندق عمر الخيام المجانب مسرح المجاهد تصم الآذان أغان لفرقة شعبية تحي ليالي رمضان، في كباريه دون كحول زاهية بنغازي بهذا الترياق لعذبات الروح في غناء ورقص حلال، الأغاني التي تتردد في هذا الكباريه هي أغاني الوردة الليبية

الفونشة المطربة الشعبية المتحجبة بالبيوت الخاصة، حيث تحيي حفلات الأعراس.

يدفع البعض ليحصل على تذكرة عروس البحر ندخل دون حاجة لدفع الثمن؛ جماعة المدينة: فرقة أنوار المدينة، أصدقاؤنا الباشون يرحبون بنا، فيما سالم العوكلي يكتب: يحاول على بحيري في أعماله المسرحية أن يقترب من شجون الشخصيات الشعبية التي تحاصرها إخفاقات الحياة اليومية، الشخصيات الهامشية المشحونة بأسئلة الواقع المضاد والملاحقة من قبل مأزقها الداخلية المدفوعة بغموض الخارج والتباسه. في مسرحية عروس البحر يلقي بشخصياته الهامشية على شاطئ البحر في علاقتها العبثية معه. وسيصبح الأداء الملفوظ هو الأساس في بنية هذه العلاقة التي تكتفي بدور أنها في هذا الحيز المكاني والزماني الضيق.. ومن ثم دورانها داخل مجموعة من المونولوجات التي تتقاطع في مناطق السخرية المتبادلة.. شخصيات معاقة في مواجهة بحر محايد.

تبدأ من حالة متصاعدة لجلد الذات المتعلقة بأوهامها إلى روح التهكم على أبنية الثقافة المزدراة، وعلى خطابات الشعر المتنطع بقول الذات في أوج فخارها.. وبمجرد دخول عروس البحر إلى الخشبة لتنعش وتيرة العمل، ومن ثم لتكون قناعا لمرسلة الخجول بصدد ما يتعرض له الإنسان من تشوه وارتداد إلى غرائزه الأولى.

هنا يحضر البحر كما في الذاكرة الليبية إلى مصدر أبدي

للتشوه وللكائن المسوخ، ومن هو البحر الذي ارتبط بكونه دربا للغزاة، حيث تطرح مسالة الآخر بوجهها التقليدي وبدون الدخول بها إلى مناطق أخري للمعرفة أو السؤال.. الذوات المتجذرة في العاهة والغائبة عن الوعي في مقابل بحر لا يجود سوى بالمسوخ والأحذية. وبالتالي سيكون الآخر المبهر في لا وعي المعالجة الآخر الغربي.. الهادي والمرتب والنظيف في يقظة الكتابة هو المسؤول عن تشوه هذه الذوات .

في هذا العمل كان النص لعلي بحيري كذا الإخراج سيد اللعبة، ومن ثم الممثل منصور العيساوي، محمد الأمين، احمد بوفردة، ميلود العمروني، مع مريم العجيلي، مع حرفية إخراجية حافظت على مستوى الإيقاع المسرحي إلى نهايته، وبقدر ما كان هذا العمل ممتعا إلا أنه يقف دون التجريب؛ فبقدر ما يكون الملفوظ مهيمنا والسنوغرافيا خرساء بقدر ما يبتعد عن فكرة التجريب التي تحتاج إلى وضع كل المفردات المسرحية في حقل الاختبار؛ المناظر والموسيقى والإضاءة والملابس كانت خارج اللعبة، واكتفت بكونها رديفا للنص المسيطر الذي كان يسعى إلى المتعة لا إلى الإنعاش، إضافة إلى بعض الإجابات التي تخللت العمل وكسرت من تلقائية نموه الدرامي ومن أسئلته المواربة.

وسيظل لمسرح بحيري سمته الخاصة التي تضيف نوعية لمسيرة المسرح الليبي.

نترك معتكف سالم العوكلي عنا مندفعين مغبوطين ضاجين

بضحك غامر اجتاح نفوس النظارة وتصفيق حار يشعل أكفنا، لم نلتفت لما جرى لقاعة المجاهد التي طالها مفرق اللذات؛ فعل الزمان نالها بالإهمال وما على منواله. طالعون عن المكان بمزاج رائق وروح حيية إلى معترك شارع جمال عبد الناصر عند منتصف ليلة من ليال بنغازي الاستثنائية، للقاء في مقهى المنتدى الإذاعي بالأصدقاء لنكمل السهرة وبقية ما يتيسر من هذه الليلة.

أعرج على الشمال دائما صوب صهوة البحر ميناء بنغازي، محاذيا فندق عمر الخيام على يميني الحديقة وقدامي سينما برنتيشي سينما بنغازي، في اليسار يمتد لسان شارع عمر المختار ليداعب البحر عند كورنيش المدينة حيث تغطينا الظلمة وتتبين مبنى الكاتدرائية، يتلاطم موج رذاذه يستنهض الروح: سيكون ما يحدث في لحظة غارقة في المستقبل هو سبب ما يقع هنا والآن..

# قصعة المدينة.. بياصا كاني!

من ظلم كمولود تخرج، فتعيد المدينة مولدها ضاوية قبيل ميدانها الأبرن، صرتها، حلمتها ما يحب أن يرضعه ساكنيها في اليوم مرة على الأقل فإنه لزوم ما لا يلزم: ميدان الشجرة، بياصا كاني، ميدان عمر طمسون، ميدان الخالصة، لكن ناسه خلص لميدانهم المخلص لما عمدوه به من اسم، نعت، وصف، هوية وعرض حال، ميدان الشجرة تحب أو تكره، تموت الشجرة وتبقى حرة في تضاريس الذاكرة كوشم لا يزول، واحب أو اكره هذا المشى ما استغرق بين التاسعة والربع والعاشرة من مساء كل ليلة. كل يصب في هذه القدعة الصغيرة التي ضاقت بما وسعت، كريم ميدان الشجرة، بضيق ذات اليد بصدر رحب، كعبة طقس مساء كل اليوم وعصرها ميدان الحوت والحوت والصبارص عليهما أو كما يقول مثل شعبي من يحب مدينته كما يحب النباغزة مدينتهم؟.. هم يحبونها حتى الثمالة، وفي سكرهم يصبون جام غضبهم عليها لهذا يطوفون كل رمضان بين الشجرة والحوت، في عراك، يتداعكون، يخطون ويلوجون، يعربدون، يحششون، يتنابزون. وحيطه يحط في ميدان الشجرة علامة، أيقونة تهكمها وتهتكها وتزمتها وتعصب أهلها لها وهي عصبهم.

عن الميدان غابت مقهى الرياضي الشهيرة ووقفت كاتبها خليفة الفاخري هذا المخلوق يسكن في أحد الفنادق في نبغازي الضيقة الصدر، وكانت غرفته لا تحتوي سوى آلة كاتبة، وحزمة من الورق، ومنفضة سجائر، وبعض الأثاث القديم، وكان صامتا طول الوقت، ولكن عندما يطول الليل إلى حد نتمنى أن تحكي فيه لأحد ما، تنبعث- عبر الصمت- أصوات الحروف فوق الآلة الكاتبة، ممزقة سكون الليل، وأحلام النزلاء في الغرف المجاورة. وطفق الرواد يشتكون بلا انقطاع، لأنهم يريدون أن يحلموا فقط، على حين ظل يواصل حكاياته لآلته الكاتبة. شاعرا بصداقة الحروف التي ستقبل ذات يوم عيون الآخرين المستغرقة الآن في نوم عميق، ولم يعد أمامه سوى أن يغير غرفته في نفس الفندق.. وتكررت الشكوى، وتكرر تغيير الغرفة. بينما لم يحدث أي تبدل في مسلكه سوى أنه اكتشف حقيقة بالغة الأهمية هي أن الغرف كلها واحدة سواء في الفنادق أو منازل الأهل أو الأصدقاء، أو حتى في البيوت المهجورة هناك. في أقصى الأرياف، أثناء رحلة ما. الشيء الوحيد الذي يتغير هو الإنسان نفسه. فعندما تفتح عينيك في الصباح في غرفة جديدة. تشعر فجأة بالذهول، وتحاول أن تتذكر جيدا، في لحظات استيقاظك الأولى. أين نمت ليلة البارحة. محاولا أن تتعرف على الجدران، الأثاث، وجهة النافذة أو مكان الباب، إلى أن تكتشف أنك نمت في غرفة أخرى أو منزل آخر، وليس في حجرتك المعتادة!. ذلك المخلوق لم يعد يعتاده هذا الشعور، لم يعد يشعر بالحيرة حين يستيقظ. ذلك أنه أدرك أن السقف واحد، وأن

الأرض واحدة، وأن الإنسان وحده هو الذي يضع الفروق بين الغرف والمنازل والمدن، وبين البشر كذلك. حين تهب ريح القبلي في بنغازي؛ استرسل خليفة الفاخري في حكيه، بنغازي الضيقة الصدر، تصبح وجوه الناس حالكة كالحة.. وحين ينهمر المطر يكسوها شعور غامر الاستياء، لأن الكثيرين لا يفكرون إلا في الغدران التي ستملا الطرقات. ولكن آنسانا ما، في مكان ما، يظل جذلا عبر انهمار المطر، مفكرا فقط في موسم الحصاد. فيما تقف أنت خلف النافذة، في الغرفة 211، رانيا إلى عروق المطر فوق الزجاج، منصتا بين حين وأخر إلى أولى الأصوات المنبعثة في المدينة عند الفجر، إلى صياح الديكة، ونباح الكلاب عبر السكون، حالما بأن المطر قد غسل المدينة الآن، والناس.. وجعلهم طيبين تماما. إنك تنظر، وتسمع، وتحلم ، مدركا، أثر انحباس المطر، أن الشمس ستنهض بعد قليل، وأن عليك أن تنهض أنت أيضا لكي تسعى في أرض الله. وتقول الحكاية الحادية عشرة.. ما أبعد الطريق!.

.. تقطع الطريق نحو الميدان، وان تمترست سينما النجمة منزوية، ففي الميدان ترسخ وتوتد السكليستة؛ محل تصليح وتأجير الدرجات الأقدم من القدم سي الجهاني الذي تشبث منذ نصف قرن بأن يكون الدراج، في زاويته الحسان سليم/ الحلاق الأقدم؛ العجوز زوج العجوزة بنغازي، حارس الميدان ميدان الشجرة وإن ماتت الشجرة فإنه حي كالمدينة الحية، من تغير جلدها وتلبس لبوس كل

وقت، غضة ومراهقة تتموض بكل موضة حاضنة كل غريب. بنغازي رباية الذائح في ميدانها؛ ميدان الشجرة تنوس؛ ونس الغريب من يصل مثقلا بمسافات التعب متكئا هذا الميدان. تكية أصلها عين الغزالة، ولمن غاب عن مدينته وعن ميدانه كما غابت شجرته فإن عين الغزالة بنغازي؛ مقهي ككل مقهي جديد يتخذ مكانا قديما ولى زمانه أو وهن عنه أو شاخ ومن عقبه ابنه ما ذل ولا زال.

في هذا المقهي أحط الرحال مساحة اللقيا ومستراح المودة، كل ليلة غب أن يصلي الناس التراويح، أخذين في الترويح عن أنفسهم، مسرعين كمصروعين، وقد نعتنا إخواننا السودانيون بشعب الله المستعجل، من اجل لعب الورق والتسكع في ميدان الشجرة الكمشة قبضة اليد، في الميدان مقهي عين الغزالة محل كاريداكس للمجوهرات سابقا ما ذكرني به من لا ينسى، عين الغزالة ضيق كما الميدان، طاولات في عد أصابع اليد اقل أو أكثر بقليل، مودرن أو كما مقاهي الدنيا في هكذا زمان.

في عين الغزالة التقى إدريس المسماري، على الفلاح، محمد الأصفر، عادل جربوع، محمد بوشويقير (حمه) وغيرهم من مثقفي المدينة، أتسامر ومن ذكرت منهم الناقد والصحفي والمسرحي والتشكيلي، نتناجي، نتشاكى، نتأكد، نتبادل النكت والأخبار والإشاعات والكذب الصغرى وما صدق ونتذاكر ونتذكر أصدقاءنا حيث ما كانوا أو غابوا وإن بعيد فم السور في القبور. وفي مقهي عين

الغـزالة في مـيدان الشـجرة في مديـنة بـنغازي الليبـية أكـثر مـن كـل مديـنة. نتـناقش، مـا قـرأنا لـيلة الـبارحة، مذكـرات سـاخرة لـلمفكر السوري أبـو علـي ياسين، أو مذكـرات الشابـي تقديـم محمـد لطفـي اليوسفي ونشر دار سراس التونسية لكن الحديث يشدنا من لجام مـا صـدر مـن كتـب ليبـية كتـب الأصـدقاء: ديـوان جـنـازة باذخـة للشـاعر مفـتـاح العمـاري: عـند الصـباح / وجدنـا مديـنة أخـرى / نصـفها غابـة / ونصـفها الآخـر لا يـرى / عـادت بنصـف جديـد مـن الموسيقى / والسجائر والرؤى / فلم نعرف صوتها المحطم / وعطرها الـذي كـان متوحشـا / وشـعرها الملـون بالمرافـئ الغريـبة / فوقفـنـا / مرتبكين نتنفس خوفنا / لا ندري كيف ندخل الشوارع / التـي تقلنا بلا رأفة / إلى ضفاف عجيبة...

كـتـاب [ أفـق آخـر آراء ومـتـابعـات في الشـان الـثقافي اللـيبي] للشاعر والكاتب محمد الفقيه صالح، من الإصدارات الهامة هذا العام 2002م الـذي زخرت بالإصدارات، الكتاب يحتوي على مقالات مميزة مثل (الشعر، الرقص، الموسيقى) البيان الشعري الذي كتبه ونشره الفقيه في السبعينات، ومقال (كلمة عن جيل السبعينات في ليبيا) المنشور في مجلة الفصول الأربعة عام 2000م، تفردت الليلة في عين الغزالة حتى قرب منتصفها لكن إدريس المسماري غالبا لا يخلف ميعادا، اطل فواصلنا نقاشا فاضلا من ليلة البارحة عن ما جاء في كتاب أفق آخر حول مفهوم الجيل وربط الجيل بفترة زمانية عقدية

في حين أن هذا المفهوم يمكن استخدامه عن ظاهرة جيلية ما مثل جيل 27 الأسباني الشهير، أو فكرية برزت في مرحلة ما بين جماعة متجايلة. لكن هذه العقدية لا تمنح إمكانا لأي استخدام نقدي، وأخذنا نقاش مطول في ذلك وفيما حوى الكتاب من مقالات هامة.

أما مهووس السردية، الكاتب الساعة، الكاتب حيثما كان وفي أي وقت، الناشر في كل موقع إنترنت يقبل مناشيره، الناشر الكاتب على كل ورق، الكاتب قصة بين قصة وقصة، المشاء، المتلذذ بما كشف فكتب، قوريئائي الكتابة: الكتابة اللذة والوجود لذة الكتابة؛ محمد الأصفر كل هذا وغيره وما ليس هذا: يكتب روايته الأولى يحكي ما لم نسمح له مرة بقراءة ما كتب: امرأة من أصل ليبي أسبانية أو صولية، أفغانية ممسوسة بالحرب ومدسوس فيها الحب، شغف يوطئها وطنها، وطنها حيث الحرب والدين والجنس وأمريكا، مطرودة مطاردة، هذه الساعة يكتبها محمد الأصفر مطاردا ثوانيا متوطئاً مع اللحظة: كنت بردان جائعاً صعدت مطعماً فوق سطح نزل شعبي يشرف على الساحة. التهمت صحن كسكسي وطبق سلطة. أشعلت سيجارة رشفت من الشاي وبين السحب والرشف أراقب الساحة. الخلق تتجمع مجدداً قافلة مظلاتها. نافضة معاطفها وستراتها من قطيرات المطر. عاد النشاط يعم الحلقات أغضمت عيني لبرهة وفتحتهما رافعاً رأسي إلى السماء. ابتسمت لنفسي ونفسي لابتسامتي. وابتسامتي قهقهت متسعة. نقدت النادل

ونزلت منخرطاً في الحلقات مشاهداً ومشاركاً بحماس. لم ألعب كفاية في صغري. أبي عامل يومية. يخرج فجراً ويعود بعد صلاة العشاء. كانت أمي تقفل علينا الكوخ فأتلصص من خلال الثقوب لشبه الحياة اليومية. لا أذهب إلى السينما إلا أيام العيد. وما أقلها الأعياد. وقد تكون أياماً يعمل فيها والدي.. البحر ممنوع والأقران الميسورون يتباهون. أحياناً أعاند وأهرب من الكوخ. أذهب إلى سبخة رأس عبيده. أصطاد الفراشات بشريط بلاستيكي. وأسبح شبه عار على ضفافها الضحلة. كثيراً ما وشى الوشاة فضربني أبي بقسوة. ووبخ أمي توبيخًا بذيئًا. مقسماً بتطليقها أو الزواج عليها بمصرية إنْ غفلت عني لحظة واحدة. لا أدري لِمَ يفعل والدي ذلك؟ إلى الآن لم أفهم وحتى وإنْ فهمت فسأعتبره فهماً بائتاً.

في عين الغزالة عين الساعة عين ميدان الشجرة عين بنغازي، لا نتحقق إلا من قرأتنا: أصدقائي / في ليالي السهد لما / ينشر القلب لمن يهوي جناحه / ويمد القمر الأخضر للعشاق راحه / ساكبا في رفة الصبح إليهم موعدا / فاعلموا يا أصدقائي الطيبين / أن آمال الهوى لن تخمد.

# عمر المختار ... ميدان الحوت

أقبل نهار، أنحرف عن جمال عبد الناصر إلى عمر المختار تاركا عن يميني ميدان الملح؛ حديقة المجاهد التي تعج بالعصافير الطليقة، وبنفر من البشر المكبلين بالهموم والتعب من أثر مراجعة المجمع الإداري ما يقع في الجانب الأيمن للحديقة مجانبا لمبني صحنه قبة وطرزه تتشابك بين معمار إسلامي وإيطالي. هذا المبنى شاخ رغم أنه بني في مطلع خمسينات القرن الماضي كمجلس تشريعي، هذا المبنى شاخ؛ شباب الجامعة حاد عنه لما لم يعد مكتبة جامعة بنغازي لسان حالهم أعمى المعري:

أبني بجهلي دارا، لست مالكها

أقيم فيها قليلا ثم أنصرفا

يوم ولدت افتتحت الجامعة الليبية في بنغازي، فكانت كلية الآداب أول كلية وذلك في العام الخامس والخمسين من القرن العشرين، في مبنى قصر المنار قصر الملك الذي كان قصر الوالي الإيطالي، بذا كانت بنغازي جامعة ليبيا وكان مبني المجلس التشريعي مكتبة، هذه الجامعة حيث تلتقي بطلاب العلم من كل

ليبيا وبأساتذة من أقطاب الدنيا. لم يكن المبنى كما هو الآن، هدمت طائرات الحلفاء الكثير من المباني وأزال الليبيون غيرها ومنها ما شيد في مكانه مبنى المجلس التشريعي لولاية برقة: Palazzo del tribunale هكذا كان اسم المبنى ذي الواجهة التي يتوسطها أقواس ثلاث مزخرفة تشكل المدخل ما في مقدمته درج، على يسار المدخل أقواس ثلاث أيضا ومثلها في اليمين لكنها أقواس أقصر وهي تشكل مقدمة "روف" المبنى حيث تطل ست نوافذ، في الأعلى تتبين قبة صغيرة وعلى الجانبين صومعتان صغيرتان، أمام هذا حديقة صغيرة وارفة، في الصورة هذا، في الذاكرة أن فيه جرت محاكمة عمر المختار.

في الناصية رجل يمشي تعبا يشاكس ظله، مشدود القامة يمشي لكن هذه القامة تؤمي بأنها قابلة الترهل، الرأس حاسر يخفي علامات الطربوش والنظارة ظاهرة، هذا الرجل طافح بما فيه، تخيلته يقطع قلب الحديثة قطعة قطعة فيما سلف، من خلتني خلفه غير الصالح، الأطراف تطوحت، الرجل عن أختها، اليد تنازع شمالها يمينها، العيون زائغة، في فضاء الحديقة؛ قبعة الشجر المرصعة بالعصافير واليمام البرتقالي تشغلني عن أن أرقب الرجل المشتبك في جسده والمتخبل في فكره يكتب في الذهن مسرحيته: عمر المختار؛ خيال يطل كأن عبد الله القويري وهو عائد من المهجر المصري حط هنا دون قصد أو روية ليسوح كخيال في مدينة مخياله، أو هي كانت راقدة تنتظر: بنغازي شوارع تعيش آثار الحرب. كل ركن مهدم، كل

شارع فيه ما يدل على أثار القنابل والانفجارات، المباني نصفها قائم والنصف الآخر خراب؛ عمارات رمم بعضها وترك البعض الآخر. وأخذني ما أشاهد إلى أن استنكه النفوس، فهي حتما مازالت تحمل بقايا الحرب وأثارها في جوانبها. إنها تبدو ظاهرة الحركة، نشيطة، ولكن الشظايا في العيون، مثلما الحطام في الصدور، والعناء في القلوب. والصغار حملوا العبء من أجل لقمة الخبز. بنغازي مدينة في وطني، وتظل قدماي تحملني وأدور في الشوارع عبر أزقة، وحذائي يرتطم بالحصا، وكثيرا ما تنهبع قدماي في حفرة، لأعود وافقا أمام فندق النجمي .. مطيلا الوقوف قدر ما أستطيع، فالريح باردة، وما علي من لباس لا يكفي فصل الخريف. جئت لا أحمل شيئا غير ما تحمله كتفاي، وكانت حلة من قماش قطني، تدلت جوانبها، وكان علي أن أحتمل حتى أستطيع استبدالها. واحتملت والشتاء يقترب فالشهر الأخير من عام 1957م، تركت أحلامي منذ زمن بعيد، وما ينتابني وقد أطبق على مدينة بنغازي غير ضيق يأخذ كل نفس، فما أكثر ما يردد الفرد منهم كلمة: طايرة له، تسمعها منه وهو يلقيها في وجهك دون اعتبار، وربما لا تسمعها ولكنك تدركها على ملامحه أو تتلقى نتائجها دون أن تدري...

يطل وجه عبد الله القويري من النص على المدينة برمًا وقد تلحفه البرد، وفي عينيه أرى الميناء على شمالي فاصلا بيني وبينه شارع أحمد رفيق المهدوي، جبانة السفن الميناء ومحيطها، والمدينة ملاعب أوربية ترتع فيها قنابل ومتفجرات، تركة الحرب الثانية ما

سوف تكون سوق التركة الذي في مطلع السبعينات من القرن العشرين أكلته النيران.

أنشغل عن وقدات القويري بشغب رجال الشرطة أمام مركز المدينة، شمال الحديقة وقد هممت بـ عمر المختار الشارع الذي أتغيَّ، هذا المركز ملتصق بالخاصرة اليمينية لسينما البرنتشي سينما بنغازي، التي بنيت كما بني فندق برينتشي قصر الجزيرة حاليا، عند زيارة الدوتشي موسوليني في مطلع العقد الثالث من القرن العشرين الغارب، سميت السينما على اسم بنغازي الأغريقي برنيكي الذي ينطق بالإيطالية برينتشي وبالعربي ببرنيق، كذا يذكر مؤرخ المدينة محمد بازامه.

في مطلع السينما مسرح مفتوح كمقدمة لواجهة الدور الأول بخلفية أقواس رومانية تتخللها نوافذ مستطيلة رأسية، ركح هذا المسرح الخارجي تزدوج مهمته بين أن يكون مقاعد أصحاب الشرب كمتداد للمقهى، وبين أن يكون خشبة مسرح الهواء الطلق؛ في حالة تقديم عرض مفتوح على الشارع فإن قلبه مفتوح لذلك ونفسه مشروحة. المدخل المرمري يتسع كالمسرح الداخلي صاحب الأدوار الثلاثة: يتسع اللمة الكبيرة والزحمة. وإن كان الركح، كما الصحن والبلوكانات تتسع جميعها حتى يعد مسرح برينتشي هو استعادة للمسارح الرومانية في فخامتها، فإن الكواليس يمكن أن تدخلها سيارة بجرار وتخرج دون حرج. لكن الحرج حقا أن هذا المسرح

الشامخ طاله حريق شوهه وخسفه عن المدينة، حتى الساعة دون صيانة ولا يحزنون، فلا تبكي كما يبكي المكان، طلة يوسف وهبي في الثلاثينات، أو نزار القباني في السبعينات أو أسابيع السينما الجزائرية والفرنسية منها.

في الخاصرة اليسارية لبرينتشي ثمة مبني من نفس الطرز الإيطالية للسينما حتى يبدو مولودها، فواجهته/ البراندة تصلح كمشرب أو كمسرح خطابي وكذا كانت عند بنائها؛ هذا المبنى مقر الحزب الفاشي الذي تحول لمقر لنادي الأهلي وحاليا المصرف الأهلي، وما غريب في ذلك فالمبنى صغير وحافل بالمسرات لكل بخيل ولا يحب جديدا.

أخال عبد اللّٰه القويري في المقهى، وقد فاتني أن أسفل المبنى قد كان مقهى بازامه صاحبه كراكوز بازامه الأشهر في خمسينات بنغازي وهو غير بازامه المؤرخ وأن كان من عائلته، وأن عبد اللّٰه القويري: تدثر بالظلام وطاف وحده بالمدينة فيما النوافذ تتلصص عليه وهو يحوم حول هذه البنايات الكئيبة كطائر فقد عشه .. أنفض زبائن المقهى وبدأ النادل يلملم كراسيه المبعثرة على الرصيف تمهيدا لقفله، ودون أن ينظر إليه:

- أستاذ .. تعاقب الليل، أرجوك لملم كتبك أريد أن أجمع هذه الكراسي والمناضد داخل المقهى ... تفرس فيه .. حتى هذا يريد أن يتخلص منه. أنتفض على صوت سيارة تمرق وسط الشارع .. كان

صوت موج البحر واضحا في صمت الليل، ممزوجا بصوت حفيف الأشجار يسقط على الأسفلت مع وقع أقدامه. دخل الفندق وبالدور الرابع حيث حجرته الباردة، تمدد على سريره بكامل ملابسه .. عقد يديه خلف رأسه محدقا إلى فوق .. إلى عنقود الضوء المعلق بالسقف .. تحسس وجهه وبقفا يده اليسرى مسح دمعة كان يحس أنها تسيل على خده من غير صوت ولكن بقهر...؛ رمضان عبد الله بوخيط مسترسلا يكتب قصته: حكايات الماضي القريب في ركينه المقهى دون أن ينتبه أحد غير البحر الهائج، ما يحوط من أركان ثلاث بنغازي شبه الجزيرة الليبية.

بين هذه الأركان الثلاث أمشي وحيدا مسورا بالبحر، وفي البال خاطر ينسرب من خاطر على يميني مصرف الأمة ؛ روما سابقا وقبالته شارع يسده البحر عند ثلاجة الميناء، في ركن الشارع، شارع عمر المختار؛ المصرف التجاري الوطني، في منتصفه المصرف العقاري يحاذيه مصرف الوحدة فرع المختار، ما أكثر المال ما أقل الجمال في هذا الخيط الرفيع من هذا الشارع الذي في طرفه شرطة السياحة حيث كان البنك العربي، وفي نهايته في ميدان البلدية فرع للمصرف التجاري الوطني؛ غص عمر المختار مالا كما رشق على الأوراق المالية ورشح هذا المال قبحا في هذا الشارع المغمور بالورق والمغفور بأوساخها.

أمشي الهوينى مسورا بمبني مصرف الأمة الحديث، مبني وظيفي ملطخ بالورق تستمد البشاعة منه ملامحها فيخرج على

مدرس سيارات ليؤكد هذه الملامح ويصبغها بالعبث، محاذيا المصرف الوطني ما يتمخطر في طراز إيطالي يصبغ حلة شارع عمر المختار، ولا شيء يقطع خيط الوصل بين ما يجوس النفس من خواطر وأحلام يقظة شرسة تنبش العقل الباطن والبراني.

الرتابة تندس في المكان وفيروس الوحدة القرين، مدركا أن ليس بمقدورنا أن نفهم من نحن، نحن اللغز الذي لا يحزره أحد، مدشنا الخاطر بطلعة بهية مسافرا منفردا في الشارع ولا أحد يرانا أويسمعنا، نحن فقط نرى أنفسنا: هو يحث الخطى وأمشي الهوينى، أقرب من الوجيب ولكن على خطوات مني، أرقبه وقد تخطى الشارع المندس بين مدرس السيارات والبحر في طرفه الأول المصرف الوطني وفي الثاني كانت مكتبة عامة في الخوالي من الأيام، كنت من روادها أطالع مجلات الأطفال سندباد والليبي الصغير وسمير وأسرق ما أقدر من كتب الكيلاني ملخصات شكسبير وديكنز..، وكنت تركت خلفي المركز الثقافي الليبي في تقاطع عمر المختار وجمال عبد الناصر وكان هذا: مركز مرتع الصبا ومطلع الشباب.

الآن فقط بلغ الممر بدايته وبقيت في مكاني لا أتزحزح، على يميني مبنى بريد بنغازي أسير بتاريخ الندم وهول الخواء ما طالة بعد أن كان فنار الشارع وحدائقه تطوقه صناديق وألواح مطروحة محولة رقبة المبنى لعقد قمامة الباعة المتجولة الذين يطرحون: كتب عتيقة ومجلات قديمة وأقدم، ملابس داخلية وخارجية، بويات وما

شابه ذلك ...، في شمالي قبالة البريد العمارة ذات الأقواس الطويلة الممر وبين ما كانا سابقا المكتبة العامة ومصوراتي عوض عبيدة، من هو من رواد الفن التشكيلي في البلاد، من هو صاحب أول معرض دائم لفنان تشكيلي في البلاد، بين هذه وهذه مكتبة قورينا: مقاعد أصحاب العقل، في المكتبة طول وفيها عمق ظاهر، في فترينتها على جانبي ممرها/ مدخلها للكتب الليبية أساسا، وغيرها من الكتب، وفي الواجهة لوحات ونحاسيات شرقية زاهية بقدمها.

قبيل أن أندلف أسمع زئير أسد يقطع الطريق ولا أحد يستطيع مواصلة الرحلة. قاطع طريق مميز بعد أن تمكن الجمع من تدبير أمر قطاع الطرق البشر، اقترح أحد التجار أن يشترك الجمع في جمع ثمن جمل هزيل فدية لذا الأسد كي يخلي الطريق للسير للقافلة. لكن عمر المختار لم يقبل؛ فلم يلزم ذلك كما لم يلزم دفع الإتاوات للبشر، وعدها علامة الذل والهوان، اقتربت القافلة بإصرار المختار من ممر الأسد ومربضه وانبرى عمر المختار للأسد فأرداه قتيلا وسلخ جلده ليراه من لم ير.

ذكر الطيب الأشهب أنه اجتمع مرة في خيمة المجاهد محمد الفائدي في دور المغاربة بالمختار، وذكره بالأحدوثة فرد عليه عمر المختار: تريدني يا ولدي أن أفتخر بقتل صيد. تناهى الحكي من مكتب المكتبة لمسامعي وقد تخطيت الممر وولجت المكان. يسيطر عليَّ التحفز والإثارة، ومتيقنا أن ثمة منارة يلوذ بها الأفراد المتوحدون، وأن اليقظة زوال الحلم من الوجود: يا ويحهم نصبوا منارا من دم.

# بنغازي في 19 أكتوبر 1911م

مدينة برتقالة عفنة عطرها البارود ومنارة سيدي خريبيش تشي بها لفلك تندس في بحر الظلمات، رعود وبروق تفلق ليل المدينة فتتبدى لبرهة صبحا فاجعا في غير حينه، كل مسالكها خيوط عنكبوت، كل فسحة فخ. القيامة الآن والصراط سكين يشق البرتقالة التي سيول دمائها تشق مجاريها؛ خلائط من فرث بطون مبقورة ولحم مهروس وعظام مدقوقة وحديد وبارود، قطط حائرة من فئران هاربة نحوها: أين المفر؟

الأرض زلزل زلزالها وشعر السماء الحالك السواد اشتغل شيبا حنته نار موقدة.

ظن أن حزب الخوف كما استولى على حسه خبل فكره وأنه غائص دون قرار: أين المفر؟ أخذ يتخبط كقط مقطوع الرأس حيث هو غائص تشق كيانه سمفونية الرعب من ولولة وعويل وفرقعات وانفجارات، تسائله نفسه كيف حدث هذا؟ يجيبه صمت مباغت: ونحن غافلون. غافل غفلته وهيأ نفسه لرقود الأبدية حين مزقت الأفق المتلفع بالظلم رعود مرسولة من البحر، جمع مزقه هاجس مرضعته متهكما مرددا: ما جاء من الغرب .. ما يفرح قلب.

تبين أنه الغريق في مفره؛ طعم الملح الممزوج بالطين مس شفته السفلى التي عظها متشبثا بيقين ما، شك في وجوده لو لا دفء الدم ولوذعته، قلع جذعه من مخالب سبخة فيما بعد تبين أن مفره هذا كان أول سبخة سيدي حسين على بعد خطوات من مهربه، هج عن بيتهم قرب الميناء غاظه أن يكون مأسورا لأهوال اندست تحت معطف الظلمة الحالكة، ومدرار مطر يدكه دكا كما تدك المدينة ساعتها دكا. توكد أكثر من كل مرة أن جسده بيوت وشوارع مقصودة بهذا القصف ومن توكده هذا تلمس حصاره.

لم يكن صاحب سفن كي يحرقها ومن سفن يأتي ما يحرقه؛ كما باغتته غافلتة الوحدة وهما مجدافاه حيث مركبه: لعلعة رصاص من البر وانفجارات قنابل من البحر وكل هذا مستتر؛ آخر بما يعرفه لا يعرفه، حطاب ليل ونفسه حمالته، تبا من نفس في جيدها حبل حيرتها، تلمس حصاره مرة ومرة مفرا مدبرا معا لعل في المحصر فك العقال.

هج داسا وجله في هجة آهل المدينة إلى أطرافها عله يتبين الخيط، ظنه أن ليس كل منسحب مهزومًا ذلكم ما وكد لذاته؛ أليس جسده بيتا إن أغلقت أبوابه فساحاته مفتوحة على الأفق؟

لم يعط ظهره لأفق النار حيث شاهد الأشجار تطير والطيور تتخبل مصطدمة برؤوس بشرية مقطوعة تزاحمها الفضاء، اختلط المطر بالفرقعات وجذوع نخل سابحة، في انسحابه هذا مع الهاجين تكشف أنهم تهيأوا لقوس مرمى المدافع، حيث يتمزق أجساد

الأمهات ويتطاير من أيديهم التي وهنت لفائف رضعائهم، قفز حينا متلقفا لفة وكبا حيناً كي لا تطاله شظية، من هول ما سمع عد ما رأى نسج مخيال مريض كذا من هول ما رأى عد ما سمع وجيب قلب جبان.

قطع حيرته من دابرها بأن خرج عن حزب الخوف ففي كل مطرح تقابلا معا هو في فراره وعزرائيل في مطاردته، منذ ساعات الليل الأولى والطرادات السبعة الرأسية قبالة الشاطئ تطلق مدفعيتها وتسلط كشفاتها، رصاص يلعلع في الأجواء لا يعرف من يطال، لكن حزم أمره على أن عزرائيل قد يطاله من الظهر أيضا، لذا توخي الحذر المشوب بتهور الخائف. تخطى السباخ سالما وتعدى حي البركة الذي تطاله مدفعية البواخر الحربية، هنا اختلط الهاجون بجنود مرتبكين وأهالي يحملون بنادق قديمة، وكما رأى شرر الشظايا يتعقبه توجس شرر العيون؛ تخفي مندسا بين النسوة متخذا سمة خادم يساعدهن في فرارهن.

تاه متخبلا في خيوط الفجر التي تسللت كثعابين من شقوق السحب الركامية. في قرية القوارشة، على بعد مسافة قطعها بشق الأنفس ساعد في حشد الأطفال تحت خيمة ركزت على عجل من أردية النسوة اللاتي صرن شبه عاريات. لم تسكت المدافع، لم تسكت هواجسه، لم يسكت الأطفال الصارخون والنسوة المولولات، لم تسكت رعود السماء وسكت جوعه؛ لم يذق الطعام مثل غيره منذ ظهرت

الطرادات السبع وناقلات الجنود العشرين على الشاطئ فجر يوم أمس. في لحظته تلك التي لملم فيها كيانه سمع من يصرخ أن جنود النصارى ينزلون من قوارب في الجزيرة التي يفصلها عن المدينة سبخة، عرف أن ليس ثمة مطرح دون تؤكد من سبيل فاندفع في ذلك اللا سبيل لعل جبلا يؤويه. عند شجيرة بطوم حط رحاله حين تجسد الفجر كاشفا شتاته فيما تبين عن بعد المدينة تشتعل النيران في شمالها وغربها؛ هو من لم يغادرها البتة هاربا منها الآن أو هاربا عنها؟ تاركا أختيه لما شاءت الأقدار وبيتهم لدكات سفن غازية، من بني غازي إلى أين؟ نهض متكئا على حيرته متوكدا من ضياعه؛ من لا يعرف السبل. تسللت خيوط شمس ذهبية مندغمة في خيوط شعره، وعند بركة ماء في الطين وقف ليشهد زرقة عينيه وحمرة بشرته كما لم يشهد قبل في مرآة وأن شهد وسامته في عيون نسوة الجيران خاطفة أو في عين رجل مرتبكة. اغتسل وفك بالماء الشديد البرودة نفسه من شباك الوهن، سجين هذه البطاح كما كنت سجين بيتك حدثته النفس اللوامة، استراب في أنه ضيع الطريق وتيقن من جوع وخوف، حشرت النفس في البيت من شهور عقب قتل أبيك ثم دفنتها دون موت بعيد قتل أملك هذا الهاجس الذي يطارده كما لو كان شيطانه المعلق في عرقوبه. رشفات من غدير عقبها قرقرة البطن، لو لم تمطر لمت من عطش. حدث نفسه بصوت اجتاز أذنيه وهزه في خلاء تملؤه شجيرات بطوم والفراغ الذي يدفعه دفعا للتقدم نحو اللا شيء.

تعثر في ظله ساقطا في حضن بطومة عند تناصف النهار من لم يذق طعم النوم غرق في لجاجته، ضمته البطومة عن وابل مطر ودفئه أنفاسها، دون حس انحشر فيها وجذب دفء جسده حشرات، لسعاتها أيقظته كما أيقظ الحك فكره؛ كأنك لم تغادر مدينتك لكنها المدينة شبه الصحراء، فظن أنه في طفولته كثيرا ما أشعل نارا بحجري صوان وأمسك باليرابيع وشوى القنافذ، وآكل الفطر وفي أكتوبر مطالعه حفر مرات الأرض العفنة وغنم مد سوسها، بل أيضا صاد الطير برمية حجر. نام قليلاً كما أكل أقل لكن جسده نهض عن وهنه فغدي يستنهض همته الخروج من متاهته، رقب عن بعد ذئبًا يرقبه؛ تبادلا النظرات شده زرقة عينيه أو كما تخيل أن فيهما حيرة تنشد: أن منذ خمسة عشر يوما، والرياح تفح محملة بتراب الصحاري، الشبابيك مغلقة والستائر مسدلة؛ ومصابيحنا انطفأت والصهاريج قد غيبتها الرمال، العصافير قد هربت لشقوق الجبال والغصون تئن مع الريح، ثم تهوى مجندلة في التراب، السماء رمادية غير أن المياه؛ هاجرت لضفاف البحيرات، نحن نبكي ولكننا، نتقاسم كل هذى المساواة. لم يتكلما لكنهما ترادفا وإن عن بعد، وإن اختلفا في النوع استمد كل منهما وجوده من الآخر؛ الذئب في مرقب وهو في خطوه يحث الخطي، قائلا: إن لم يكن ثمة هدف الطريق هدفا، آنذاك خربشت الأظافر التراب وطارد كل منهما حجلا حط، حجل في ربكته يختلس مسربا مأمونا، مثلها طريدة إلى الفخ كالفراشة تحترق: شوى واقتطع نصيب الرفيق، قبل رمي به إليه. الشبع ضاعف ضياعه، عند

المغيب قدر أنه يحرث ما حرث ففك بطومة من اشتباكها ومهد مستراحا أنس من عوى الذئب الذي اعتبره حارسه، زاده نار تتقد ونفس مرجل، دكن الظلام في عينيه، دفع بالحطب، توهج الضوء، استعاد مشاهد ليلة البارحة من خيالات ناره؛ السفن بانت عند الفجر لكن لم تعج المدينة بفوضى المباغته إلا في الظهيرة، لغط اللاغطون أن الطليان وجهوا إنذارا للحامية التركية بالتسليم، لكن لا يتسنى ذلك بين دولتين أعلنتا حربا ضروسا بينهما. أخرجه من خاطره عواء ذئبة ونباح كلاب، نهض يستطلع الأمر لكن ما رهف سمعه يبدو بعيدا، صباح اليوم التالي تكشف أن راعيا مر بالجوار فغضب من قلة المعرفة وكسل المحتار. نام من شدة الغيظ، لقد طوحه جبنه في مهلكة دونها ما فر منه، استل سكينا من المطبخ وهام في الشوارع يبقر بطون جند ترك ويقطع رؤوس جند طليان ثم مرق باتجاه قارب ينزلهم أشعل فيه النيران، اشتعلت نار في بيتهم وانفجر من أثر طلقة مدفع، طلعت أخته الصغرى حاملاً كما لم تكن والكبرى تمسك بين يديها مسخا، سقط في حفرة لم ينتبه لها كانت قد صنعتها طلقة مدفع. جهد أن يخرج كلما حاول ازدادت الحفرة عمقا وامتلأت روثاً ودما وقيحا وأطفالا غرقى يستصرخونه، في هلعه امتدت يد تنتشله عند خروجه أخذت يد تقشع هلعه، أمه بابتسامتها المعهودة وخلفها أبوه يحرسها ويتجلى مع وهج الانفجارات كعبد أسود، مسحت الأم رعدته ومراء الأب له وفي جموح اللحظة لام اباه أن يتركهم ليقاتل مع الترك ضد الطليان، وإن كان مسلما، وإن أنقذه

الترك من أهله في جزيرة كريت ساعة انسحبوا فأرين وفر معهم؛ جامعا بينه وبينهم الدين فاصلا بينه وبين أهله. ما الذي حدث منذ شهور؟ قتلك الدين في جزيرة رودس؛ جزيرة من جزر أهلك. حضن أمه باكيا من لوعة: قتلك أبي. ذلك الجندي الأهوج تركي يقتل عدوا؛ إيطالية نصرانية. القتل صراط جنته والحرب مبرره والانتقام سبيله. اختفيا كما لو لم يوجدا فنهض من سجدته مرتعشا. انطفأت ناره بانهمار المطر الذي تحول سيلا جرفه عن مكمنه. شهد الذئب من عينين باقستين تحت شجيرة البطوم المقابلة. هلع من تربص الذئب ومن عدم تمرسه وقلة خبرته. صر على نفسه أن تنام النهار تستيقظ ليلا. لم يتمكن مرة من تحديد الاتجاهات وأن أشرقت الشمس. لماذا لم يفكر في العودة إلى المدينة لا بد أن أمر انجلاء؟ أجاب حسما أن الحرب لا تعترف بمسالم أو حياد لهذا توكأ عود بطوم؛ عصاه سلاحه ولأغراض آخر وطوح جسده في ستر الليل لابد أن ثمة مسلكا تسلكه الحير فيكون الفاتحة. قد تعلم من أمه وأبيه أن للكربة منفرجة. قطع مسافة ليكتشف شجيرة بطوم آوته من منسكب المطر أشعل النار وجفف بالاقتراب منها بلله. صاح الفجر فرقبه وعن بعد ثعلب يتسلل. جفل النوم وهدته اليقظة لكن خربشة وثبته ليقفز جنبه أرنب مطارد اتخذ سلاحه حجرا وجندله. الثعلب هرب ساعة عوى الذئب. لذة الشواء سرت فيه. نبض القلب. في اليوم الخامس من التغريبة حكى أن الذئب الذي لم يغادره لم يغدر به. لك الأرض ضاقت بما رحبت. الطين الأحمر

زاد ليونة والمسالك زادت صلابة وأنه ضائع لا محالة فأعطى الشمس ظهره متأملا العودة. في اليوم السادس شح المطر، في اليوم السابع فقد الرفيق كما فقد الطريق وفي اليوم الثامن لم يجد نفسه.

حين حل جند الطليان بالمدينة وهج أهلها إلى أطرافها، انسحب جند الترك من حامياتهم إلى تلة بنينا وأقيم هناك معسكر ضم كل المقاتلين من تُركٍ وأهل المدينة وقبائلها المحيطة، ظهر للعيان أن الرصاص خذلهم في صد الأعداء المتمترسين بالبحر ومدافع السفن، الذين نزلوا في قوارب تحت حماية مدفعية ثقيلة تتقدمهم رشاشات كاسحة. في الأيام الأولى لم يعد أحد من أطفال ونساء قادرين على التشرد في قرية القوارشة وغيرها من القرى، في الأيام التالية لم يعد لأهل القرى مقدرة على استضافتهم، لم يعد ثمة زاد، آلاف الأفواه والبطون خاوية. في الأيام الثامنة فطن بعض الجوعى أن الموت كأمن في ملاذهم، وأن منهم من ترك زادا من قمح وشعير في بيوتهم في مدينتهم المسلوبة، فكر بعض البعض في التسلل والعودة. في الأطراف الأولى للمدينة، بالتحديد في الأحياء المتطرفة وجدوا مدافن جماعية؛ خلائط من جثث أهلهم وجند ترك وجند طليان ومن هؤلاء الكثير، عاد المتسللون على أعقابهم تفشت إشاعة: تفشت الكوليرا، جلبها الطليان كما جلبوا المدافع الثقيلة والرشاشات الحديثة، وأكد ذلك أن من قتل من رصاص المدافعين عن المدينة أقل بكثير مما دفن من جثث الطليان.

كما فقد الرفيق والطريق في اليوم الثامن لم يجد نفسه؛ وجد جسده مريضا. حفر حفرة وجمع فيها الشيح وأشعل النار واستنشق، كما شاهد جارتهم البدوية تفعل وكما داوته بالزعتر لما اكتسحته حمى، التهم الزعتر الفائح ما حصد عن جنب، جسده ناري وناره متقدة والبرد يلفح داخله فتصتك أسنانه يندس من غضب في داخله ويوقظ الجدوى.

نار الحطب والشيح والزعتر، نار جسده، نار الجدوى؛ ثالوث ضوء فلك أسره، صاد أرنبا وحشاه بالفطر وتبله بالزعتر والشيح، التهم ما شواه تنبه لشح الماء فاتخذ من آثار مخالب الذئب دربه. تلونت السماء بزرقة مخضرة وتشكلت لوحتها بسحب ثالجة زالت ريبته: في الأفق عواء ذئبة.

شاهد معلمته تركض مع الذئاب؛ هذه الراهبة الإنجليزية ذئبة كما قومها هكذا كانت أمه تحذره فيما أبوه يؤكد عليه أن يدرس على يديها اللغة الإنجليزية والطب وأن يثابر أن يطلب العلم دين العصر الحق، بكل قوة واندفاع ركض ... ركض نحوها حتى تلاشى في القطيع؛ الشمس في حماها توجه ضرباتها وفي غمرة تشبثه بيقين ما، صرعته. تجنب كثيرا الشمس؛ نام النهار وجال بالليل لكن فقد مصدر للماء جانبه الصواب فتبين أنه حمار وابن حمار وحمارة أصيلين لهذا حفر طريقه بحافرين نحو كهف ضبع وعندئذ توكد أنه ولد في مدينة الحصار الأبدي، مدينة جزيرة يلفها بحران بحر الماء الأزرق وبحر

الرمال الأشهب. في يوم قد يكون بعدد أصابع قدميه ويديه اختلط كل شيء ولول وصرخ في وجه الفيافي وعد النجوم اللامعة في ظلمة نفسه، لم يستغرب شيئا منذ خاف القطيع وهام مفردا كالبعير الأجرب متعقبا آثر خطوه، مربيته البدوية حذرته من سراب الصحارى وأطعمته لحوس العقرب ودست في عنقه حجابا يحفظه من الهوام، لم تعرف أن الهامة التي ستعيقه الظل، ظله الذي قسمه إلى اثنين في تلك المفازة كثيرا ما غرس أظافره فيه علّه يوقفه ويستظل تحته: الوجود في الظل خلود.

اتخذ من قميصه الممزق مظلة وحشر رأسه تحتها فلاذت عقرب به، مد لها عصاه فتشعلقت بها ولأنها مثله تتشبث بالحياة جعلها عزوته في وحدته مواجها اله الموت الذي يمتد ويتمدد في الأفق، الرمال جسد الصحراء الناعم تداعب خيباته وبلطف تستدرجه كي يتخذها سريره المخدر، لو لم تطوح العقرب نفسها عن العصا لتقع على صدره لسلبته لذة الخدر إرادته. طوح بالتعب عن صدره رفع العقرب سلاحه وقال في وجودك أرى فنائي. كان الفناء يحيطه حيث ما ولى وجهه وأشاعته روح الصحراء؛ ريح القبلي في الأجواء، تذكر أن هذه الريح تحول البلح لرطب فترطبت روحه واتخذها دليله إلى الشمال حيث البحر، حيث مصب النار الذي فر منه بحرارة الروح، لابد أن مدينته تخيم الآن تحت الدخان بعد أن هجرتها الحياة. مثل تلك المدافع والقنابل والرشاشات والرصاص لها وجه

واحد هو وجه الموت ليس كهذا القبلي وهذه الصحراء، قد يتقنع الجمال بالقبح في هذا الخلاء المترامي: ولولت الريح الجنوبية خلفية لعواء الذئبة وفحيح الأفاعي؛ هذا الانبثاق في سكون الكون يجعل الحياة بالإمكان.

رسم القبلي على الرمل تشكيلات مضطردة فبانت للوحة مسارب، تسربلت منها عشيبات متشبته بالأرض من موج الرمال تمد روحها للمساء، مات القبلي فنام من وهن أفاق عند الفجر وقد جرفته سيول، تشبث بعشيبة طلعت عليه من ثنيات ربوة، غريق الرمل بت أفقت غريق الماء: ليس ثمة فرق بين البحر والصحراء والدنيا في كل تعيش غريقا، تذكر ما رددته عليه مرضعته البدوية وهو يغتسل في الغدير، بالماء تأنث المكان فأمكن أن يعول عليه. صاد ضبا أشعل نارا بصعوبة بعد أن رطب الماء الأغصان اليابسة وكذا الجذور، فاحت رائحة الحطب المبتل وشاعت فيه رائحة الشواء فأطلق العنان لحنجرته: أن طال غيابي ياللا .. ما يطول سنين، يا عين يا عين .. أنت هنا والغالي وين، يا عين يا عين .. الحوش العالي بو تركينه، يا عين يا عين ... فيه زويل الريم بعينه .. يا عين يا عين أن طال غيابي يا للا ما يطول سنين، صمت ثم صرخ بقوة كيانه: وووووه يا مولي الجنحان الطاير .. خبر لو لاف بما ساير. في ندى الصباح الباكر لمح غزالة شاردة وجلة أطلقت عنقها ومسحت الفضاء بأنفها، في قفزة كانت خارج المشهد، وثب من مكمنه راكضا خلف

سرابها، ريم بنت الجيران شاركت أخته في الأيام الأولى التردد على المدرسة ثم مراجعة الدروس في بيتهم، ريم تلكم حجبت في البيت كعادة أهل البلد العرب، لكن تطلع بين الحين والآخر عليه في البيت لزيارة أخته أو شاهدها مرة خلف باب بيتهم أو من الشباك، إن غابت عنه لم يبحث عنها إن طلعت عليه انبثق شوقه إليها، في ركضه هذا كانت ريم هذه سراب الغزالة الشاردة تبع ريم مرة طالعة من بيت الجيران، متلحفة بجرد أبيض بدأت حمامة، محاجر عينيها السوداوين يخرجان عن الجرد يكشفان الطريق ويتلصصان عليه، في شروده لم يفطن لأخيها الذي يعلو صوته: امشي بعيد يا ولد النصرانية، شرد اليوم نهاره وليله وضاعت نفسه. تعب من الركض متنبها أنه أضاع آثار الغزالة الشاردة وأضاع الطريق، حيث ينهك ويفقد إمكان تحديد مكانها يقرر فسخ عقد المطاردة، أن يتركها طريدة دون مطارد كحاله، حينها يجدها محاذاة ربوة تركن، بطنها تمتد وتنكمش وأنفاسها لاهثة وزبد لعابها يحوط خنفريها وفمها، يستعيد دوره بعد هنيهة من التردد، تعود ريم لزيارة أخته حين زيارتها ووالده بالبيت يغدق عليها محبته فهي أبنة أعز أصدقائه، العقد الفيروزي الذي يجيدها هدية أبيه، شده خيط والغزالة التي خفاها الأفق بعد أن شقته سهما واثقا، الغزالة شاردة راكضة في حيرة كما هو. لم ينتبه البتة لدوافع هذه المطاردة خيط يغزل بكتمان بينهما، حيث أفاق من وثبته فسقطته وجد بين أصابعه الزغب، لكن الطريق لم تعد الطريق.

تكدس البنيان، عمارة على عمارة التي تعد على الأصابع في المدينة، البيوت دكت، فطست الشوارع من هول ما حدث، جاب الجنود الطليان الخرائب بحثا عن حي، لم يتمكنوا من معرفة جثث الموتى، في تقريره لم يشر قائد الجيش الغازي للمدينة لأية تفاصيل تذكر غير أن جنوده طاردوا غزالة شاردة قيل أنها لجنرال الجيش التركي الميت.

أدرك بعد فوات الأوان أنه وقع في فخ الطريدة، أينما ولى نظره وقع على تلال الرمل الناعمة محوط بكثبان النار التي تكونها الشمس في كل الماحة، عاد القهقري ومن القهر الذي انتابه غرس جسده كوتد ورفع يديه، ما لم يفعل في بحر مدينته المتلاطم بأمواج النيران ساعتها، الآن فعل في بحرها الجنوبي الساكن حد التلاشي، هجس أو لمح أو حلم أنه في مقبرة الثعابين هذه نهض صل ونشله من غيه، شاهد الغزالة في قطيعها ترشده الطريق، الذئب حارسه يسحب الظل منزلة الخلود لجسده المكتوي بلوعة وحسرة التوهان، وروح الصحراء ريح القبلي يغطيه بمعطفه نسج الرمل، من هذا النسج تكون الجن والغيلان، سمع لغطا لم يتبين معناه لكن فهم أن ثمة عراكاً بين قبيل العفرته وقبائل الجنون حول من أحق به، قال الجن أنهم آل الوطى وحاجة الوطى ما تنعطى، قال العفاريت أنهم آل السما وأنهم أحق به لأنه يرفع أيديه للسماء مستغيثا، خرج خصيم آخر، دبيب الأرض قائلا: لنا اللحم، للجن العظم وللعفاريت الروح، بهذا اشتد نزاع وعراك وفي خضم معركة ووطيسها بدأ أنه يخرج آخر نفس.

ما لم يشاهد أن هذا العراك في المدينة دفع بالمدافعين إلى أن يتحصنوا بتلالها المحيطة. ما لم يشاهد أن الجيش التركي المنسحب المتخذ من التلال وكرا قد زاد عددا وعدة بعد أن التحمت به القبائل القريبة بالمدينة، وأن بعضا من جند هذه القبائل قد تطوع في حملة تجنيد لأبناء القبائل الأخر، كان سيموت دون معرفة أن أختيه اغتصبتا. فاطمة الكبرى هربت أثر سقوط قنبلة على بيت الله/ الكنيسة الذي تعيش فيه الراهبة الإنجليزية من آوتهم من الطلقة الأولى التي استهدفت المدينة. فاطمة في هربها وقعت في يد جندي إيطالي سيشلياني، سمع من قس يوناني أن الترك قتلوا منذ أيام امرأة سيشليانية؛ اغتصبها بلذة المنتقم. أخته الصغرى مريم اغتصبها أحد أبناء المدينة من العرب، بعد أن شاهدها تجلب الماء من بئر البيت إلى الكنيسة، ظنها نصرانية فاغتصبها انتقاما لاغتصاب جندي إيطالي لبنت مسلمة تدعى فاطمة. لم يشاهد ميلودرا ما الحرب هذه لكنه سمع عنها فيما بعد. لم يشاهد وهو يكاد يطلق النفس الأخير جسده وتدا في الأرض ويديه مرفوعتين لأعلى؛ جناحان، ضارعتان، مستسلمتان، تلوحان؛ كل فيما بعد أؤول ذلك لما يحب. مسرحه ربوة عالية مغروسة حولها ربوات أصغر، سياط الشمس الذهبية يعكسها بياض بدنه، في الصفار الذي يلون اللوحة ظهر كنقطة بيضاء يمكن تلامحها من خلال التباين غير الظاهر للعيان، لكن يمكن حسه، من بعيد في اللوحة تشكل أسود كظلين يزحفا في الفضاء، دنا الظلان من الوتد وانتشلا الجسد قبيل النفس

الأخير: لا إله إلا الله محمد رسول الله، بلسما الشفتين المتيبستين بعطر الماء فتنمل واقشعر في نفضة واحدة، شهقة واحدة، نفس واحد، غمرته الحياة وارتسمت على شفتيه بسمة الراحة.

# بنغازي في 24 ديسمبر 1911م

طير أبابيل تطلق رعدا يعقبها دخان أطلق البعض هذا على ما يخترق السماء ويجوب فيها، حار الكثير من العسكر في ماهية هذه الطيور القريبة منهم، تجرأ غيرهم مطلقا رصاصا في مواجهتها، لكن الجميع لم يدرك ما يرى ولا قبل ببعض التفاسير التي يروجها قادتهم. أشار قائد منهم أن الطائرات تستخدم لأول مرة في استطلاعات حربية، وأنه رآها في باريس في رحلات جوية استعراضية. ذهول الاكتشاف جعل جميع من في المعسكر يستهين بالأمر خاصة أن الطائرات لم تطلق غير ضراط الحمير كما تهكم أحد الجنود.

اتخذ الجيش الإيطالي من المدينة حصنا كما اتخذ الجند الترك ومن التحق بهم من آهل المدينة والقبائل من ربوة قرية بنينا ملاذا، لم تنفع الإيطاليين محاولتهم خرق الحصار كما لم تنفع الترك مناوشات الأهالي في استرداد المدينة. هكذا تحولت الحرب إلى ساحة تربص.

الإيطاليون يحفرون الخنادق التي خرجوا منها أكثر من مرة لكنهم ردوا على أعقابهم، الأتراك غص معسكرهم بفوضى أبناء القبائل المحيطة بالمدينة وغيرها، جميعهم يلح على القتال، أغلبهم لا

يملك حتى خرطوشة، بهذا بدا الجنرال عزيز بك المصري قائدا للأماني الطيبة، فيما كان الجنرال الإيطالي بريكولا قائدا للتوجس.

تبين هذا بعد أن انتشل من نهر النسيان الذي كاد أن يلتهمه. جلبت بدوية عجوز هي بمثابة طبيبة شعبية في المعسكر، وجدت جثمانا كالشمع الممسوس بالنار مسجا على عباءة سوداء، بعض المقاتلين الفضوليين يحوطونه.

- هضا لمن ...؟

- ممكن من البناغزة ... مصراتي!

- ممكن نصراني.

- النصراني ما يخش صحراء.

- والمسلم ما يريح فيها.!

لم تنبس العجوز لكنها دفعتهم بتبرمها إلى الخروج من الخيمة، دهنت الجسد المسجي الذي خشبته حروق الشمس بزيت الزيتون الدافئ، قامت بطبخ بعض الأعشاب وأخذت تسقي مريضها قطران من سائل ما طبخت. لم يفطن أحد للعجوز التي تركت المعسكر واتخذت من مريضها الذي لم تتركه البتة، حجة للغياب.

صارت العجوز ترقبه في جولانه وترعاه في توهانه، جمع روث الإبل وأوقد النار كثيرا، مرة فاق مبكرا وخرج عاريا يجول، أعاده

رجال برمون من تصرفاته التي أقلقت بعضهم، مرة حلب ناقة ثم دلق حليبها في فمه فأصيب بإسهال أعاده للفراش، هكذا جلبت العجوز فقيها قرأ بعض الأوردة على طست فيه ماء جعلته يشربه غصبا، ثم جلبت حجابا ربطته بخيط في عنقه. في غيابه عثر على طفولته سابحا في الغدران، يحلب عنزة مرضعته ويشرب لبنها، مطاردا العصافير بمقلاع وحجارة في جبانة سيدي خريبيش، تائها وراء بوسعدية المهرج الأسود الذي يضحك الأطفال ويجمع من الكبار الصدقات، مادحا في المولد النبوي في الزاوية المدنية. غرق فيما عثر عليه والعجوز تقوته من طبخها، خلاصة لحم ديك سمين متبل بأعشاب أفواه الغابة. بين هاتين اليدين الحانيتين وجد أن الغيبة مراده فلم يرد أن يفيق لو لم يمس سمعه طشيش نار وحديد يصهد، عدة الكي فطن لذلك فتجسد واقفا باتجاه مخرج الخيمة، جال المعسكر فطن الكثيرون لوجوده دون أن ينتبه لأحد.

كاد الغريق في نهر النسيان أن يذهب في النسيان لكن العجوز افتقدته، صرحت للشيخ السنوسي من شيوخ المعسكر أن المفقود ابنها بالرضاعة، أمر بالبحث عنه في الساعة.

لم يصدق أحد عينيه جمع من المقاتلين المحليين، المجاهدين عادوا من غارة على قوات العدو المتحصنة في المدينة بأسير إيطالي جريح، جميعهم متوكد من أن الأسير هو نفس الشخص المفقود الذي تدعى العجوز بنوته، بكتهم ملبسه؛ بزة ضابط طلياني، رطينه الطلياني.

حالت العجوز بينهم وبينه واستعانت بسيدي عمر أن أسيرهم جريح فحق مداواته، خلاه لها اختلت به محاولة أن تستنكه سره لكن حال دون ذلك رطينه، داوته ببعض مراهم أعشابها، حاط حرس من البدو بخيمة العجوز منذ سلمت الأسير ودام لغط في المعسكر أقلق قادته، طلبوا صباح اليوم التالي الأسير، العجوز ومساعداتها من بنات البدو ذكرن أن حاله زاد سوءا بهذا خف اللغط لكن الحيرة تفاقمت. في خلدها أن للجرح الكي، لكن آخر الدواء الكي، شكمت نفسها عن العجلة ولم تكن يوما عجولة لكن رجال آمن المعسكر كانوا بحاجة لأبعاد الالتباس وتقديم تقريرهم لرئيسهم.

ما اسمك؟.

أحمد.

بالكامل؟.

أحمد حسين حراكس.

كم عمرك؟.

18 سنة.

أين ولدت؟.

في مدينة بنغازي.

ما جنسك؟.

أوراقي عثمانية.

ما دينك؟.

مسلم.

ما معنى اللباس الإيطالي الذي تلبسه؟.

لا أعرف.

كيف تم أسرك؟.

لا أعرف.

تقول العجوز.

أمي رحمة.

**تقول إنها مرضعتك وأنها تعرفك؟**

هي تعرفني قبل أن أعرف نفسي.

نقل تقرير مبتسر حسبكا علق عليه رجل الاستخبارات التركي الذي أضاف: من جمع المعلومات تبين أن المدعو أحمد حراكس قريتلي من الجالية الكريتية المسلمة، التي نقلت من قبل السلطة التركية حوالي عام 1883م إلى برقة من جزيرة كريت عقب انسحابنا من هناك، وأن والده حسين قد تطوع مؤخرا في قواتنا التي اشتبكت مع الجيش الإيطالي حيث قتل، وأن أمه تدعي ماريا ابنة إيطالي من

الجالية المقيمة في بنغازي عرف بكنية السشيلياني نسبة لجزيرة صقلية حيث موطنه الأصلي واسمه آلبيرتوا. وقد قام بأسر المدعو أحمد حراكس مجموعة مقاتلة كلفت بمهمة مناوشة مع العدو، حيث وجد منفردا وجريحا في منطقة تبعد كثيرا عن مواقع جيش العدو.

جمعت هذه المعلومات من بعض أهالي المدينة كذلك بعض جنودنا تذكر صلة به حيث درس في المدرسة التركية بالمدينة، علما بأنه يجيد، إلى جانب التركية والعربية، اليونانية والإيطالية، وشيئا من الإنجليزية.

على أثر ذلك استدعاه آمر المعسكر عزيزا المصري الذي أحاطه بعنايته طلب منه العمل مع إدارة المعسكر وأن ينضم إلى المتدربين على السلاح، غير أنه لاحظ مراقبة من قبل بعض الجند وكذلك تبرما من قبل الكثير من رجال القبائل المقاتلين وغيرهم، لاحظ في عيونهم الريبة وتناهي إلى سمعه همسهم كلما مر بهم. باغته عزيز مرة بسؤال عما رأي في معسكر المدينة؛ لما أجاب بأنه لا يذكر لم يلح عليه، فقط طلب منه أن يحاول وفي مرة أخرى يقدم ما يتذكر مكتوبا، ألح على من أصر على دعوتها بأمي رحمة أن تستذكر معه حاله وما ردده في غيبوبته. طلب لخيمة عزيزا المصري كي يترجم بعض المستندات الإيطالية منذ ذاك صار كثير التردد على خيمة القيادة، سأوره قلق من حاله وذاكرته الرائبة فدس رأسه في تبن اليومي من تدريب ومهام يكلف بها حتى لفت نظر الجميع بنشاط وفاعلية متميزتين، طلب

أكثر من مرة المشاركة في مناوشات المقاتلين للجيش الإيطالي وإقلال راحتهم، واستدراج جنوده إلى خارج الخطوط، أو القيام بعمليات تسلل ومباغتته للمدينة لجمع معلومات، ومعرفة وضع الإيطاليين المحاصرين داخل المدينة. لاحظ اهتمام دائم بتدريبه وعمله من قبل قائد المعسكر الذي فجاءه مرة يكتب فطلب معرفة ما يخطه، وقف محييا القائد تحية عسكرية ثم تقدم وسلمه أوراقه، دس عزيز المصري رأسه في الأوراق ثم أمره بالانصراف، لم ترجع كما لم يطلبها هو أيضا حتى استدعاه بعد ما يقرب الأسبوع حيث أعاد إليه أوراقه، ربت على رأسه مقترحا أن يستمر في الكتابة على نفس المنوال. ساس الخيل زيادة على التدريب والعمل الإداري الروتيني حتى في يوم اقتلع من فراشه أخر ليل 24 ديسمبر ليجد نفسه في معمعة المعركة، في هجوم شامل على القوات الإيطالية تركزت بصفة خاصة في منطقة الهواري على مبعدة كيلو مترات من المدينة. في الأيام التي خلت اختلى مع عزيز حيث ترجم وكتب بعض التقارير، ساعات طويلة قضياها منفردين، وتحدثا في مواضيع تخص المدينة وأهلها وأهله، كذلك طلب منه القائد أن يعلمه اللغة الإيطالية مقابل أن يعلمه هو الألمانية، وهاله كثيرا ما يعرف عنه من معلومات. في مرة فاتحه بسؤال أدهشه حول أين يجد نفسه؟ لما غرق في المسألة ذكر عزيز أنه بهذا السؤال كما لو كان يسأل نفسه هو المصري ذو الأصل الشركسي الذي يعمل كضابط بالجيش التركي- تعلم وتدرب من قبل ألمان- من الجماعة العربية في عاصمة الخلافة الإسلامية؛ الآستانة

وهو يقود هذا الجيش المكون من قلة من جند الترك وأغلبية من قبائل بدوية عربية في برقة بشمال أفريقية.

في الأيام التالية لم يترك خيمة القائد الذي كلفه بخدمات خاصة، ثم جلب ضابط من الاستخبارات كي يدربه وأحد أتباع الشيخ السنوسي الذي في مهمة قاما بها معا خلف خطوط الإيطاليين صارحه: لقد قمت طوال الوقت بمراقبتك وتابعتك حتى داخل المدينة حيث عدت لبيتكم المهدم جزء منه، دون أن تعقل ذلك نمت في سريرك، خرجت بعدها تهيم في الشوارع المقفرة الغريب حين انتبه جندي إيطالي لوجودك أخذت تتكلم وكأنك واحد منهم، لكن لما غار المجاهدون على المدينة تلك اللحظة ضعت مني، حتى رأيتك ببدلة الطليان مأسورا في معسكرنا؛ لم يفسر هذا الدافع الذي جعله يعود لبيتهم في تلك الحالة ولا كيف تحصل على بدلة ملازم، بل زاد الغموض توجسه.

شارك في العديد من المناوشات الصغيرة وقدم تقارير خاصة إلى القائد كان يأمره بإعدادها ثم يراجعها معه مدققا في تفاصيلها، لكن في غير ذلك تعصره وحدة، تنغرز في ظهره نظرات ريبة وتشكك في سلوكه، عادة ما ينعت بولد النصرانية إذا ما نجح في أية مهمة أيضا إذا ما فشل، بعض القادة والشيخ السنوسي يشيدون بنجاحاته وأمي رحمة تتكفل بمسح دموع الفؤاد.

انصهر في، يومياته مدونا ومختزلا، أحيانا في قراءة وترجمة

الصحف الإيطالية التي تتحصل عليها القيادة بطرقها الخاصة، كذلك قراءة مصحف القرآن الكتاب الوحيد المتوفر في المعسكر الذي لا يتوفر الوقت فيه. تدريبات صباحية يتلقاها من ضباط ترك ويقدمها إلى الشباب العرب من مدينته أو ضواحيها، وإذ لم يكن في القيادة؛ يساعد أمه رحمة في تطبيب الجرحى ويعلمها بعض من معارفه الطبية الحديثة حيث تقوم بدورها تعليم بنات البدو، هكذا غاص في يم الحرب ناسيا تفاصيل كثيرة مما ألم به، كما لم يعد يستفز من نظرات بعض المستريبين. فهل المصادفات هي التي أجبرته على أن يرتدي لباسا لا يكن له حبا خاصا؟ هو المتوحد إلى أبعد حد أخذ يسود دفاتره بما يرى، حاسا أنه يبتر الدمل بمشرط الكتابة التي كثيرا ما رددت عليه: قل لي من تتجنب، أقل لك من أنت، لكن أبدا لم يكن شاغله من هو؟ حيث شاغله في الصحراء كما في هذا المعسكر الحياة غرفته التي يستظل بها من كل شمس، حينها قطعت أمه رحمة عليه الطريق بقصعة صغيرة تحتوي على مثرودة من خبز تنور وزبدة ضان وعسل غابة، تقوته بحرص شديد ودائب؛ كي تقطع دائر المرض الذي هو خجتها لطعام كهذا يندر أصلا في غير زمن الحرب. في حاله هذا تفاجئه طفولته لاعبا بقدح اللبن الذي يد حنونة ترغمه على شربه؛ تربي بين يدي مرضعته من يدعوها أمه فيما يسمى أمه بسمها، فإذا كان في الرحم تقوت من جسد ماريا فإنه خارج الرحم تقوت من جسد البدوية رحمه، من يستطيب طعامها عن غيره.

# مكتبة قورينا ... قهوة تيكا

كان شارع عمر المختار المشى الوحيد في الستينات وهو ممشاى اليومي لكن الكثير من الناس هجرته بعيد أن صار لكل حي سوق، حيث يجد المرء ما يريد قرب بيته، هذه الأيام يتم افتتاح محل في كل زاوية، وانتشرت هذه الدكن كالفطر على وجه المدينة. لكن الشارع لازال يزخر بمكانة يدركها كل صاحب عين حصيفة، كثيرا ما تلتقي كاتب أو فنان يجول كما يجول السواح فيه متطلعين ومتبصرين معالمه وتاريخيته. كما فيه جال يوسف القويري حين كان يكتب في جريدة الحقيقة جريدة المدينة الشهيرة في تلك الأيام ما يقف القارئ في طابور للحصول على نسخته منها، كنا نلتقي يوسف القويري طائشا في الشارع مشتتا بقامة منحنية وعيون شاخصة جاحظة ومستريبة، شعره منكوش ورجلاه متباعدتان يحث الخطى مسرعا متوحدا في وجع من نقرس يمخره، ننشد إلى هيكل عظمي شارد في اللاشيء ويجوس كل شيء قابضا على اللحظة العابرة باقتدار معلم، جاسا نبض الشارع: المشهد مضحك ولكن ما وراء ذلك يثير الامتعاض. شارع عمر المختار والوقت ما بعد الظهيرة، على الرصيف الطويل سائح يمشي بخطوات وئيدة، في يده آلة تصوير

صغيرة وفي تعابير وجهه يرتسم اهتمام كثير، إلى الأمام منه تقبل امرأة ملفوفة في قماش أبيض يشبه ملاءة السرير فلا يبدو منها شيء سوى استدارات الأنثى وعينها غير المغطاة التي تجبرها على التلفت كالدجاجة برأسها كله لتلمح ما حولها. الكاميرا تتحرك بسرعة،تجفل المرأة كالفرس، وكأنما صوبت نحوها فوهة مسدس!، السائح يريد تصوير زاوية معينة للشارع، وهو خبيث وعفريت لأنه يريد أيضا أن يضع في هذه الزاوية امرأة محجبة، وبالطبع المسألة في نظره مثيرة جدا، ولكن المرأة لا تعرف ذلك. تم المشهد في لحظة خاطفة ثم ذاب في زحام الشارع دون أن يكترث به أحد، وامتلأت كاميرا السائح بومضة صادقة من الشرق!، آنئذ أحسست بالحزن .. فنحن لا نستطيع أن نضع لافتات في الشوارع نكتب عليها: ممنوع تصوير المحجبات.

وعن حجب المشهد أنحرف نحو مكتبة قورينا الغاصة بالكتب وما من مطرح لمزيد، وإن كان ديدن صاحبها المزيد من الكتب ومن جديدها ... أتخطى الممر وأقف مشدوها كأن عبد الرحمن بدوي يتكئ في مكانه المعتاد بالمكتبة، عبد الرحمن بدوي من علمت أنه طلق بنغازي منذ طاله سجنها السياسي في السبعينات الطائشة من القرن العشريني، صديق عبد المولى لنقي عاشق الكتب وصاحب قورينا الذي يخرج من مكتبه موقفًا انشداهي أتفحصه ومن خلاله أتصفح المكان: في نظرته سؤال دائم وتختلط حمرة الوجه ببياض شعر الرأس ينهض قبالتك رافعا حاجبيه في استفسار مقدم عن

حاجتك، هو ولد لنقي عند أهل المدينة، هو شغوف كتب عند نفسه وعند أهل الكتاب، منذ أول الخمسينات شب عن الطوق متخذاً موقفًا قريبًا من جمعية عمر المختار الطوق السياسي للمعارض، ثم صار وزيرا للعمل والشؤون الاجتماعية، لكن الكتاب هو داره وآله، فكانت دار ليبيا للنشر ما نشرت كثيرا من كتب محتواها ليبيا كذا دار قورينا، هو في الربيع الرابع من العمر إذا كان الربيع عشرين عاما لكنه ينهض بمهمة من هو في ربيعه الأول: جالبا، حاملا، مرتبا، مجادلا، مقترحا، بائعا الكتب ولعل لهذا شدت بينه وعبد الرحمن بدوي صداقة ونشر له بعضًا من كتبه. ومما يرويه تلاميذ بدوي أنه اعتاد أن لا يشتري الكتب، كان يكمل الكتاب الذي بين يديه في اتكاءة على رف من أرفف قورينا: تذكر الكتب أن لليونانيين الليبيين مدنًا خمسة في شرق ليبيا منها يوسبريدس أو هوسيبريدس / بنغازي وقورينا / شحات: تدور حول نشأة مدينة قورينا أساطير عدة أثبتها هيردوتس في المقالة الرابعة من تاريخه، وأشار إليها الشاعر اليوناني العظيم فندارس في الفوثاويات الرابعة والخامسة والتاسعة، وعملا بنداء وحي أبولو في دلف، الذي ناداه باسم ملك قورينا ثلاث مرات، أبحر بطوس بسفنتين ذواتي خمسين مجذافا متجها صوب ليبيا، ونزل في جزيرة صغيرة تدعى فلاتيا فأقام فيها عامين. حاول بعدهما العودة إلى ثيرا، لكن أهل ثيرا منعوه من النزول، فعاد إلى ليبيا ونزل في موضع قبالة فلاتيا يسمى آزيريس أو ازيليس فأقام فيه هو وصحبه صوب الغرب إلى ينبوع كان يسمي في أيام فندارس وهيردوتس باسم

ينبوع أبولو، وكان أهل ليبيا يسمونه كورا، ومن هنا قيل أن أسسم كورينا جاء منه، وكان ذلك في سنة 631 قبل الميلاد. كنت مشدودا لمحاضرة الفلسفة القورينائية أو مذهب اللذة تتردد على لسان تلاميذ بدوي عن ظهر قلب: وفي مدينة قورينا الزاهرة الوافرة الثراء هذه، الحافلة بروائع الفن اليوناني في عصره الكلاسيكي، ولد أرسطيفوس، مؤسس المدرسة القورينائية. خلت نفسي واقفا وقفة الاستجواب: أيها الكبير فينا كيف جئت هذه المدينة الصغيرة ومكث فيها السنين؟..

عبد الرحمن بدوي: من باريس سافرت إلى بنغازي، يوم الأحد العاشر من سبتمبر سنة 1967م وإبان الرحلة نزلنا في طرابلس الغرب لمدة ساعتين. ووصلت إلى بنغازي في حوالي الساعة التاسعة مساء. ونزلت في فندق ضيق كئيب بشارع الاستقلال، يبعد عشرين مترا عن مقر كلية الآداب. ومع ذلك فإنني حين سألت موظفي الفندق عن مكان إدارة الجامعة الليبية أشاروا علي بأن أركب تاكسي لايصالي إلى هناك !! لكني شككت، وأنا أعرف مقدما أن بنغازي بلدة صغيرة ، ولن أحتاج إلى ركوب تاكسي، فقررت السير في شارع الاستقلال وسؤال المارة، وأخيرا اخبرني أحدهم أنها على بعد أمتار فقلت في نفسي: أهذا ما ينتظرني ها هنا !! إن البداية لا تبشر بأي خيرا.

ودخلت كلية الآداب والتربية كما كانت تسمى آنذاك، وسألت عن العميد وبعض الأساتذة المصريين، فعلمت أن الذي يتولى العمادة بالنيابة هو د/إبراهيم نصحي، العميد السابق والزميل في كلية

الآداب بجامعة عين شمس، فالتقيت به، وأرسل يدعو د/ علي عيسى رئيس قسم الفلسفة والاجتماع آنذاك فحضر. ومع د/ عيسى ذهبت للقاء مدير الجامعة، الأستاذ عبدالمولى دغمان، الذي كان قبل ذلك مدرسا لعلم الاجتماع في كلية الآداب. فرحب بي أجمل ترحيب، وكان على شبابه واسع الاطلاع على آخر الأبحاث في علم الاجتماع، إذ كان قبل ذلك بفترة قصيرة طالبا يحضر للدراسات العليا في إحدى الجامعات بالولايات المتحدة؛ وحصل من هناك على الماجستير في علم الاجتماع، وعاد قبل أن ينجز رسالة الدكتوراه ليتولى منصب مدير الجامعة الليبية. وكان أول مدير ليبي كفء، مختص يتولى هذا المنصب، بعد أن تولاه قبل ذلك أشخاص لا شأن لهم بالعلم ولا بالجامعة. فمسح هذا اللقاء الجميل الانطباع السيئ الذي بدأ يساورني. وطوال العامين اللذين كان فيهما الأستاذ عبدالمولى دغمان مديرا للجامعة الليبية، كنت أشعر بالاطمئنان وأحظى بالتقدير البالغ، لهذا كان هذان العامان الأولان من الأعوام الستة التي أقمتها في ليبيا الفترة المضيئة الخصبة في مقامي هناك. ومن تلاميذ بدوي من ملأ المكتبة بمؤلفاته كنجيب الحصادي: ليس في وسعي أن ألمح إلى سيرتي الذاتية دون أن أذكر أنني تلميذ عبدالرحمن بدوي، ما كان لأحد أن يتتلمذ على بدوي دون أن يتأثر به بطريقة أو أخرى، فقد كان نموذجا لشخصية المستبد المستنير، لم يكن يعبأ بواحد منا، وإن أحسسنا بتقدير حيي للمتفوقين يندر بندرتهم، كانت هناك هوة سحيقة إلى حد مروع تفصلنا عنه، وكنا نكتفي في أغلب الأحيان

بالتطلع عن بعد لسطوته والتندر بزهوه. وهذا التلميذ المجد منشغل بفلسفة العلم عن العلم وبمعنى المعنى عن المبنى. كاد أن يغرق في طرقة المكتبة في عناوين وأسماء يغص بها قفص الزجاج الذي يفصل بينه وبين تلك الشواهد، وقد بدأ له أن كل الرفوف تقاسيم جبانة، لقد شاهد هذه الكتب في مطارحها مدفونة بعد أن غدر بها عشاقها، عطن يلفح خياشيم المكان وانكسار ظاهر للضوء يلف الأغلفة فالعتمة تغلف الكتب وللعث مسارب. تنفس الصعداء وهو يتلقى النجدة من خياشيم السمك التي بعث له البحر بريحها، كدت أن أتخبل في خيوط المكتبة، سلبت النفس من شباكها فتلقفتني شوارع بنغازي أقرأ يافطات شارع عمر المختار وملصاقاته التي بصقها التجار على حيوطه، تحوطني عزلة عن مشارب الشارع ومشاغل الناس، اندلفت من مكتبة قورينا متخطيا الطريق في تثاقل ضايق السائقين السوقة، تلقتني أقواس ظللتني وسلتني من خيوط الشمس الحارقة، فما الذي أوقعني في هذا الخبل غير القراءة؟.

تعلقت بالمباني وانزحت عن الكتب، عن الحروف شدني خيط معمار المدينة وأخلاطها من كل شيء ومن اللا شيء هذه الأخلاط تفوح بالنفط الزيت الأسود الذي شكل عجين المدينة ودوخ أهلها، غير أن بنغازي وعلى غير عادتها في شارع عمر المختار مدينة محافظة لهذا بقى الشارع على ما هو عليه بمبانيه الإيطالية وأن شاب المشهد بعيض تغيرات.

قبل أن تلج مكتبة قورينا وعلى شمالها مقهى تيكا الاسم الحركي لجيلي جيل السبعينات إن شئت، وللحق كنا موزعين بين مقهى بازامه ومقهى تيكا الذي لا شيء يلفت الانتباه إليه غير كونه ينحشر بالقوى وبالفعل كشق خفي وأنثوي ليس من عزمه في شيء أن يقول هأنذا وليؤكد عزمه هذا فليس ثمة كراسي خارج أمتاره القليلة رغم اتساع السقف القوسي أمامه، لم يقطع الرصيف حيث قتلت الأرصفة في مجمل المدينة. حافظ الروائي صالح السنوسي على مقعده وغادر السبعينيون المكان لما غدر بهم الزمان: هنا في مقهى تيكا تجمعنا عمر الككلي وعلى الرحيبي من طرابلس يدرسان الآداب وقانون بنغازي وعبدالسلام شهاب يكتب قصة الشباب والرسام محمد نجيب يطل وجلا حينا وكثيرا ما يغيب، عند سي تيكا نشرب ما نحب وما لا نحب ونتداول الساخن من أحاديث الحقبة المضطرمة وتجيش خواطر. هناك في مقهى بازامه حيث لم يعد للكاراكوز مطرحا، لمة أخرى تجمع القاص محمد المسلاتي والكاتب سالم مفتاح وسالم الكبتي ورضا بن موسى والشاعر السنوسي حبيب وأحيانا منصور بوشناف يخططون لحلقة جديدة من برنامجهم الإذاعي الناجح الملتقى؛ ونشكل للملتقى لوحة ليسار يافع وغفل عن ما يفعل الزمان: نتبادل المنوعات من كتب ومشروبات وأفكار ورغبات عارمة في تغيير الكون. كانت قهوتنا مرة نحليها بأحلام طرية، وكان المكان درب التبانة تغطيه طاقية المباحث وتدوي فيه أشعار محمد الشلطامي مناشيرنا السرية.

صمد مقهى تيكا، وثبت عاشق الكتب مكتبته قورينا كطود. لكن مصوراتي عوض اعبيدة تحول لمقر شركة الطيران السويسرية التي سكنت المبنى دون أن تضيف شيئاً، ومن هذه الزاوية تطل العمارة على تمدد شارع فيا تورينو ليلحس البحر؛ حيث يسده عن ذلك كورنيش بنغازي ما شغله أ. يتغضن ويهرم وأن يموت في وحدة البعير الأجرب. في الزاوية شمالي، مطل ميدان الحوت بعد أن اجتاز تقاطع عمر المختار وفيا تورينو مصرف التنمية الذي يذكرني عندما أصله بالمصرف الزراعي على يميني.

اجتزت مفرق الشارعين متناغما مع عمر المختار في زحمة الباعة المتجولين، قبل مقهى أكرم ما حول لمطعم بعد تحول متساكني بنغازي لبطن هلوعة. توقفت استطلع المنظر في مبنى التأمين وساحته الممسوخة لمكب قمامة، هي جادة تنفتح عليها أبواب ورواشن تضم المكان بحنو وشفافية. ساحة لستريح أو يمكن أن تكون جنان لأهل الذوق، تفرست بعيني المعري: أنا أعمى / فكيف أهدي / إلى المذ/هج / والناس / كلهم عميان ... دنوت من ما تبقى من مقهى أكرم، خلت النفس في عجيج الأيام الخوالي؛ يوم كان يعج بجيل الستينات وقد جعلوه لمة لصحب الجديد في مواجهة مع مقهى العرودي مجمع التقليد/ الكلاسيكية الحديثة ونار علمهم شاعر الوطن أحمد رفيق المهدوي، وفي شمالي المصرف العقاري أو بنك التوفير عهد إيطاليا! ترك المبنى اليوم في عطالة. تنبهت لبابه الضخم

الفخم ولصحنه المميز بالرخام الثقيل في شفافية ظاهرة، غرقت في زحمة زاحفة من ميدان الحوت حيث لا يمكن التيقن من شيء حاولت استنهاض روحي من عزلتها، جو من الارتباك خيم على المكان وعلامة استفهام حية وطويلة الأهداب تجسدت على كرسي من كراسي المقهى في رهاب غير نادر ومفرط التجسد في ضائقته، على الكرسي يخفي وجهه بيديه متيقنا من لا يقينه متوجسا من الحياة يندس في قميصه الأبيض المفتوح الصدر في الكرسي الأبيض، كيمائي وحيوي وأستاذ العلوم المنشغل بالأدب الناقد، الناقض لنفسه ولليقين كان حسين مخلوف في عراك مع محيطه في عقد ستيني واثق عازم قابض على كل شيء واللا شيء، ينفلت حسين مخلوف مني ومن لا أحد؛ يبعث ما كتب في صحف هاتيك الأيام معطيا بظهره ومستريبا يوارب باب نفسه عني وعن لا أحد. عند زاوية المقهى مكتبة تعرض كتب الصادق النيهوم ما جمعت ما كتب في تلك الأيام، ما خلته ازدحام تبين عن عمار خال وخواء ينطح الفراغ، وكأني بالمكان يتسأل من أنا؟ لكن أحدا لا يجيب.

بين أقواس عمر المختار كنت هائما عند محل فيلبس طلعت مكتبة فمحل ملابس أنيقة، كثيرا ما وقفت أعد ما في الجيب وجيوب الأصدقاء؛ حتى نشتري ما جد لفيروز الرحابنة من مسرحيات كانت المحطة منها، مثل: احنا والقمر جيران أيقونة جيل يتغذى الكلام بعينيه ويتعشى الرحابنة بالفم ويمز بفيروز الخمر المحلى الردئ. عمارة

التأمين تتمدد في الشارع بين فياتورينو وميدان الحوت تطل شرفاتها من أركان أربع، كتابة إيطالية مازالت مصبوغة على جبهتها ويوشم أكتافها كل إعلان عديم الذوق، عمدانها حملاتها قوية والبدروم غطته الأيام بالأوساخ، بعد جادتها الأولى ومقهى أكرم وا لمكتبة ومحلات الملابس الأنيقة هدير يعلو وزرقة متماوجة بالبياض، من فتحة لشارع صغير كمنظار تطل على المشهد مطل البحر ما يجانبني وما تركت أيضا خلفي، في الزاوية فرع مصرف الوحدة شارة البؤس واللطخة السوداء، هذه اللوحة في شمالي وقد قصدت ميدان الحوت. على الشارع المختار بعيد الوحدة ومسبار البحر الشارع الصغير كثقب أبره في اليسار، حيث كنت أرقب من اليمين قرب الجادة الثانية، تندس مكتبة عامة ما لم أدخل مرة دون سبب يذكر؛ مكتبة الشاعر علي الفزاني الذي ذهب في رحلة الضياع ولم يعد، كطيور النورس التي تبرقش الزرقة السماوية والزرقة البحرية بالبياض تكاكي مفصحة عن سنة العودة الميمونة، من الشاعر اتخذت المكتب اسمًا وقد أبقى منه للمكتبة أسفار حزن مضيئة ومضنية.

في المقابل الجادة أو العين الثانية من عيني عمارة التأمين الحية التي تتربص في مكمنها من شارع عمر المختار، صدى يلعلع من الجادة وقفة كلام عن حقوق الإنسان وحرية التعبير، قلب مبصر وعينان بصيرتان وجثة ضخمة ويدان تخلبا الهواء والهوى: فإن توافق، في معنى، بنو زمن / فإن جل المعاني غير متفق / قد يبعد الشيء من

شيء يشابهه،/ إن السماء نظير الماء في الزرق/ عجبت لهذي الشمس، يمضي نهارنا/ إذا غربت، حتى إذا طلعت كرا/ خذ الآن فيما نحن فيه، وخليا/ غدا، فهو لم يقدم، وأمس، فقد مرا.

أو كذا ما جاء عن أعمى المعري رفيق النص المفتوح على أفق دون حد أو كما خلت صاحبي يقول، وقد وقفت عند مدخل الجادة أتفرس اللوحة الملصقة بالحائط: مكتب المحامي مصطفى الشيباني وكأن عيني مفتوحتان على عمى هذا المحامي المبصر أيامنا كما لم نبصر، من نعته الأصدقاء بالقفة وهو حقا قفة عيون ونفس تضطرم، وإن حبست نفسها بين قاعة المحكمة التي تقع على خطوات شمال مكتبه الذي هو محبسه الثاني فإن محبسه الثالث: خيمة الحرية؛ ديمومة منشده.

لم أرك من زمان؟ قال: هل التقيت هاني الكيخيا هنا أو هناك في القاهرة؟ لم أره من زمان؟ والعمى نوري الماقني هل تلتقيه؟ من زمان لم أره؟ أمن القفص للمحكمة ومن المحكمة للقفص/ البيت؟ أهكذا إذا ما أسن الشيخ أقصاه أهله، وجار عليه النجل والعبد والعرس؟.

حرت جوابا فالملاك أضاع المفتاح، وغصصت بالأسئلة في لجة سماء حبرية اللون تبين أني في فم الحوت. شدني خيط وصل لا ينقطع اجتزت الجادة إلى مكتبه عند الباب تناهي صوت أعرفه في جهوريته وتوكيده، ونبرته الحادة وتوقيعاته القطعية، صوت قوي

متعطش للسلطة وجليل وشبه روماني، يولد انطباع إيجابي عن شخص قادر إلى حد ما ودون أثر للهياج على لفت الانتباه والتعبير، وأن في الصوت تمازج بين وقعة شديدة تنبه ووقعة رهيفة تشد، تداخل بين النحاسيات والوتريات: خطر بباله أن يتوقف في مدينة بنغازي لبعض الوقت، وتوقع أن يجد عملا يدر عليه دخلا يفيض عن ثمن الهدايا التي سيقدمها لعائلته ... هذه المدينة أكبر حجما وأكثر سكانا، ومن ثم فإن العلاقات الاجتماعية بها يغلب عليها طابع المصالح المتبادلة كما هو شأن المدن الكبيرة التي يذوب الفرد في زحامها، إلا أن التركيبة السكانية لا تختلف كثيرا عن نظيرتها في درنة. فهي مزيج من السكان القدماء الوافدين من المناطق القبلية، والنازحين من مصراته وزليطن وترهونة والزاوية والخمس ....، ويقال إن الجفاف الذي ضرب المنطقة الغربية في عامي 1937م و 1947م هو الذي أدى إلى نزوح أعداد كبيرة من سكان تلك البلدات إلى مدينة بنغازي والاستقرار بها. وعمل صاحبنا في بنغازي على نول يدوي صاحبه أحد تجار سوق الظلام، ولم يكن المكان المنصوب فيه النول ملائما لإقامته، فهو دكان يقع بحي سكني وليس به مطبخ ولا حمام خلافا للبيت الذي عمل به في مدينة درنة، مما اضطره إلى البحث عن محل لإقامته وإعداده طعامه. استدل على مبنى قديم قرب سوق الجريد يشبه الفنادق الشعبية، وهو مشيد من طابق واحد ويضم عدد من الغرف الصغيرة، التي يقيم بها عمال وحرفيون وعاطلون عن العمل ... يستخدمون دورة مياه مشتركة، ويطهون طعامهم داخل

الغرف التي ينامون بها، ويلتقون كل مساء في الباحة الفسيحة للتعارف وتجاذب أطراف الحديث. وقد وجد صاحبنا لدى هؤلاء الجيران طيبة في المعاملة وصدقا في القول وتعاونا لا حد له، كما لاحظ عليهم الكرم وضيق ذات اليد. بقي في مدينة بنغازي مدة قصيرة لم يتمكن خلالها من التعرف على جميع معالمها ..، شهد ضريح شيخ الشهداء عمر المختار الذي سينقل فيما بعد إلى موطنه بلدة سلوق، وعرف بعض الأماكن التي ليس لها رواد متميزون مثل منطقة الفندق وسوق الظلام وسوق الجريد وشاطئ جليانة، وتردد مع بعض جيرانه على حي الصابري الذي يشبه بورتا عكارة في مدينة طرابلس، ليس لأنه يقع مثله بعيدا عن وسط المدينة وحسب، بل لأن سكانه من الفقراء المقيمين في أكواخ الصفيح الذين يكاد البؤس أن يكون مكتوبا على جباههم، ومع ذلك فإنهم من أكثر المواطنين استعدادا للكفاح من أجل وحدة ليبيا واستقلالها، ومن أسبقهم للتضحية والفداء في سبيل تحقيق هذين الهدفين. تعلم صاحبنا من هؤلاء البسطاء معنى الصمود لمواجهة أعباء الحياة. تخطيت الباب متسللا في لهفة مؤثرة للتيقن من الشخصية المتحدثة وللبرهنة على صحت حدسي، رأيت مصطفى الشياني ضائعا في حلزونات دخانه شاردا في الكلام، وزميله المحامي عبدالرحمن الجنزوري يجلجل ممسكا بغليونه: هذا الجزء الذي قرأت لك ما جاء في مذاكرتي عن النزول ببنغازي أثر عودتي من المشاركة في حرب فلسطين عام 48، تقطعت أطراف الحديث حين تنبها لي، وكنت سرحت وغصت في لج

الحديث والمثل في رأسي ينسج خيوطه: لا يباع القماش الجيد وهو منسي في صندوق. حينها كان قد سيطرت: موسيقى سمفونية البطولة لبتهوفهن المنبعثة من المسجل، بعد أن خيم الصمت من أثر دهشة اللقاء بالجنزوري القادم من طرابلس، والشيباني القابع في محبسه، وكنت من لا يتوقع أن يرى في هذا المكتب بجادة عمارة التأمين.

## مائدة للغفلة .. ساحة لقتل الوقت !

ميدان الحوت عنق المدينة قلادة شارع العقيب ما يكاد أن يكون شريان وصل بين ميدان الشجرة وميدان الحوت، شارع العقيب من تبقي في بنغازي بعد أن ذبحت بنت لاغا حاكمة المدينة قبيلتهم، كثيرا ما شوهدت في الليالي السود تسلخ جلد الرجل من قضيبه وتدك المرأة، سوطها في يدها يشعل نيران البحر، بنت لاغا حكمت بني غازي في مطلع قرن القديس يوحنا وفي رواية من روايات الشفاه اليابسة خوفا، عقب الهجة الأخيرة للدلنسية. يمكن لنا أن نعتبر أن شارع العقيب يجتاز عمر المختار بعد ميدان الحوت، حيث جامع ابن كاطو الذي يبدو كصندوق الموتى، ولعل ذلك خطر لمصممه فجعله تابوتا أسود يخترق راسيا السماء. الشارع في سبق يقفز عن الميدان ليصل بحر الكورنيش ليغطس في اليم.

صمم يلم بك كأن الميدان طبل بنغازي: الحوت الحوت طازه حوت ياشرايه، والحوت والصبارص عالياكل الحوت، الليم بعد العصر ما ينباع، الهريسة الحارة هريسة حوش، اللبن في الشتاء ... اللبن ضائع في الصيف، نقضنا يا شرايه المسير شوية، برسم حبيبك

على حبة رز وإبرة في عين عدوك، الزبدة زبدة اليوم واللي ما يكلها محروم، التمر تمر النبي باطل صيام اللي ما يفطر عليه، العصائر معصورة والمتفرجة محرومة، فطائر تخليك طاير، القطايف قطايف جنة واللي ما يشري ما يتهنى، خط ولوح خط عالساس ولوح في كل مطراح، مخاريق تذوب الريق، الزلابية كل ليلة عيد، اسفنز اسفنز ما يشيلك ونج.

وفي قلب الحوت قبالة سوق الحوت وجه آخر لعمارة التأمين عبث به الزمان وضرب الجدري أطنابه، في النوافذ طول وتصدع وتهالكت الأبواب، في المقابل يبدو السوق في عناد وعراك شرس مع المهملين ومع العابثين، وقد تجاوز عمره السبعين لكنه يشد عوده يقاتل اليباس. يتداعك الخلق وتعج حدقة الميدان بالبائعين ومن يبدد الوقت حتى وقت الإفطار، الجميع يعصر ميدان الحوت عصرا قبل المغرب عابثين ببعضهم البعض متصارمين / متراصين من أجل اللاشيء، عندئذ تبدو الحياة مرشوشة باللامعنى.

كل يوم يدشن الميدان كمائدة للغفلة، لتبديد الوقت في لعبة استغماية، في عين المكان يتمسرح الطفل والشيخ في هكذا لعبة، وفي عين الميدان نزاع بين الخلق والانعكاس. تعكس العمارة فعل الزمان ويعكس السوق فعل الخلق، وقد تم بنائهما في مطلع الثلاثينات في طراز إيطالي مطرز بالعمارة الإسلامية حيث كان للمهندسين أنذاك عيون تبصر وعقل يصمم وفكر ثاقب، سوق الميدان فيه نمنمة وصحن

إسلامي، وأقواس رومانية وعمارة وظيفية. العين تشف ذلك واللسان يتذوقه: نور عيون اليوم قابلنا عضا، شاطت نار الحب ما ينفع دواء، قرقوم التلفزيوني من تركه التلفزيون يرتكن الميدان بائعا فن المدينة، صورها وغنائها في صندوق عجب خفي يتجلى القديم واقفا. منتصب القامة على الشعالية في مخيلة المشائين مشائي الميدان يرتجل هذا الفنان، منذ حط في الثلاثينات القانون في كتره عازفا اللحن الشعبي مترنما بالكلاسيكي الجديد، في قميصه الأبيض، سرواله الأبيض، حذائه الأبيض والبالطو الأبيض والفرفلة ياقة حرباوية يتمخطر، كأنه ينهض الساعة من الأبدية ليهمس بأسرار القانون قانون المدينة نغمها الصادي المرزكاوي، ليقف عند محل صدقي فون يوزع الألحان ويصوغ ما تجود به قريحة صاحب المحل الفنان محمد صدقي: طيرين في عش الوفا باتن سهارة كنهن؟ فيما يهمس شادي الجبل قصير القامة وصاحب البرول فن المدينة بآخر نكتة في أذن قرقوم. فنان الميدان الذي أقام فيما انصرم من أعوام معرض سنوي لرسوم الأطفال في فم الحوت المطل على شارع عمر المختار حيث لسان شارع يسده عن البحر زاوية الرفاعية.

في الميدان، عند عنق العقيب، عندها يكون البحر من خلفك، حوش الكيخيا قصر، بيت المدينة الثقافي الآن، المكان ظاهر للعيان والعميان، بيت البوم الآن، واجهة زخرفة مغربية واضحة جلية وباب بابين الليل وعنتر بن شداد أو كما قال الرحابنة، في الليل والنهار

يقفل الباب في وجهك طرزه العثمانية المدفونة بفعل صيانة غشم. تترك ناصية العقيب عندك في المطلع يندرج مدرج ساحة لعب الورق صباح مساء في عراك وصياح: ركبة اللص عالتريس والسكمبيل شايط والع يلعلع، أترك ظهر عمارة التأمين حيث السجل العقاري يختبئ لأنك أن شغلت بالميدان يسيل لعابك السمك المرجان والبوري والفروج، أترك ذلك شاقا قلب الحوت كيونس ناجيا من الشغف والشغب، والمنجي ربي من أكداس مكدسة وعبث مشرع فاه كثعبان عشية. أنسل من الميدان مخلفا جامع بن كاطو في شمالي والفم البحري للسوق في يميني عند ناصية شارع عمر المختار حيث تستعيد الأقواس مكانتها وأستعيد أنفاسي، تتجلى الذاكرة: سنابك خيول، فرقعة سياط، زجر وزمجرة، هرج ومرج، الأقواس تدك بكعوب بنادق وأحذية ثقيلة .... ذاكرة موسومة بنسج على المنوال لسان حال مصطفى بن عامر رئيس الجمعية وهو يجر مخفورا برجلي مباحث: في شارع يمتد ويتوغل في الأفق الرمادي حتى يختفي كسلك رقيق ليس هناك بيوت على جانبيه أو حوانيت- وليس هناك من إنسان سواه ... سار في الشارع الذي لا ينتهي أفزعه وقع خطواته- خلع نعليه ومشى حافيا- تسأل لماذا يصنعون شوارع هكذا؟ جدران متوازيان حتى ليبدوان كسرداب خرساني طويل مفتوح على السماء لم يجد منفذا، حاول أن يتسلق لكن قدميه انزلقتا- حاول مرة أخرى- كأنما صنعوا الجدار من مادة لزجة- فلنحاول مرة أخرى- حاولت- هكذا .... قبضت أصابعي على حرف الجدار-

كنت مصرا على القفز لكن في اللحظة التي أوشكت فيها أن أطير في الهواء أحسست أن باطن قدمي ينشطر نصفين.

- لا أعتقد أنك تنوي الفرار؟

- فقط لأرى ما خلف الجدار...

- إن ما خلف الجدار جدار.

- حتما هناك جدار أخير... هكذا علمتني أمي.

إنها مجرد ظنون، لا جدوى من محاولة إثباتها.

يوسف الشريف يكتب قصته تاركا المحاضرة والجامعة عشية من عشيات الستينات، منزويا في مقهى الحرية تحت مبنى جمعية عمر المختار ما اقتحمته قوات الأمن وعاثت فيه فسادا. كان رجال البوليس من البدو ورجال الجمعية من الحضر وا لمتفرجة من التجار من دكاكينهم على جانبي الشارع. مقتحما الشارع بهواجسي وخيبات كثيرة ماضية وطعمها في الحلق، عند هذا المبنى ما مدخله ضيق ودرجه مصعدا صعبا وفيه شقق، في شقة منه كان مقر الجمعية السياسية المعارضة التي تأسست في نهاية الأربعينات، ودكت في المنتصف الأول من الخمسينات، ألج المكان بحاسة شم تجوس تراكينه العطنة، وأتلمس الرطوبة في دهاليزه بعد أن حاد عنه كل حادي وغمره بحر نسيان. لعل عليك استخدام حصتك من الوقت لفعل شيء آخر غير التفجع، لمن لا يجد من يواسيه فلا عزاء للبائسين،

خطر هذا في البال وقد شددت العزم على إكمال الطريق، كانت بنغازي كائنا حذرا فاتنا، وبطريقة ما، جريحا مملوءا بالأسرار في عشية ذاك اليوم الذي غمره نسيان.

ذاكرة المدينة تعبث بي في زاوية الباب البحري لسوق ميدان الحوت عائدا لشارع المختار تحت الأقواس على يمين ما كان مقر جمعية عمر المختار ما تحته هذه الأيام مقهى، كان ثمة خمارة وكأني سكرت بالذكرى، يعتم المشهد ممزوجا بأصوات مبحوحة وأن الشارع يتماوج أو أن الأرض زلزل زلزالها. أرسخ القدم وأشد العود وأسترد النفس لأمشي ثابتا شاقا الباعة الذين يتراصون في الجانبين ما بين الأقواس التي تضم المحلات الراسخة في الشارع، الباعة بنوا خياما مؤقتة غب العيد كمصدات في وجه الغادي والرئح يصطدون الزبون، يطرحون ويعلقون بضائعهم في ممر الشارع المغلق في وجه خيول الحديد الهمجية، بين شارع قصر حمد وجامع بن كاطو خلائط ألوان الخيم تغلق عن الرائي السماء، حيث أمد النظر لعربدة الغيوم في سماء غاصة بسحب سحت تتعارك عند جامع العتيق أقدم جوامع المدينة، أتعثر في بظاعة مسفوحة على طريقي ما أشق غصبا عند محل تصليح ماكينات سنجر للخياطة، يد مساعدة تمسك بي: ياساتر خذ بالك المصائد كثيرة هذه الأيام! كنت أظن أن اليد التي أمسكت بي يد عجوز، لو لم أكن في تلك الحالة من الارتباط لخلتها يد سي عابد البناني، وأنه نهض من قبره عند ممشاه اليومي قرب

بيته ليشد الحيل، ولو كان الأمر كذلك لوقفت وقفة العتاب لم لا، أعاتبه: أن يده كانت تساعد حقا لو دونت ما تعرف من تضاريس المدينة، كنت أيها العجوز ذاكرة المدينة الشفاهية، خفت أم جفلت أن تكون المدون فضاع اللبن في الصيف وضيعتني أيها الشيخ، كنت سأجعله يتحقق من حلو العتاب بأن أجعله يلمس بين يديه كاغط عبدالله القويري من لم يقم في المدينة، وما كتب العابر ودون: بنغازي من الغرب فهي حضرية لا يقبلها البوادي، ويحتمي الناس بهذه الصفة، وتبتعد المدينة مرات عن الغرب فهي قريبة من البادية حولها، قاطعة جذورها، خالقة لنفسها شخصية شرقاوية متميزة، هي لا تقترب من البادية بمقدار إلا لتبتعد عنها بمثل هذا المقدار، وهي لا تقترب من الغرب بمقدار إلا لتبتعد عنه بمثل هذا المقدار. عوامل الموقع والتاريخ والاجتماع جعلت من هذه البقعة ذات سمات متفردة لا ينكرها أهلها بل يعتزون بها ويتمسكون، ولعل الوهم يجعلهم يوغلون في تضخيمها، إنهم يحبون مدينتهم، لا يختلف في هذا الحب قريب عهد بسكناها أو بعيده، وحبهم هذا لا يوقعهم في تناقض. أردت التحقق من هذا حين تلاشي المشهد وذهب العجوز عابد البناني في الغياب تحت وابل من المطر خض الشارع وأذهل الباعة وسحب الزبائن إلى مظلة الشارع في خاصرتيه. فوق المحلات ما يضمها ممر من الأقواس على الجانبين شرفات عامة في غيها تطل من شقق مخباءة عن أعين السابلة، شرفات مزروعة بعناية محدثة ومنقوشة بقديم، الشقق تضم مكاتب حاليا أما في زمنها الأول فهي منازل

تتكئ على شرفاتها جسوم، وتنزلق منها نهود، وتتطلع محاجر عيون سود وقسطلية وخضر وزرق على المشهد من على. أبواب هذه المنازل منزلة بين منزلتين، طالعة وخفية، محطوطة بمكر ودهاء بين أبواب المحلات. بعيد ما كان خمارة ينشق شويرع قصير النفس فيعد خطوات تصب في ميدان صغير تتوسطه شجرة وارفة، يعد المستراح الخلفي لسوق ميدان الحوت، وفيه نصب باعة الخضار مكامنهم على صناديق ألواح في الهواء الطلق، وسكنت العصافير الطليقة، في مواجهة الشويرع المنزلق من عمر المختار، قبالة الشجرة الضخمة مظللة هذه الفسحة. مطعم الفاصوليا بالكرشة والحرايمي "طبيخ السمك الحار" مطعم سي بشير الوداني من ربض منذ عقود من الزمان بالمكان وكمن للجائعين يشدهم من أنوفهم، لهذه الفسحة فتحات أربع تصب فيه البشر الراغبين الانزواء عن شغب ميدان الحوت وزحوم شوارع العقيب وجعفر وعمر المختار، من الفتحة المجانبة لسوق الميدان ينبثق أغلب أيام الأسبوع رجل كمشة، يتلحفه بالطوبني فاتح حتى يكاد يخفيه عن الناظر، يعتمر الطاقية الحمراء الشارة خاصة سكان شرق البلاد، التجاعيد تنقشع عن وجهه بالبسمة الدائمة، في رفقته ضباب سيجارته التي لم تفارقه حتى وقد جازه أن يناصف السبعين من العمر، أخاله في مشيه قصيدة هو الشاعر حسن السوسي من قصده المغازلة وغوايته التشبب بالغواني والحسان، حتى عد مرة كسر رجله أثر أن دهسته سيارة وكانت امرأة السائقة، عد ذلك غزل وأن من الحب ما كسر. من الفتحة

المجانية لمحل الخضار ينبثق أغلب أيام الأسبوع فيما سلف من الأيام رجل انحنى ظهره من أثر معاندته للزمان وأثقله طول العمر وهمه التاريخي الذي لا يكل عابد البناني، ومن هذه الفتحة أو تلك ينبثق بعض من الأصدقاء للتقاهم اليومي حيث يجلس من يلبس الكاط على الفرملة والسروال العربي أو كما ينعت اللباس المحلي، المعتمر أبدا الشنة القبعة الليبية والمتلحف الشعر راشد الزبير، يقعد اصبوحته بشوشا راشا بسمته في مقعده بمحله أو صالونه الأدبي المتواضع، يلتم الصحب لمة تبلسم بالشاي والضحكات الكتومة والقصائد المطلوقة من فاه هذا لمسامع شغوفة، أدخل فيكون لي مقعد من مقاعد أصحاب الصوب، الشعر العطر والكلام المنثور نزوة توقد الجذوة ومفتتح شهوة الحياة.

# آه يا طين بنغازي القاسي

أعود والعود أحمد لشارع عمر المختار بعد أن أنـزلق من ذلكم الشويرع متمهلا أمشي مقصر الخطى، متأملا، مقلبا في الخاطر أوجه هذا الشارع، الزاخر بالمبالغة في الجدية والصرامة، الضيق المحسوب والسعة التي تسع هذا المحسوب، يمد لسانه حتى يطال البحر عند أول الكورنيش بمحاذاة الميناء، يضيق عقب ميدان الحوت ليصب في ميدان البلدية ليسده الجامع العتيق ومنخريه سوق الظلام وشارع سيدي سالم، في أوله سينما، سينما البرنيتشي في أخره سينما، سينما تسعة أغسطس عند ميدان البلدية، في أوله مصرف الأمة على يمين من يهدف البلدية في أخره المصرف الوطني التجاري، في المنتصف جامع في الأخر جامع.

هذا الشارع ليس كمثله شيء، صب الأوربيون في حربهم الساخنة الثانية عليه كل أهوالهم أثناء عراكهم وهم يكرون ويفرون، هدمت المدينة وتحولت مينائها لجبانة، والشارع نجى مما يكيدون له: غرسياني، رومل، مونتجمري ... والقائمة تطول، كأنه نجى ليكون المتحف الحي للحياة في زهوها بأن الغلبة لها وأنه ما تحقق من هتاف المدينة ولسان حالها: أنها الحرب فلتسقط الراء.

السيدة تغالب جسدها، روح وثابة. نفس مشغولة تلظم الأحلام وتوثق المشاريع وتفتح الأفق، تتدثر البسيط الأنيق سافرة في وجه الحجب والظلم وما يكبل، يقيد النساء أن يكن هن، حميدة العنيزي تحت الخطى في الثلاثينات في الأربعينات في الخمسينات وحتى في الستينات في الشارع دون كلل. قصيرة القامة طويلة الرقبة مشرئبة حميدة طرخان من عرفت باسم عائلة زوجها، موجودة بذاتها دون عون دون أحد مفردة بصيغة الجمع، عند ناصية الشارع واقفة مع رجل مطربش في جدال ساخن، رقبتها تطال وجهه وهو يحني رأسه صاغرا أمام عناد المورية قدحا. عند الناصية التي يصطدم المرء بها قرب مبنى البلدية حيث أخر عمود من عمدان الأقواس الرواسخ في الشارع الحمالات منازله، الجيد العريض عند المنكبين، يضيق العنق عند السقف، هذا الوتد موثق الشارع، عصية تتقن عملها وتقلق بطريقة مرضية على المستقبل، وبعد كل حساب تجمع همتها لأجل جمع النساء، وأن لا عاصم اليوم من نهضة النساء، ورؤيتها للواقع غالبا ما التقت بالواقع نفسه، ولو أن حميدة العنيزي بعثت من جديد لتحققت من ذلك لأن الجميع سيجرون نحوها متحققين من أنفسهم فيها، وذلك رغم أن المجتمع، مجتمعهم الذي يعيشون فيه يخفي عيوبه بعناية، وأنهم لا يحبون التطلع لمرآة: كل شيء بنقيضة يتضح، نحن النساء يقع على عاتقنا الدور الأقسي في كل المعارك لأنه الأكثر تواضعا، الرجل يقوى عوده في معاركه مع العالم الخارجي ورؤيته للأعداء، حتى ولو كانوا فرقة، تكسبه طاقة، بينما نحن نبقى

في البيت نرقع الجوارب. خيل لي أن المنصت إليها حسين مأزق والى برقة لكن من بجانبي تدخل مصوبا في مخيلتي بأنه محيي الدين فكيني رئيس الوزراء، وعنادا فيه جعلته حوارا ساخنا مع الشاعر أحمد رفيق المهدوي تأمره أن يكتب قصيدة تنادي بحرية المرأة. أعطته بظهرها معنفة، غامرا جسدها النحيل الجمع الذكوري الذي يصبغ الشارع حيث مشت واثقة الخطى ملكا لا يألو جهدا، نافرة ممسكة بيد خديجة الجمهي، عابرة الشارع بخطوات ثابتة ومتيقنة حميدة طرخان القريتليه سليلة كريت: آه يا طين كريت القاسي، لقد انزلقت كومضة فريدة تلك اللحظة التي اعتصرت بها وتشكلت في هيئة إنسان مكافح، لقد جبلت بالدم والعرق والدموع، أصبحت وحلا، أصبحت إنسانا وابتدأت صعودها.

أصعد الشارع في اتجاه ميدان البلدية ما قبيل وصله يقطع الخيط طول رقبة قصر حمد الشارع، الشارع الذي يربط عمر ابن العاص بالبحر هنا أتريث، متمهلا أتأمل فصاحة عمر المختار وزدرائه لهذا العبث والإهمال، وكل ما يطال الشارع، الذي على يمينه في مدخل شارع قصر حمد يقبع المقهى الصغير منزويا عن المارة العجلة، كأنه يخفي كينونته: أشبار طوله وأشبار عرضه وصاحبه العجوز لم يعد يفتح بابه يوميا، مبنى من منازل ليبية هرمت وطالها مبدأ إزالة كل قديم، كأنه يكظم غيضه من فيض أهله: من زاد خجلهم من قديمهم عن كل حد وصواب، من مسهم شيطان طائش، وزادهم غرورهم فلم

يعد حبيبهم الحبيب الأول. ويقطع خيط الوصل هذا هدير وزائر، دخان يسكب في المشهد فيلوث المكان بسخمه، تندلق مراكب حديدية كورية ومن كل طرز متهرئة جلبت من جبانة سيارات أوربا ولطخت الحياة. يزم عمر المختار شفتيه ويتغضن محياه عند تقاطع شارع قصر حمد، حيث يتمخطر السوقة سائقي الحديد البائد زاهين كما الباعة بكل بائت بخس. أسحب النفس عن غيضها ومن قض وقضيض المشهد، متفرجا على دكانة التحف قبيل التقاطع الذي أعاق تواصل المنظر، لقطة: تحفة قناع أفريقي أبنوسي يرقص في الواجهة، تمساح ممد قدامه يرقب جلد خروف ناعم، عاج يسيل خلف سياج الزجاج وعيون ثعلب جاحضة تبحث عن منفذ، المنظر ريان بالتحف والجيب جاف وجافل عنها والنفس تواقة: اللي ما يشري أيتفرج لسان حال من يقع تحت طائلة نظر البائع.

حلقت بعيدا عني، جميلة تكسر المنظر المستلقى بين عيني، تنحشر بيني والشارع، لابد أن أتغزل فيها: أن تكون أجمل النساء، أن عينيها فجر النحل، أن شفتيها الشفق، أنها مشمش الصباح، الجميلة الملكة تمخر الشارع حيث الأوهام حقيقتنا التي نحلق شعرها، الجميلة تشع عن ابتسامة ماكرة فيها سحر لا يخيب وهي ترى عنق الشارع يلتوي ولسانه يمضع الكلام، ولجسد الجميلة التي تشق الساعة الشارع نصفين جل الكلام، هذا الجسد الذي يحتشد دلفينا مدربا ليختبئ خلف قفطان أسود، الشارع يرتد عن نفسه

ويمنحها مساحة إضافية وللنوارس رثائي ولأمي الفجيعة. يغني ولد في زاوية المشهد، عبدالوهاب قرينقو في زاوية المردد، أغنية مشتهاة، غير متوقعة، تنبثق صدفة من فضائية باهتة.

عمر المختار يبتسم والشارع ينفسح عندما اجتاز المفرق، عند الجزء الأخير بالقرب من مطلع ميدان البلدية، عند محل المفتي، عندئذ طفل يقعمز ظهره للدكان، وجهه مرقب، والعيون فاحصة: خير يا ولدي امحمد، أحد المارة يلقي السلام على الطفل المشغول عنه بوقائع سنوات الطلع، يتطلع أمامه، العين كاميرا ملقاط ما ترى، الأذن ريكوردر ملقاط ما تسمع: وجوه أجانب حمر وبيض ولغات أجنبية طليانية وانقلزية، سيارة كاديلك تنحشر في بطن الشارع يتغيا سائقها أن يلتف بها وسط الشارع غصبا متمظهرا، بدل أن يدخل الميدان وهناك يبدل اتجاهه، رجل فيه قصر وبدانة يندلف من الباب المواجه لمقعد الطفل ليجلس في مقعد الكاديلاك التي تنطلق مطلقة غبارها، صالح بويصير من نزل من المبنى وركب السيارة من كان في انتظاره السيد محي الدين الشريف، ذاك المبنى آنذاك، مطلع الخمسينات، مقر جريدة، جريدة الفجر لصاحبها ورئيس تحريرها صالح بويصير من في تلك الفترة هرب من البلاد متلحفا بلباس امرأة عقب أن اغتال صاحبه محي الدين أحد رجال البيت الملكي رجل السلطة الشلحي. الطفل غادر مقعده لمقعد طب الجراحة، الدكتور محمد المفتي أرقبه هذه الساعة بالكاميرا يصور الشارع ركنا ركنا ويكتب وقائع البلاد ويحلل أحلامها.

## نزوة المدينة .... الجنون الغامض!

بعيد ذلك بقليل قبل أن يتلاشى الشارع في الميدان، ثمة دكاكين صغيرة للخيوط والإبر وحاجيات الخياطة، غيره للملابس العربية من طواقي وسواري وسراويل، يلفت انتباهي صغر المحلات، كأن المهندس وجد مساحات زائدة في المخطط فأراد حشرها وسط السوق الذي يمتد على طول الشارع، فقد تؤدي غرضا مختلفا عن بقية المحلات، وفي ذلك تشبه جل الدكاكين من الطرز الليبية المعتادة في غير مكان من المدينة. الشارع مسفلت ومغلق في وجه السيارات لكن هذا لا يعجب، أل المدينة لا يعجبهم العجب ولا قانون...! تقطع طريقي عجوز سوداء كمشة عظام ووجه التغضن، عصب مشدود يقبض على معصم العصا التي يتوكأ عليها: كوشي ... ياليبيا، تطلق الكلام وتثنى بالزغرودة، أشم الفول وأرى مخيالي معبأ ببخاره، تفتح العجوز القفة وتناول طفلا كمشة فول مطبوخ وتأخذ منه نصف القرش ثم تطلق زغرودة، أتصور أن المشهد ناقص ومختل أستدعي شخصية حيوية، قصير القامة منحنية، أسمر أو كأنه فحم مبيض، الأعصاب تشكل ملمحًا عامًا لوجهه وعنقه، يقيس الشارع بالأشبار ثم يعيد قياساته كل

يوم صباح مساء لا يكل ولا يقتنع بما نتج من قياساته، الأطفال خلفه من ركن لشارع لميدان: عيسى خناق أمه عالعصبانة، عيسى هذا وزميله شركة هم نزوة المدينة بجنونهما الغامض.

شعب عربي واحد، جيش عربي واحد، ناصر يا حبيب الشعب يا ناصر، صورة صورة كلنا ح نطلع في الصورة: ميكروفونات، حناجر، سواعد مرفوعة في السماء تتوعد، ازدحام، حشد يتدافع دفعني بعيدا، مظاهرة تنطلق من ناحية مقهى الحرية تحت مقر جمعية عمر المختار، أعلام الجمهورية العربية المتحدة، وصور جمال عبدالناصر تحملها أيد سمراء متغضنة، وبعض من رجال السوق يصفق، على الشمالي صاحب القهوة يوزع المشروبات بورتيللو وأناناس وبرتقال علامة الدنيني سينالكو بارزة على الزجاجات، شارع عمر المختار يختنق بما فيه ليصب في الميدان ما عنده يلهث جسدي، البوليس يواكب ويأطر المشهد والصحف المحلية، الزمان، العمل، برقة، الريبورتاج، الحقيقة، البشائر، الرقيب، صن دي قبلي، سرينيكا ترقبه. فلاشات متتابعة ترصد كل ما حدث آنذاك، أسوح فيما رصدت وما طالعت من يوميات الشارع الزاخرة بالتفاصيل: في موريللا، المسافر مدعو إلى زيارة المدينة، وفي الوقت ذاته، إلى تأمل البطاقات البريدية القديمة التي تمثلها كما كانت من قبل: الساحة نفسها، وتبدو فيها دجاجة حيث أصبح، الآن، موقف الباص، ومنصة الموسيقى في مكان العبارة الصغيرة، وسيدتان شابتان بمظلتيهما

البيضاوين في مكان مصنع المتفجرات. ومن اللائق، حتى لا يخيب سكان المدينة، أن يمتدح المسافر المدينة...

- لا تقاطعني ساتي على النص أولا ...

- قلت ساتي لقسم الصحافة المحلية...

- دار الكتب لن تطير كما طار الحمام.

أن يمتدح المسافر المدينة، كما هي مصورة على البطاقات البريدية، ويفضلها على المدينة الحاضرة، على أن يحذر من إبداء أسفه على التغيرات الحاصلة في حدود معينة: على المسافر أن يعترف بأن عظمة موريللا الحاضرة، المدينة الكبيرة، وازدهارها، إذا قورنت بما كانت عليه موريللا القديمة الريفية، لا تعوضان اللطافة المفقودة. ولو بقيت موريللا على حالها، لما رأينا إلا الأقل القليل من جمالها. وعلى أية حال أصبح لهذه المدينة الكبيرة مثل هذا السحر الإضافي، ولا يمكن التفكير، بحنين إلى الماضين فيما كانت عليه إلا من خلال ما أصبحت عليه الآن.

حاذروا جيدا أن تقولوا لهم بأن مدنا مختلفة تتعاقب، أحيانا، على الأرض ذاتها، وبالأسماء ذاتها. تولد وتموت دون أن يعرف بعضها بعضا، ودون أن تتواصل أبدا فيما بينها. ويحمل السكان أحيانا، الأسماء ذاتها، واللهجة ذاتها، وحتى ملامح الوجوه هي ذاتها، ولكن الإلهة الذين كانوا حملوا تحت الأسماء، وعاشوا فوق

الأماكن، قد رحلوا دون أن يقولوا شيئا، وحل محلهم غرباء، ومن العبث أن يتسأل المرء إذا كان هؤلاء أفضل أو أسوأ من الإلهة القدماء، لأنه لم يكن بينهم علاقة. وبالطريقة ذاتها، فالبطاقات البريدية القديمة لا تمثل موريللا كما كانت، ولكنها تمثل مدينة أخرى، كانت تسمى، مصادفة، بنغازي أيضا.

اللعنة على أرشيفك، انظر ما وجدت....

وجدت ضالتي عند الروائي الإيطالي إيتالو كالفينو في: مدن الخيال لم يتخذ شارع عمر المختار من المكتبة زاوية، كما لم ينحشر بين دفات كتاب، كان طليقا، ترتاده حينا النوارس التائهة عن البحر، حينا آخر ترتاده زوبعة جافلة عن النوارس. ولأنه حلقوم بنغازي فكثيرا ما يغص بالذكريات وتخنقه العبرات، وأن لم يدمع فإن الأمطار تغسل عن محياه الكآبات الشتوية حين ينفض عنه رواده وعاشقيه، وان تقوس ظهره فإن عوده مشدود، وان النظر كلّ في محجره ميدان البلدية وقلة من عبر فإنه مرهف السمع يشده الإيقاع الضاج لميدان الحوت، الطبل للشارع الوتري.

كمان المدينة شارع عمر المختار الهامس بما في الشغف، شغاف بنغازي. في الزاوية عند نهاية الشارع ملمح وجه لم يتشكل بعد في اللوحة، محمود الحاسي يضع لمسة من فرشاته في اللوحة التي على المسند، في الجانب الأيسر منه رسامة إيطالية، تضع اللمسات الأولى للوحتها في شارع عمر المختار حيث ارتكنت زاوية تطل منها على

مبتغاها الجامع العتيق، المارة يرمقون ذلك على عجل، تبدو عليهم علامات التعجب لما يفعل الرجل والمرأة الأجنبية من جنون. جن الشارع بمريديه وجننت به، الساكن فيه، الماشي، ما مضى، ما يطرى، لا يحدث لأن الشارع سادر في غيه عما يسألون، منفرد عن المسافرين فيه، غاف في إصغاء للحالمين ممن لم يستسلموا لغواية بيع أرواحهم مقابل المال: همس الشارع في أذني، وهمست غريبة هي مدنتهم الجديدة المبنية بحجارتنا العتيقة، همس هل سمعت بمثل يقول أن طائر الحسون يقدم إلى صغاره المحبوسين في القفص عشبا ساما، فالموت عنده أفضل من فقد الحرية، همست من فينا طائر الحسون وهمس القادر أن يحلق.

أصغيت خلفي خطوات تطرق الفسحة بين أقواس الشارع والمحلات، همس: لا يموت الناس إلا من الكسل ومن الحاجة إلى الإيمان، والفشل في جعل حياتهم تستحق العيش، قلت للشارع في عينيه أنت شخصية معذبة قلقة، في عينيه قلت أنت السيرانة، لك رأس امرأة وجسم طائر تسحر الملاحين بغنائك فتوردهم موارد التهلكة، أنت حنين لعالم في طريقه إلى زوال فقال أنت تعلم أن كل شيء فينا يبحث عن أوله وأني أمقت الإدعاء والدجل، دونك ميدان البلدية مقبرة وإن تكن لا تريد قبرا فكن قبرة بديلا عن الساعة، ساعة الميدان التي ماتت عقاربها ولم تعد بالتالي تلسع، ولا تحس لسع الوقت كما أحس، وأعلم كما صحبك صحب الريبة قادر أن يكون لك في أي شيء ريبة إلا في الوقت الذي داهمك، والساعة الميتة لن تسعفك.

يكون شارع عمر المختار فم الميدان أن انحرفت لشمال ترافقك الأقواس في هذا المنحرف، هنا كانت قرطاسية، أن انحرفت لليمين ترافقك الأقواس حيث كان البنك العربي والآن الشرطة السياحية، قبلتك الجامع العتيق والشجرة التي تغطيه بما ورفت وطالت سامقة تشتهي أن تكون مظلة الميدان جملة. عندها قف وقفة متأمل، وقفة المباغث، وقفة من غطته السماء واتسعت عبارته، بعد أن ضاق بالعبرات، في منزلق عمر المختار من مشى في هذا الممشى قبلك مسلسلا وتصنت: صدى السلاسل يرن في أركان الميدان، أن وعيت تسمع، وأن ما سمعت في الزمن بينك وبينه ممشى نصف قرن وعشرين عام وعام، فإن كنت ما تكتب الساعة في العام الثاني بعد الألفين فإن ما تسمع حصل في العام الحادي والثلاثين بعد التسع مئة وألف ميلادية، تمطق فما حصل ذاب في هواء المحيط وسكن، وانظر قدام حيث مبنى البلدية وأن فعل به الزمان ما فعل فإن استنطقته ينطق، تلمس في الحائط صرخات تنبض بما حدث، عبق المكان تنشق: يا ويحهم نصبوا منارا من دم. يسيطر على التحفز والإثارة، ومتيقنا أن ثمة منارة يلوذ بها الأفراد المتوحدون، وأن اليقظة زوال الحلم من الوجود، ألج الميدان. ولد ساعة ولدت المدينة، هو في القدم قدم الجامع العتيق وكأن الجامع جمع الناس للصلاة، وككعبة جمع بنيانهم، فكان الميدان، الذي هو الصرة، التي هي محل البلدية، البلدية التي هي سلطة المدينة وعمدتها: عند منتهى شارع عمر المختار شمالا، تحت الأقواس، في الزاوية محل صغير، ثم شارع أصغر

في طول العمارة، ما تفصل بينه وبين الشارع الخلفي للميدان، حيث كان ثمة معبد اليهود، تترك الشارع ثمة محل اثنان وثالث ... ثم شارع مثل سابقه عبارة عن خرق يفصل بين لحم العمارة فيجعلها اثنين، إذا ما تعديت الشارع ثمة صيدلية، قوس بين قوسين، على أرضيتها تاريخ إنشائها، صيدلية الفلاح سابقا، ما يملكها الآن جمعية الهلال الأحمر، بعد الصيدلية محل خياط ومطعم صغير، اترك ذلك ولا تفحص المكان، لم يعد ثمة مقهى العرودي حلقة رواد الثقافة الحديثة ونخبة المدينة، التي كان في الشارع الثالث المنفلت من زاويتها مطعم بوعشرين ما افتتح في عام 1925م وتحت صورة التقطت لهذا المعطم آنذاك ونشرت بمجلة الجغرافية الوطنية البريطانية علق هاريت تشالمرز أدمز: حينما تكون الحركة التجارية رائجة في عاصمة برقة فإن الأطفال لا يختلفون عن غيرهم في البلدان الأخرى من حيث شغفهم في استبدال بعض النقود المعدنية بالحلوى، وأصحاب المحلات لا يسعهم إلا أن يرحبوا بذلك، المحل متران في متر محشور في المكان ظاهر فيه كما البدر حيث أكلت السفنز والزلابية والمخاريق، حيث تذوقت للمرة الأولى الفول المدمس والطعمية، لصاحبه الحاج حمد محمد الداحومي الأوجلي 1862- 1947م من ورثه ابنه سي محمد بوعشرين من ورثة أبنائه من هم الآن يملؤن بما تراكم من خبرة المدينة بمحلات بوعشرين حريصين على مهنة الجد، ولن ترمي النظر قدامك: لم يعد ثمة سوق الظلام، لقد تم هدمه، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وإن كنت قبالة ما كان يوما سوق الظلام منذ القرن التاسع

عشر وحتى نهايات القرن العشرين فإن ما يجانبه مثل خيال مآته هو أقدم جوامع بنغازي، أما ما يجانب الجامع فقد تم إزالته، حول إلى مكتب الكناسة وهو فضاء الرمل، فلا تتحسر لم يعد ثمة شارع سيدي سالم، ولا فنادقه الصغيرة، منازل الحبيب بورقيبة ومن هرب من رجال جبهة تحرير الجزائر ومن ومن ... من تذكر من تنسى، في الجانب وأنت خارج من الجامع العتيق مبنى المصرف التجاري الوطني، هو مبنى حديث لكن حافظ على أن يكون طرازه من طرز الميدان فكأن مبنى المصرف حياة في مقبرة، أذكرك أن مكانه كان مبنى سينما تسعة أغسطس وكاراكوز بازامه ما جانب مبنى البلدية وهنا مربط الفرس: كنا جالسين بمقهى الميدان على كراسي مريحة، تحت أقواس مرتفعة، وأمامنا ميدان البلدية المتسع الفسيح وكان الجو صحوا والطقس حارا، وقد هبت ريح الجنوب طول النهار، أنذرت الناس بقدوم فصل الصيف الذي لا يخلوا من خيرات، وأن كان مقلقا في غالب الأحايين: ولا تزال تهب ريح خفيفة، والشمس كانت ترسل وهجا اخذ يتناقص بعد أن غادر قرص الشمس الساطعة الملتهبة كبد السماء. يشعر جميع الناس بنوع من القلق ويشعرون بأن ثيابهم أمست ثقيلة على أكتافهم، يتمنون لو أتيح لهم سلحها والتجرد عنها. لقد كان معظم مشروب الناس في المقاهي لمدة يومين القهوة والشاي، وهم الآن يطلبون المرطبات والمبردات .. هذا هو ميدان البلدية: في الجهة الأمامية دار البلدية الضخمة، على طراز شرقي أفريقي جميل، في الجهة الأخرى سراي فخمة بها ثلاث

طبقات، بعدها طريق كثير الازدحام ثم البناء الشاهق، الذي بأسفله المقهى الجالس به مع بعض الأصدقاء، ومعنا أستاذ إيطالي ذو لحية مغرم بتعلم اللغة العربية، أدى ذلك إلى أن استفرغت جلستنا البحث في مسائل تتعلق باللغة العربية من حيث الصعوبة والسهولة، ومن حيث أنها سماعية أكثر مما هي قياسية خصوصا الجموع المكسرة .... أما في الجهة الشرقية من الميدان فهو الجامع العتيق أو الكبير كما يسمونه، به قبة عالية بجنبها مئذنة أسطوانية تنتهي بمخروط عليه هلال من نحاس، وقد أسس هذا الجامع عبدالسميع القاضي حوالي سنة 1500، ثم جدد بمال أوقفه سالم باشا المحيشي. ميدان البلدية مستطيل ليس به حوانيت كثيرة، حيث أن معظم الأبنية المحيطة به هي معدة للدوائر أو المحلات العمومية أو منازل للسكنى، ولذلك فحركة الدوران فيه وخصوصا في مثل هذه الساعة الجالس فيها أنا بالمقهى هي قليلة. وربما أثر الحر في اجتماع الناس كما يؤثر على أجزاء المادة فيجعلها تتباعد وتمتد وتنتشر .... ليس هناك أناس كثيرون: أمام الجامع نحو عشر عربيات مصطفة تنتظر من يشغلها ولكن بدون جدوى، ويتفرس كل عربجي جالس على مقعدة في أعين المارة، لنقل من يرغب في الإسراع فيركب عربته فتطير به كالرياح، ولكن المارة يمرون بجنب العربة والعربجي، وينظرون إليه وإلى الحصان ويواصلون سيرهم. أن خيول العربات ليست بادنة كثيرا، فهي مطأطأة الرؤس مغلقة الجفون، وربما كانت تفكر في اصطبلها النظيف وعلفها الجيد، تنتظر ساعة تخلصها من هذه السيور والقيود لتمرح كيفما شاءت، وربما

كانت الساعة المنتظرة قريبة. دقت ساعة البلدية المنيرة: الساعة الثامنة مساء، فودعني رفقائي وانصرفوا، وبقيت وحيدي جالسا على المقعد ومتكئا إلى الوراء، ووضعت طربوشي على ركبتي، وبقيت أراقب الميدان: هذه سيدة تقود عربة صغيرة بها ابنتها اللطيفة وربما كانت قاصدة بيتها، هذا طفل رث اللباس يجري ولا أدري إلى أين، بينما هناك أمامي شاب طويل القامة نحيفها أخرج ظرفا من جيبه، فتأمل في عنوانه ليتأكد منه، واقترب من صندوق البريد الجوي فوضعه فيه وانصرف. وربما كانت تلك الرسالة لحبيبته يبثها فيها أشواقا وحنينا، وربما كانت لوالدته- يظهر لي أن الشاب ليس من سكان البلدة الأصليين- يسليها ويعدها قرب اللقاء ومن يدري ربما وربما وربما... دقت الساعة التاسعة، فنظر إليها أحد العريجية وجلد حصانه وسار ببطء، وربما كان على موعد مع أحد زبائنة، وربما كان قلقا طول الوقوف، فسار على بركة الله وفي كل حركة بركة. أصبح الميدان خاليا تقريبا إلا من أفراد قلائل، ليس لهم اتصال متين بالمنزل مثلي. كانت الساعة التاسعة والنصف، فهبت عاصفة ريح حلزونية بالميدان، ولكنها ليست جنوبية كريح النهار فهي شمالية باردة، في انقلاب فجائي، إننا في آخر مارس، وكثيرا ما يداعب هذا الشهر الناس على هذه الصورة، لقد أحس الناس بنوع من القشعريرة واستمرت الريح في هبوبها، وأخذ جريد النخيل المغروس على حافة إفريز الميدان يهتز، ويصعق بعضه بعض مكونا صوتا خاصا يدعو إلى الوحشة، هناك سيدة تغلق نافذة بيتها، بعد أن كانت تستنشق الهواء.

لقد برد الطقس وبالبرودة تتقلص الأشياء، فلا يسعني إلا أن أتقلص أنا أيضا، وأرجع إلى بيتي، فدفعت ثمن ما شربته، وتقدمت على إفريز الميدان، فلاح لي القمر مضيئا من أعالي السراي التي أمامي، وقد أرسل أشعته الجميلة الفضية، التي طالما تغنى بها الشعراء على طول الأجيال وفي جميع الأقطار، على قمة المئذنة وعلى أعلى قبة الجامع، رأيت وجهه الصبوح عليه ابتسامة، ربما دلت على استهزائه بالإنسان الذي ينتقل به من البرد إلى الحر ومن الحر إلى البرد على غير إرادة، وربما دلت على معاني أخرى لا يفهمها إلا الشعراء، ولست منهم، وربما دلت على معاني لا أفهمها أنا ولا يفهمها الشعراء، ولكن يفهمها الفلكيون المنكبون على آلات الرصد، القائلون بأن البقع التي على وجه القمر هي جبال وأودية لا كما يقول الشعراء تقاطيع وجه متناسق أغر، ولا كما يقول علم البيان أنها ما شبه به في جملة أنت كالقمر أو كالبدر بجامع الحسن في الكل.

والذي أعرفه أنا هو أن ميدان البلدية بان مغمورا بذلك النور، فاكسبه لونا جميلا فاتنا، جميلا ساحرا، ولذا فإني أجاري الشعراء وأقول أن وجهه أغر صبوح يشبه الحبيبة أو الحبيب، سلاما أيها القمر وهيا إلى البيت.

لم ألفت انتباه أحد، حين اندسست بقرب الطاولة التي يجلس عليها الشاعر أحمد رفيق المهدوي ورئيس تحرير مجلة ليبيا

المصورة عمر فخري المحيشي والدكتور محمد الفيتوري، كما لم ينتبه أحد، وهم يصغون كما أصغى محبوس الأنفاس للكاتب الصحفي مصطفى السراج يقرأ لهم ما كتب، أمر رئيس التحرير ببعث المقالة فورا إلى المطبعة، وأن تسلم باليد لعبدالله الجهمي كي تجمع المادة على عجل لتنشر في العدد القادم، السابع من السنة الخامسة ربيع أول 1359هـ/ أبريل 1940م.

## بورتريه الثعلب،...

صغير، قصير، لكن ليونة الجسد ورشاقة الحركة توحيان بضخامة فهو دائم المباغتة! متردد لكنه حازم، تردده يربك الخصم فيكون حزمه قاطعا. يجيد الاختفاء حيث السهل الكاشف وحيث الوضوح فمقدرته أن يكيف المحيط لمراده. يسكن الفيافي لكن المراتع الضيقة والأزقة مثلما البساط والأرض القارة، تبين جميعها أنه سيد المناورة.

كثيرا ما اقتحم الشوارع في مدينة بنغازي كما لو كان يمشط محيطها الصحراوي.

كثيرون لم يلتقوه وجها لوجه، لكن الجميع يقر بمكره، الحق دهائه. عند الجميع أسطورة، عند الجميع البطل ذو الإمكانيات القليلة الكثير الحيل. هكذا رتع ثعلب الصحراء في أركان بنغازي، أما في ليل أهلها كثيرا ما جالت أساطير الثعلب التي تنسج من احباطات وخيبات عاشها أهل المدينة في مواجهة جيش فاشي مهزوم.

● 7-2-1941م.

عزيزتي لو:

تسلمت وظيفتي في الليلة السابقة وهي حل معقول لمرضى

الروماتيزم. وفي الوقت القليل المتيسر يتحتم على أن أجمع كل ما أحتاجه.

أخر الأنباء الواردة من أفريقيا سيئة للغاية، فقد استولى ويفل على بنغازي، ودمر آخر فرقة مدرعة للإيطاليين جنوبي المدينة.

لذلك طلبت أن يهاجم ميناء بنغازي في نفس الليلة، وإرسال قاذفات في الصباح التالي لمهاجمة الطوابير البريطانية جنوبي غربي المدينة. ويبدو أن الإيطاليين طلبوا عدم قذف بنغازي بالقنابل لأن كثيرا من الضباط والمدنيين الإيطاليين يمتلكون منازل هناك. ولم أصبر على هذا، وقام العقيد شماندت بالاتصال بمقر الفوهرر وتلقي تعليماته بالموافقة، وبعد ساعات قامت أول القاذفات الإلمانية بقصف قوافل التموين البريطانية المتجهة إلى بنغازي.

● 26-3-1941م

عزيزتي لو:

تحركت هذا المساء نحو الشمال لأرقب سير الأمور، في جبهة الاستطلاع الثالثة التي تحركت في اتجاه بنغازي، وعندما لحقت بها في منطقة المقرون أخبرني فون ويخمار أنه لم يصطدم حتى هذه اللحظة بأية قوات بريطانية، وأن قسيسا إيطاليا قادما من هناك على الفور أخبره بأن الإنجليز أخلوا المدينة بالفعل، وبناء على طلب فون ويخمار أرسلت الكتيبة فورا لاحتلال بنغازي.

● 8-4-1941م

عزيزتي لو:

ليس عندي أية فكرة عن صحة التاريخ. فنحن من عدة أيام في هجوم مستمر في الصحراء اللانهائية، وفقدنا كل فكرة عن المكان والزمان. وكما تعرفين من الأخبار فكل شيء على ما يرام. وفي 4 من الشهر زرت بنغازي مع رئيس أركاني والدينجر. وصلتني تهاني الفوهرر على النجاح غير المتوقع، ومعها تعليمات للعمليات القادمة تتفق مع ما أهدف إليه تماما.

●22-4-1941م

عزيزتي السيدة رومل:

إنني مدرك أنك قد تصابين بصدمة عندما تتلقين رسالة مني، ومع هذا فقد قبلت المخاطر لأؤكد لك أن كل شيء على ما يرام بالنسبة لزوجك المحترم الذي لم يتوفر له الوقت للكتابة إليك خلال الأيام الماضية، لانشغاله باستمرار وقلقه أيضا لأنه عزم على ألا ندخل طبرق فحسب بل على أن نتقدم إلى ما وراءها، وهي رغبتنا جميعا وبدون استثناء. ولكن في الوقت الحاضر أصبح ذلك مستحيلا، لأن عدد القوات الألمانية قليلا جدا، ونحن لا نستطيع أن نفعل أي شيء بالإيطاليين، فهم أما يرفضوا التقدم كل الرفض وإما أن يهربوا عند أول طلقة أو لا يتقدموا على الإطلاق ويرفعوا أيديهم على الفور

بمجرد ظهور أي إنجليزي. وبالطبع ستفهمين يا سيدتي كيف تكون القيادة صعبة بالنسبة لزوجك. ولقد نشر مقال عن زوجك في العدد الأخير من مجلة "راس الرايخ" وأظن أنك قرأته. وقد غضب زوجك للغاية وكتب على هامشه معلقا: هراء.

● الموقع الرائد شريبلر

● 29-9-1941م

عزيزتي لو:

كانت الأيام القليلة الأخيرة مثيرة. فقد وصلت بنغازي شحنة كبيرة واستمرت عملية التفريغ 50 ساعة، وتم كل شيء على ما يرام، وتستطيعين أن تتخيلي مدى ابتهاجي بهذه الشحنة، فنظرا للحالة السائدة في البحر المتوسط ليس من السهل الحصول على أي مدد عبره. ونحن في الوقت الحالي نمثل الدرجة التالية في الأهمية لمسرح العمليات الروسي، ويجب أن نرضى بالفائض بعد أن يستكمل احتياجات المسرح الروسي.

الريح تصفر في الخارج بالرغم من عدم وجود "القبلي". وفي هذا المساء سيقوم جونثر بتقديم البطاطس المحمرة وأنا متلهف لتناولها بعد امتناعي عن طعامي المعتاد عدة أيام.

● 25-12-1941م

عزيزتي لو:

لقد فتحت مساء أمس هدية عيد الميلاد في مقطورتي، وسررت للغاية برسالتك ورسالة مانفريد وبالهدايا. وبعضها مثل زجاجة الشمبانيا أخذتها فورا إلى عربة المخابرات حيث احتسيتها وبرفقتي رئيس اركان حربي ورئيس عملياتي ورئيس مخابراتي ومرت هذه الليلة بهدؤ. وقد سببت لنا الفرق الإيطالية قلقا شديدا، فهناك أدلة مخجلة على انهيارها، وتضطر القوات الألمانية لتتدخل لإنقاذها في كل مكان. وقد خاب أمل الإنجليز في بنغازي فلم يتمكنوا من عزلنا وتطويقنا هناك، ولا يوجد أي وقود أو تموينات.

حاشية: لا أطن أنني قد أخبرتك بعد أن شريبلر قد لقي مصرعه في حادث اليم، إذ مرت سيارة "الفيل" فوقه.

# توقيع مونتجمري!

الذئبة ترضع جراها السبع فيما الثعلب يعيد الاستيلاء على الساحة، لمرات ثلاثة تبادل الأسد الهرم المدينة والثعلب الطامع في الاستحواذ على أي شيء، حتى لا شيء.

عراك الوحوش طحن عظام المدينة العجوز: ليلة البارحة، مثل كل الليالي. مواءُ القطة، صدعَ شوارع المدينة. لكن بنغازي، مدينة غارقة في ليل شخيرها.حتى لم تفطن للإعلان رقم1، للحكومة البريطانية العسكرية في برقة/ الاحتلال الثالث:

لما كانت بعض المناطق الليبية في الأيام الأخيرة تحت الحكم الإيطالي، قد أعيد أو سيعاد احتلالها على أيدي قوات صاحب الجلالة البريطانية، وقوات أخرى تحت قيادتي، وبما أنه يترتب على بوصفي القائد العام أن أؤمن حفظ النظام في المناطق السالف ذكرها. بناء عليه، أنا الجنرال مونتجمري أعلن ما يلي:

1- بدء الاحتلال: يعتبر بدء الاحتلال من تاريخ توقيع هذا الإعلان.

2- بطلان الإعلانات والأوامر السابقة، وبالرغم من هذا البطلان فإنه إذا كان أي عمل من الأعمال قد وقع بمقتضى أي إعلان أو أمر ملغي فإن ذلك العمل يعتبر صحيحا، إذا كان قد وقع في مكان احتلته قواتنا تحت قيادة أحد أسلافي. وكل من يكون قد ارتكب في أي مكان من هذه الأمكنة جرما مخالفا لأي إعلان، أو أوامر من تلك الإعلانات أو الأوامر، يكون عرضة للعقاب من محكمة عسكرية تشكل فيما بعد بأمر مني.

3- حفظ الأمن العام: بهذا أنذر كافة سكان المنطقة المذكورة (ذكورا وإناثا)، بأن يكفوا عن إتيان أي عمل من الأعمال التي تؤدي بطبيعتها إلى الإخلال بالأمن العام، أو الإضرار بمصالح قوات صاحب الجلالة البريطاني وقوات حلفائه أو قوات أحلافها أو مساعدة أعدائهم، وعليهم أن يمتثلوا في الحال لجميع الأوامر الصادرة بمقتضى سلطتي. كل من تثبت إدانته أمام محكمة عسكرية لمخالفته أي أمر من هذه الأوامر يعرض نفسه للحكم عليه بالإعدام، أو أي عقاب أخف منه كما أجيزه.

4- مادام أهالي البلاد المذكورة يلتزمون السكينة ويطيعون الأوامر، فلن يكونوا عرضة للتدخل بأكثر مما تحتمه المقتضات العسكرية.

5- تعلق صورة هذا الإعلان وما يليه من الإعلانات المختلفة المختصة بالأهالي في كل دائرة متصرف، وفي كل دار محكمة وفي كل مركز من مراكز الشرطة الداخلة ضمن اختصاصي.

صدر في هذا اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر 1942 - ب. ل. مونتجمري- جنرال. القائد العام للجيش الثامن.

ازدحمت الأشباح تطالع طالعها، لم يكن أحد في المدينة ساعتها، هذا الثامن للمرة الثالثة يلطخ الأبيض بالأسود، في مرتين سابقتين محي جيش البارينز وتابعه قفة موسوليني، هذا التلطيخ. رتع الورق في الفراغ ودوخ الأمر الشرطة فهي قوة إيطالية حارت في معرفة أو ترجمة لفظة الأهالي، فى المرتين تمكنت هذه من ذلك فكل من تعاون مع المحتل هو عدو، لكن الخلطة الثالثة تبدو ثابتة، لهذا أهدر مونتجمري منيه الأسود على حيطان منهارة ونفوس لا وجود لها حتى في السجل المدني الذي لا وجود له أصلا، حيث حَضَّرَ كل أحد لا وجود له، وسجل غياب من توجه لهم القرار، فالمدينة كانت دون أهل والأهل دون مدينة. لكن الاحتلال الثالث ثبت أركانه حيث تداعى كل شيء.

## عقارب الميدان الميتة!

دقت ساعة الميدان، وكنت واقفا متسمرا أتفحص عقاربها الميتة، التي لم تدق من زمن طال ولا حتى في التو، نهض أحمد رفيق وانساب في لجة الميدان، كانت الساعة واقفة عند التاسعة تماما، وكنت الشاهد على هذا المشهد دون أن أتبين مغزاه: [رجل في مقتبل العمر يقف على طاولة في المطبعة يقوم بجمع رصاص الأحرف وترتيبها، أي يعد المادة الصحفية منهمك في عمله ويوجد بجانبه أوراق وبقايا مجلات وغيرها، وهو في هذا الانهماك يدخل رفيق وهو يمسك بعكازه "مسعودة" خلف ظهره بتؤدة، مرحا ينظر من خلف الرجل إلى الرصاص، ثم يقترب ويأخذ جزءا منه ليقرأه تحت المصباح الموجود قرب الطاولة، فجأة يغضب وبعنف يدفع بالرصاص المجموع على الأرض ويقف غضبا ينفث].

عبدالله الجهمي: يا أستاذ راك اتفركس في شغلي.

أحمد رفيق المهدوي: (بغضب) هم ايفركسوا في شعري وأنت يا عبد الله الجهمي تجمع في ....

عبدالله الجهمي: أنا نجمع في المجلة كلها من الصفحة الأولى لآخر صفحة، وأنت مش أول مرة اتفركس شغلي ....

أحمد رفيق: (يصرخ) ولا آخر مرة، اسمع ياجهمي أنا قلت يا تنزل القصيدة كلها يا لا (بقوة) يالا فاهم يا عبدالله ... فاهم ياسي الـ

[تندفع طفلة نحو المكان دون انتباه الرجلين فيتوقف رفيق عن إكمال جملته، وحين تندفع الطفلة على المكان نشاهد صورة خديجة الجمهي على الشاشة]

الطفلة: (وهي مندفعة وبيدها كراس مدرسي)

باتي، باتي، باتي نبي عمي الشاعر يقرا لي الدرس الجديد ...

[حين يدرك أحمد رفيق تواجد الطفلة خديجة الجمهي، لابد أنه سيداري غضبه بالاندفاع للشارع، ولما كان الوقت ليلا فلا بد أنه سيذهب حيث اعتاد أن يقضي ليلة، مع ثلة الأصدقاء، كما يمكن تصوره في المشهد التالي:

المكان "مقهى الشاطئ"، حيث تتحلق ثلة من الأصدقاء في جلسة صاخبة عابثة، حوار وأصوات عالية يتخللها الضحك والمرح، النادل يقوم بخدمة الجماعة دون طلبهم].

امحمد كنوش: (يقفز ويقوم بحركة فص قوي) في الجخ في الجخ، تحلم الدجاجة. سي محمد الفيتوري طبيب، دكتور فوق العين

والرأس لكن يفتي في الشعر، واجد واجد، (يلعب بحاجبيه لإزعاج الدكتور) واجد راجنك ...

محمد الفيتوري: (ساخرا) علاش، الشعر فتواه عندك يا سي محمد ياكنوش (بصوت عالٍ) محمد كنوش لشؤون الشعر ليمتد.

عيسي بن عامر: (مقاطعا) ومن صدق الأخيار داووا سقامه بصحة آراء ويمن مناقب

محمد الفيتوري: قول ياكنوش علاش تحوس، آهي غابت وجابها الشيخ عيسى.

محمد كنوش: الشيخ بن عامر يا دكتور دائما وأبدا يعترفله الأستاذ بامتياز التخصص في علم الفرائض.

عيسى بن عامر: لا محمد لا عيسى عندهم في الشعر..

محمد الفيتوري: ولا الشيخ ولا الدكتور امفات الكنوش

محمد كنوش: وكانت عصا موسى لفرعون آية

ونحن على الأبواب نقصي ونحجب

تطاع فلا تعصى ويحذر أمرها

ويرغب في المرضاة منها ويرهب

[يدخل القاضي موسى البرعصي ومن بعيد وهو مقبل يتكلم]

موسى البر عصي: هذى عصا الأستاذ، مسعودة

محمد الفيتوري: إذا حضر القاضي موسى البر عصى بطل

موسى البر عصى: بطل الطب يا فيتوري، تستور يافيتوري (يجلس) أنتم لازم مختلفين على مقال رفيق اللي طلع اليوم في العدد الجديد من المجلة مش هكي.

محمد كنوش: وعلى أيدك انحجوا يا قاضي موسى

عيسى بن عامر: انخشو للقفص على ايد البرعصي مش انحجو.

موسى البرعصي: سئمت أنفسنا حتى متى

نعبد الشعر على حرف الرياء

نال منا للقوافي قفص

كلنا فيه شبيه الببغاء

قادة التجديد لم يبدوا لنا

مثلا يرضونه للاقتداء

محمد الفيتوري: (لكنوش) مش قلت لك. (يخرج مجلة ليبيا المصورة من جيبه ويأخذ في القراءة) وسأبين رأى والحق أقول إني وجل من أن أقدم عليه، ولكن لا أرى بدا من عرضه على الجمهور طالبا منهم الرأي في الموضوع، وليحسبوني محاولا الوصول إلى غاية لا أدعي أني

فرغت منها..

عيسى بن عامر: (بغضب مقاطعا) وأنت شن قلت يا دكتور، امغير تقرا في المقال ....

محمد كنوش: [يخطف المجلة ويقرأ بتهكم] أليس من الجمود ألا نخرج عن حروف التقطيع التي جمعتها جملة "لمعت سيوفنا" وأن نظل مربوطين في أوتاد مفروقة أو مجموعة وأسباب وفواصل لا تنفصل عن قولهم "لم أر على ظهر جبل سمكة" حتى يعيش السمك على ظهر الجبال....

(يحدث لغط واحتجاجات وضحك صاخب)

قالك ظهر جمل عليه الحوت

الحوت عليك يافيتوري

وعليك

صلى عليك الحوت ياكنوشي

هضا

الحوت في سوق الحوت...

موسى البرعصي: محكمة! [الجميع يسكت] هيا يا جماعة نمشو للأستاذ وغادي ساهل.

محمد الفيتوري: توه عنده درس خديجة بنت الجهمي.

محمد كنوش: لا، لا، توه في جليانة عا لشطيطة.

(الجميع يهم بالخروج حينه يدخل رفيق وهو يردد وينغم قصيدة "أدهى من الشيطان" وكأنهم سكارى)

أحمد رفيق: الشيخ موسى البرعصي / نعم الوكيل والوصى / يقضي على الخصم، / بلا ريث، ولا تربص / بالشرع، والقانون، / أو بحيلة، ومخلص / إذا أتى لحاجة / لا يمشي إلا بالعصى / وإنه أزكى، من /إياس، في التخلص / وشاعر، مبرز، / مثل عبيد الأبرص / لكنه، لخلسه / ليس بواف مخلص / يحل لي هجاؤه / لهجره المنغص / فأنت يا ثلج الشتا، / ويا فساء الحمص / افتح لنا، عينيك كا / لطماطم "المعفص" / واذكر عهودا سلفت / "لا تنسنا يا بو العصى".

وإن غصت في لجة الميدان فإن ما خالج نفسي من تصدع المبنى صدني عن توثبي للولوج في مبنى البلدية، هنا في يمينه الساعة الميتة، تابوتها صومعة عالية تخترق كبد السماء ليرقد المبنى في دوريه تحتها، ثمة مقدمة كثيرا ما عدت مسرحاً لخطب من تزعم، وفي أركانه أصداء الدوتشي وشعارات الفاشسيت ووقع أحذية عساكرهم، في المدخل باب ضخم اقتاته السوس، وفيما مضى يفتح على مصراعيه ليتسع صدر الزعيم، بين هذا الباب وبين الباب الصغير في الشمال، ثمة زقاق البلدية خاتمته البحر يموج بمخاطيره، يسفح

دمه فيكون الزقاق بوق تلاطم الموج وسد الشاطئ وتوجعه. على يمين المبنى جنان صغير طال عمره ومنه كان يطل الزعيم كما يحب أن يسمى، رجل سرح عن عقله وعقل النفس بالجنون كملاذ أخير في مواجهة صعاب الحياة. يخرج من مكمنه كل صباح ليلقى خطبة اليوم في الشأن العام، ثم يعود إلى مخدعه هاربا من أي شيء وحتى من لا شيء، مشغولا بالبحث عن جبانة تمنح قبرا لـ "عقارب الميدان الميتة"، كذلك كلّ عقله البحث عن جاليري وحيد يضم بورتريهاته التي رسمت ذاكرته المضيعة.

## بورتريه إبراهيم الكوني.

لم يكن إبراهيم الكوني مطمئن البال، في حالته يكون المرء متلبس البلبلة، لقد دفن منذ ساعات، صديقه الصادق النيهوم. لم أكن في حال الكوني، شدني أنه أعرج مثل إدريس المسماري الذي كنا جالسين في بيته وأن بينهما مشترك جم يدلل على الاختلاف أكثر منه على التوافق. هكذا وجدت في حينها أن اجتماعنا حول الموت ما فيه من اجتماع هو لتبديد اللحظة، وأن الوجوم الحاصل من أثر ذلك والبلبلة المتلبسة صاحبنا من اقتنصنا مجيئه لتوديع جثمان صديقه وتسليمه للتراب ودوده في مسقط رأسه، أن هذا مدعاة لتأمل وجه إبراهيم الكوني من ينكفيا شارباه لأسفل باعتباريهما ثقلا لا يحتمل، فمن جهة يذكر بآخر غير محسوس معناه في اللحظة هو جوركي الكاتب الروسي الذي درس إبراهيم في معهد بموسكو يحمل اسمه، من ناحية ثانية فإن الشاربين يجعلا، الرجل غريبا رغم أن اللحظة مزوقة بالحميمية. الشاربان والعرج وطول القامة هذا جعل الكوني كقرطاس ككاغد وهو لا يهمد ولا يكل من حركة، نمل باحث عن شيء غير موجود أو غير مرئي وهذه حالة لحظتها باعثة للقلق.

كنا في صالة الشقة، في حي الكيش، في بنغازي، لكن المكان لم يكن له أي اعتبار عندها، حتى الزمن رغم أني لاحظت كثرة ما استرق الكوني النظر للساعة، بالتالي لم يكن متأملا للحظة ولا في حالة انشداه. هل هذا يمكن تأويله أنه في كتابة دائمة تقصي محيطه وتكون حالته واحدة رغم تعدد مظاهرها، ديمومة الكتابة دون تبصر لغيرها. ما الذي يدعوه إذا لقطع هذه المسافات صحبة جثة ستوارى التراب في مدينة بنغازي قادمة من جنيف حيث انطفأت الروح؟ لم أجب وحتى لم أبحث عن إجابة. لم ننخرط في نقاش أو حديث كان كل شيء متقطعا، الحقيقة أن الميت كاتب كبير ويعني لكل منا معنىً خاصا، لكن أيضا الالتقاء- للمرة الأولى وقد يكون الأخيرة في بنغازي- جعله إبراهيم الكوني لا باعتباره الكاتب ولا الصديق أكثر غموضا وجعلنا في لحظة عاطفية مشتبكة.

لم يبد الرجل ابن الصحراء ونحن أبناء مدنها، كأنه مقرور، كأنه كائن شمالي ينكفي على جسده بحثا عن الدفء، فهل كتابته المحمومة عن الصحراء بدافع هذا البحث، وقد تصير شماليا في العظام أكثر من أنه ابنها أصلا كطارقي ولد وعاش الجزء الأول من عمره في الصحراء الليبية. وحتى إن شف تصوفه عن لا رغبة في الطعام فإن ذلك الجانب المادي الظاهر لم يغط كينونة أوربية تتلبس الروح التي تتغطى بالقليل من اللحم وبعظام ناتئة.

لم يكن إبراهيم الكوني ساعتها في بنغازي وإن كان بالقوة

فـيها فهـو فعـلا لم يكـن معـنـا، لـيس ذلـك لأنـه تائـه عـن المكـان ومحسوساته وحسب بل في وجوده ذاك لم يكن موجودا.

تأملته وتسألت دون تفكير ولا تأمل: هل لوجوده في جبال الألب السويسرية، فترة طويلة قبلها في موسكو ووارسو، مدعاة لهذا الصقيع الذي ينتابني؟. ساح فينا دون أن يحسنا، باحثا عن لا شيء، لم تلتق العيون لأن عيونه تنظر لداخله وككائن بسيط بدأ أنه ملأ المكان بملامح حادة ونظرة ثاقبة كنقار الخشب، وتقتير متعسف للكلام، هذا ابن الثقافة الشفهية أكل القلم لسانه فلم يعد يلوك الهواء ولا يستسيغه: هكذا يمكن أن يخطر في بالكم، لكن ذلك لم يكن في البال.

استعار لأجل صديقه النيهوم بعيض كلمات وشد على أهمية الرجل، كأن ذلك حمل ثقيل، لقد انغرس في الكرسي إلى أن بات الكائن الخفي المتجلي كمتصوت لروح القرين الذي يتحدث عنه. درب النفس على الحضور في الغياب، قد تكون علقت اللحظة أو قارئ ما بذلك. حدة تضاريس جسده وملامح وجهه تحيل على الودان الذي يتشابه حد الانمحاء، فكرت في ذلك ساعة تبدد كل شيء، حينها لم يمكن لي حتى الإمساك بهذه. في الهنيهات أعاد ترتيب جسده مرات عدة، كأن الروح في غير وئام مع الجسد الذي جعلاه الرجلان الطويلان كنخلة طاولها جفاف طال، كان ذلك في جلسته في كرسيه ذاك حيث طلع كنبتة صحراوية تراها جلية وإن صغرت، بشرته النحاسية الخامدة لم تكن تعكس ضوء الوناسة المنزوية في

الركن خلفه لكنها عكست صوت روح متبرمة، لحظتها على الأقل لم يكن من المنصتين. من ملاحظاتي أن الطارقي إن تكلم غمغم، ليلتها تكلم إبراهيم قليلا لكنه غمغم أكثر، حتى حين حدثته عن الجبل الأخضر وضرورة زيارته وافقني بنفس الطريقة ودون اكتراث. وأن تكون سحنته تحمصت بالشمس فإن جوانيته تحمصت بالصحراء: بالرمل والثلج، ومما زاد عتمته شح الضوء في صالة البيت، لهذا تنخ في المكان لكن جسده كان يسعى وبه توق للفكاك.

حارت سيدة البيت أم العز وارتبكت فلم تتحقق مما يريح الضيف، انشغلت عنها باعتبار أن الضيف ليس ممن يبحثون عن الراحة، قلت في نفسي من جبال أكاكوس لجبال الألب أي ودان هذا، متذكرا أن ودان روايات الكوني تنسك في جبل أحد، غير هذا فلابد أن في جوانيته الصحراء أنبتت ترفاسا يقتاته. في هذا الانشغال أخذت أقلب روايات التبر ونزيف الحجر والمجوس، أنهكتني متابعة شغل الكوني، عدت إليه فلم أجده، على رأس الجبل ثمة عمامة زرقاء لكن رأس الجبل رغم ذاك يبان أصلع.

# بورتريه لتوينبي

قلبت الصفحة شاهدت من بعيد المؤرخ الإنجليزي الشهير أرنولد توينبي خارجا من مدرج أحمد رفيق المهدوي، كأنه مل الجلسات المطولة لمؤتمر تاريخ ليبيا القديم؛ خاصة بعد أن ألقى محاضرته وارتاح، انحرف باتجاه البحر عند الكورنيش تنسم الهواء الرطب فارتخت مشيته، جال في المكان وكأنه يصيخ السمع لطائرات بلادة وهي تدك ميناء المدينة، تفطن للبحر وأخذ يرسم بورتريه مدينة ناهضة عن كثب من تحت ركام غزاة تبادلوها في مطاحنات ومشاحنات وغارات لا تعد، هذا جعله يقول لنفسه: ما أقل الحكمة التي تسير هذا العالم. شرع يخط لوحته التي سيهديها لزوجته من هنا: في بنغازي يغدو منظر البحر مبهجا، فالبحر المتوسط المشهور بزرقة مياهه ليس أشد منه زرقة في هذا المكان. وبالمقابلة يكون منظر البر متشابها وكئيبا، فالأرض الأفضل من شبه صحراوية، تنتشر فيها مع الأسف بحيرات مالحة قرب الشاطئ. إنها أرض مستوية من الرسوبات الجيرية التي لم تستبدل، حتى الآن، بأية بديلات من قشرة الأرض. والغطاء الطبيعي للسهب الجاف نثار من الأجمات اليابسة التي تتربى عليها أغنام تغدو سمينة بصورة مدهشة، وتكون

أصوافها جيدة. ولا يتقبل هذا السهب غير المعشب زراعة الأشجار، وإن كان يمكن زراعة أشجار اليوكالبتس والزيتون فيه. ويمتد البصر عبر السهب البراح إلى الداخل حتى يصطدم بأفق شمالي شرقي يحده خط أزرق باهت، وهذا الخط خداع وجذاب: إنه حافة الجبل الأخضر، وكلما طال بقاء المرء في بنغازي تزايدت رغبته في أن ينهض ويذهب إليه.

لما كنا نطير من القاهرة إلى بنغازي نهارا، فقد أملت أن أحرز نظرة عجلى من السماء ألقيها على الجبل الأخضر في طريقنا إليه. لكنه كما يحدث كثيرا في السفر بالطائرة، فإن روح الفضول تندحر أمام الغيوم. ومن خلال تقطع السحب، لمحت، لثانيتين لا أكثر، ميناء طبرق، وهي واحدة من المدن التي استحر القتال فيها في الحرب العالمية الثانية وتبادلتها الأيدي، كل ذلك لاعتبارها غنيمة استراتيجية هامة. ثم أن السحب حجبت الجبل الأخضر، ولم يكفها هذا الشر، بل عاكستنا إلى درجة أنها جعلت هبوطنا في مطار بنغازي متعذرا آنذاك.

وبنغازي- برنيقة Berencie، يوهسبير يدس Euhesperides - هي آخر المستعمرات الإغريقية إلى الغرب التي شكلت ما يسمى المدن الخمسة في برقة، ومنها توكرة Tokra- توشيريا Taucheria وهي جارتها الأقرب من جهة الشرق، فإن بنغازي تقوم على الساحل وفي أرض منبسطة شبه صحراوية. ولربما تم إنشاء يوهسبيريدس

وتوشيريا لشراء الحيوانات الحية والجلود والصوف المتوفرة لدى الليبيين الرعويين في السهب ثم شحنها. وفي كلتا المدينتين الإغريقيتين، كان الإغريق متخلين عن طبيعتهم المحلية في ديارهم. وكذلك أيضا كانوا في طلميتة Ptolemais منفذ برقة البحري وفي أبولونيا Apollonia، مع أن كلا من طلميثة وأبولونيا لا تقع خلفهما الصحراء التي على مستوى البحر، وإنما النجود المواجهة شمالا، أي الجبل الأخضر، وكانت شحات وبرقة وهما المدينتان الكبريان بين مدن برقة الخمس قد جعلتا في الداخل لا على الشاطئ، وعلى المرتفعات لا على مستوى البحر كما لم تقاما في نقاط تناسب التجارة بصورة خاصة، وإنما في مواقع توفر لسكانها التمتع بوجود أراض فلاحية خصبة ومراعي ممرعة قريبة.

جال فكره في كل هذا وهو في مطرحه على البحر الذي بني كورنيشه الإيطاليون، غير من قعدته، في مخياله أنه محاصر في جزيرة حيث من الضرورة لجزيرة ما أن تكون منفصلة عن غيرها تماما حتى يمكن اعتبارها جزيرة حقا. وقد حول الردم الذي قام به الاسكندر الكبير أثناء حصاره صور جزيرتها إلى شبة جزيرة. لكن الوسط الفاصل، أو الشقة العازلة إذا شئت، لا يتحتم أن يكون هو الماء، فالصحراء القاحلة تصلح بديلا من ذلك، والواقع أن كل واحة لهي جزيرة، لكن الماء في داخلها عوض عن كونه حولها. كذلك يمكن أن تكون الجزيرة مفصولة بالماء من جانب وبالصحراء من جانب آخر،

وهذه طبيعة جزيرتين اثنتين يحوطهما ماء البحر الأبيض المتوسط وحجارة ورمال الصحراء الليبية والصحراء الكبرى. وليست الأكثر بعدا إلى الشرق من هاتين الجزيرتين جبل برقة الأخضر إلا نسخة طبق الأصل، لكنها أقصر، من جارتها الشمالية جزيرة كريت. أما تلك الأكثر بعدا إلى الغرب من الاثنتين والمعرفة في اللغة العربية باسم المغرب، أي غرب العالم العربي- فهي نسخة طبق الأصل، لكنها أطول، من جارتها الشرقية صقلية.

إن الاتصال أو العزل نسبي. فلبلوغ أي منها لتلك الجزيرتين من جهة الشمال، يجب أن تركب البحر، ولوصول أحدهما من الجنوب يتوجب أن عليك تصطنع الجمل ركوبة لك. لكن الصحراء، مثلها مثل البحر، تغدو سبيلا لأي إنسان يحسن استعمال الوسيلة المحلية المناسبة للاتصال، فعلى مساق التاريخ تم غزو كل من الجزيرتين بنجاح، كما تسنى احتلالها عن كلا الطريقين.

خذ، خذ الألف الأول قبل التاريخ مثلا، أثناءه استعمر جبل برقة الأخضر من البحر على يدي الإغريق الوافدين من بحر إيجه، بينما استعمرت سواحل المغرب البحرية، في نفس الوقت تقريبا، من قبل الكنعانيين الوافدين من الموانئ الفينيقية على طول ما هو معروف الآن باسم الجمهورية اللبنانية. وفيما تلا ذلك استحوذ الرومان على كل من الجزيرة الخضراء والجزيرة الكنعانية ضمن إمبراطوريتهم التي أحاطت بالبحر المتوسط من جميع أطرافه، ومن

بعد أولئك، فتح العرب المسلمون في القرن السابع من الفترة المسيحية تينك الجزيرتين الرومانيتين آنئذ، عن طريق البر.

عاد يقول لنفسه: ما أقل الحكمة التي تسير هذا العالم. شرع يخط لوحته التي سيهديها لزوجته قبالته البحر وخلفه جزيرة نفسه التي نسجها من خيوط فكره، متأملا الحالة متمنيا في خالجته لو أنه روائي، لتمكن أن يعيد نسج الحكايا، أن يؤلف أساطيره مثلما جاءت شعوب وقبائل وخاطت من خيوط الزمن أساطيرها، ومثلما جاءت الموجة الأولى من العرب الفاتحين على ظهور الجمال لا سطوح المراكب، غير أن قادتهم لم يكونوا من أهل البادية، بل مدنيين من أهل الحواضر التجار في الدولتين المدينتين العربيتين: مكة والمدينة. لذا قدروا حسنات عيش الاستقرار والحياة المدنية، فصانوا الحقول والضياع التي خلفها لهم سابقوهم الإغريق والكنعانيون والرومان وزادوا في ازدهارها.

لم ينتبه لبدوي مر عليه في مجلسه صائحا: السلام عليكم، فاسترسل نسيج مخياله، كانت الموجة الثانية من الفاتحين العرب هي التي صفت إنجازات ستة عشر قرنا من الحضارة في كلتا الجزيرتين الأفريقيتين غرب مصر. وكان الغزاة هذه المرة مسلمين من حيث الاسم أيضا، لكنهم في الحقيقة وثنيون، وفي الواقع برابرة لا قادة لهم كي يكبحوا جماح نزعاتهم التخريبية. لقد خرب بنو هلال المغرب، وخرب بنو سليم جبل برقة الأخضر، وقلبوا حقوله وبساتينه

إلى المـراعي الصـيفية الـتـي كـان الليبـيون الـبدو قـد حولـوا الجـبل الأخضـر إليها قبل وصول الإغريق. ومنذ القرن الحادي عشر من الفترة المسيحية عانت كل من برقة والمغرب خسوفا ثقافيا كاملا. أما بداية عهـد يقظـتهما الحديـثة فتـبزغ في القـرن التـاسـع عشـر. وفي بـرقة في الوقت الحاضر، يرى المرء أحفـاد بنـي سليم هؤلاء ينتقلون مـن طور الرعاية إلى عصر البترول مباشرة.

وإن لم يقطع البدوي المـار من جانبه تأملاته فإن الحشد الذي أقـبل علـيه اسـتطاع ذلـك، فجمـع مـن أسـاتذة الجـامعـة والمسؤولين انطلق يبحث عنه، حتـى وجده غارقـا في بنغازي، حيث يغدو منظر البحر مبهجا، فالبحر المتوسط المشهور بزرقة مياهه ليس أشد منه زرقة في هذا المكان.

## بورتريه وهبي البوري!

مساء أتمشى من بيتي بحي البركة مخترقا شارع العشاق، حيث الشارع يندس بين شجر السرو ما زرع الإيطاليون واقتلعنا عند الفويهات في اتجاه "البوسكو" حديقة الحيوانات في مدينة بنغازي، شاهدت عن بعد رجلاً يسند عصاه ويتلحفه بالطو سميك من الصوف، في جو بارد يتمشى هذا الرجل في أواخر السنة حيث يدثر الشتاء المدينة بمعطفه الكثيف.

عرفت الرجل وعرفت أن معطفه يتلحف قرنا من الزمان إلا سنوات خمس، مشدود القامة مربوعها ومن المعطف تنبثق رقبة قصيرة ورأس كطير على كتفين، هذا الرأس مثقل بحمل الكتفين، قصرت الخطى كنت أتأمل قرنا يمشي في مبتدأ قرن آخر في ألفية ثالثة. كان يتقدمني في المكان والزمان ولكن بتريث، يستنشق الأكسجين بتؤدة حكيم وينساب في الشارع جاسا الأرض متحسسا نبضها: ولدت عند مطلع القرن العشريني العجول حيث كل عشريني عجول. خلته يخالج المحيط الساكن عنه في عشية رمضانية، في ذلك المطلع، تلفت، هو يغرس القدم الأمامية بين شجرتي سرو

معمرتين، يصعد الرصيف المحشور بينهما آخذا نفسا من هواء طرى بعثه حفيف الورق السروي، فتح قوسا بين زفير وشهيق: (كل مطلع صعب، كل جبل مأوى، أليس الجبل مطمح الإنسان منذ أيام ابن سيدنا نوح؟ الجبل أولمب مطرح اللآلهة وكل مصعد مغالبة، والفوق غامض كما السماء، وإن كان مطلع الإنسان لتحت فإن مطمح هذا الطلوع الفوق)، في ذلك المطلع ولدت في العقد الأول من القرن العشريني حيث كان كل شيء ولد، لم يكن قرنا كان دهرا وفيه خيلاً الإنسان خيلته أن الله مات وأن ابن الله قد تبوأ مكانته.

في السنة التالية من العقد الأول من القرن العشرين تنبهنا للقرن على أصوات المدافع، كما لو حان وقت إفطار رمضان والمدفعي ينبهنا للانعتاق من جوع، كأن الغرب أراد إيقاظنا من سبات فالمدفع مصدره البحر، والبحر محيط شبه الجزيرة الليبية بنغازي، ومصبه بحر نيران يشق المدينة من وسطها إلى البركة فالفويهات، البدو يرجبون على أفواه المدينة فيصغرونها، في مرجل النيران هذا ترعرعت وعلى إيقاعه الإيطالي تكونت.

قبالته وصلت دون أن ينتبه تسللت: الدم يكاد ينبثق عن الوجه، البياض يلفع الرأس الحاسر أما التجاعيد فهي أخاديد الزمن المتوردة وبينها عيون نمر ثاقبة، بنية فاتحة، طلعته فيها من الشمال ما فيها وفيها من كريت ما فيها وفيها من مهاجر البحر الأبيض، فيها المتوسط من كل شيء فكأنه أخذ من كوية الملح الاسم القديم

لبنغازي البياض والنعومة الخشنة وصلابة النعومة الذائبة. نظرته كالملح حاذقة وفيها لمعانه، كأن الضوء ينبثق منها على عكس كل عين، وهو مشرئب دائما، فيه جفلة الغزال المتريث أبدا، فيه ركون الصحراء وبساطها.

خيم أزيز الرصاص على المدينة وأشعل المدفع ليلها وأظلم نهارها حتى أن منارة سيدي خريبيش التي كانت تشي بالمدينة لكل سفين لم يعد لوشايتها نابه، كأنها غدت توشوش في جرة، ومن بين هذا وهذا تسللت عوائل تنشد السلامة مشرقة ومغربة وحط آل البوري في الإسكندرية حيث وهبي سيستنير من مناراتها ومدارسها، أو كما فعل شاعر الوطن أحمد رفيق المهدوي. في الإسكندرية محطة العلم ولم الشمل للشامي والبغدادي، لليبي المطرود بنار بارود الغرب ولليوناني المطرود من نار العثماني كما الأرمني، والإيطالي الهارب من جوع وخوف وكذا بيرم التونسي، وفي مدرسة فيكتوريا منتدى لكل مقتدر.

عاد المهاجر بعد أن دكت إيطاليا البلاد وأسرت العباد، وإن كان عمر المختار مازال في غيه متمردا وثائرا عرينه الجبل الأخضر، له حكومة الليل ولغرسياني والطليان حكومة النهار، كان ذلك في العقد الثاني من القرن العشرين. في عجيج بنغازي وغبار تلك الأيام طوح المهاجر العائد نفسه، وبين مقاهي الشاطيء وميدان البلدية وجد للنفس مطرحا ومراحا، كان الصغير فيهم: أحمد رفيق، موسى البرعصي، محمد الفيتوري، فخري المحيشي صاحب ليبيا المصورة

رجل التعليم الشريف الماقني ... ثلة من مثقفين العصر المتشيعين للنهضة، المتعصرين المتعصبين وبينهم مشترك عزيز هو الاختلاف. منهم من لفه لفيف جماعة الديوان ومن تشيع لجبران ومن شده شوقي ومنهم بين بين. لكن لوهبي البوري غربال ينخل به ويستزيد، فإذا كانت اللغة منزلة الوجود فإن منزلة وهبي البوري- كما زميله الصحفي مصطفى السراج- إيطالية اللسان، دانتي المشرب، نهضوي الوجدان والعقل ممزق بين البين.

و ب: كان الأدباء الذين مارسوا الكتابة في الثلاثينيات يحاولون إرضاء ميولهم الأدبية أولا ثم خلق أدب عربي يشير إليه المواطن الليبي ويربطه بثراته وماضيه. ولم يكن مستوى وكمية النتاج آنذاك بالقدر الذي يخلق مراجعة نقدية ... كانت علاقتي بالثقافة العربية تقتصر على قراءة ما كان يصلنا من كتب ومجلات. وقرأت لعمالقة الأدب آنذاك كالمازني ومحمد حسين هيكل ومحمود تيمور والزيات وغيرهم. أما علاقتي بالثقافة الإيطالية فقد تكونت من خلال دراستي في إيطاليا حيث كنت على صلة بمجلة الشرق الحديث وبمحرريها من كبار المستشرقين الإيطاليين.

وكنت نشأت في بلد يحتله عدو غاشم صمم على تحويله إلى أرض إيطالية مسيحية، وتحويل شعبه إلى مواطن من الدرجة الثانية بدون هوية ولا حقوق ولا ماض. وفي سبيل هذه الغاية حرمت إيطاليا على الليبيين تعلم لغتهم وآدابهم إلا في حدود

التعليم الابتدائي كي تخلق أجيالا جاهلة ومتخلفة وراضية بتبعيتها لمغتصب أرضها وحريتها.

طل العقد الثالث من القرن العشرين، وكان ملبس وهبي وجماعته البدلة الأفرنجية، حاسر الرأس، كما شوارع بنغازي تعمرت ببنيان من طرز إيطالية وقد تكهرب قلبها، مدت الخيوط على الخيوط، امتدت أنابيب في شرايينها كي يروي العطش الأبدي لمدينة السباخ، كما ضمت مدارس بعض صبيانها ليحترفوا مهنة جدت، أو يفكوا خط لغتهم ولغة غربية يرطن بها الشارع وتقضي مصالح. لم يطل العقد الثالث من القرن العشرين إلا وميدان البلدية قد أعيد بنيانه بالعمائر التي تحتها مظلات مقوسة، تطل منها محلات ومقاه، والنخيل يحوط مدرس سيارات الحكومة والحزب الفاشي، يتوسط ذلك مبنى البلدية، سوق الظلام الذي مدخله مطل على الميدان جدد وشع نوره. لم يطل ذلك العقد إلا ورجل مهيب وشيخ في العقد السابع مسربل بالسلاسل يتلحف لباسا عربيا، جرد وقميص وسروال بيض والوجه يتلحف لحية بيضاء والرأس معزقة بيضاء، جر في شوارع المدينة الكسيفة، خسف الزمن الأمل وأسر المختار، خيم صمت على بني غازي وتاه شاب في تلك الخيمة.

طل العقد الثالث من القرن العشرين، وكان ملبس وهبي وجماعته البدلة الإفرنجية حاسر الرأس، يلحف الأصابع بقلم، يجوب الشوارع، يلتقط صورة المدينة.

كنت أعطي الظهر للبحر، عند نهاية شارع البركة ما يمكن اعتباره لسان شارع جمال عبدالناصر أطول شارع لوسط المدينة، في نهاية شارع السرو الذي كان جانبه معسكر إنجليزي من محصلة الحرب الثانية ونهاية السرو ممشى وهبي البوري حيث بيته في الزاوية على مطل الشارع الذي كناه رواده بشارع دبي!، حيث كدت أخبل وحدته ومتأمله تسألت كيف تسنى للدماثة أن تلتقي شراسة موسوليني؟ دخل عليه في مقصرة بروما كمترجم للوفد العربي من جاءوا لمقابلته: رئيس الوفد شيخ فلسطين أمين الحسيني، المتمرد على الإنجليز قائد الانقلاب الفاشل في عراق الثلاثينات الكيلاني وعند هتلر في برلين رافق الوفد ثم حاصرته الحرب، في هذه الحصرة لم ينقذه من الجوع إلا عبث كبير العابثين يونس بحري العراقي الذي رددت إذاعة برلين فصاحته العربية وهي تتلوا النازية كبيان خلاص، كان لبحري عشيقة برلينية وللعشيقة زوج وللزوج مطعم وللمطعم رواد نازيون قح، للرواد كل زاد طيب شح في زمن الحرب هناك، لهذا أمنهم البحري من جوع وإن لم يأمنوا من خوف، وهناك سيلتقي رواد الرواية العربية السوري شكيب الجابري والفلسطيني جمال الحسيني والقصة وهبي البوري.

و ب: تحدى الليبيون هذه السياسة الإيطالية الظالمة، وأقبلوا على تعلم لغتهم وآدابهم وتاريخهم بمساعدة من سبقهم من العلماء والمثقفين، وساهمت المطبوعات المصرية والإيطالية في تغذية هذه

الحركة التي أفرزت في الثلاثينات شعراء وأدباء وكتابا، وجدوا في الصحف القليلة التي كانت تصدر آنذاك، المجال لنشر بعض نتاجهم الفكري. وقمت في هذه الفترة بترجمة بعض القصص عن الإيطالية ونشرها في مجلة ليبيا المصورة ثم تشجعت وكتبت أول قصة ليبية نابعة من الواقع والمحيط الليبي ونشرتها في ليبيا المصورة. ثم واصلت نشر قصة في كل عدد تقريبا على مدى ثلاث سنوات، غادرت بعدها البلاد للدراسة وتوقفت ليبيا المصورة عن الصدور وتوقفت أنا أيضا عن كتابة القصة. وقوبلت قصصي في أول الأمر بمزيد من الاستحسان والتحفظ. وكنت شخصيا أشعر بالحرج لأنني كنت لا أريد أحيانا أن أوقعها باسمي لهذا وقعتها بالأحرف الأولى وأحيانا أخرى بدون توقيع، ولاح لي في بعض الوقت أن قصصي لا تعبر عن مجتمعنا وأخلاقياته.

تقنع وترمز بهذين الحرفين و ب كي يكتب في مجلة ليبيا المصورة التي أصدرها فخري المحيشي وجلب مطبعة خاصة بها، في سوق الجريد وضعت المطبعة في بيت المحيشي حيث يسكن أحمد رفيق باعتباره صهره. شاب متفرنج يردفه مصور متجول في ميدان سوق الحوت، أخرج من جيبه مفكرة في يده قلم، بين مستغرب وجاهل لما يفعل الشاب كان رواد السوق، منهم من عرف أن هذا الشاب ولد البوري ومنهم من ظنه نصراني لكن لهجته ريبت ظنونه، علق أحدهم أن هذا شباب آخر الزمان يفعلون كل بدعة وضلال!.

سأل هذا وذاك عما يتميز به الشهر المبارك في هذه المدينة:

كتـب و ب التحقيـق الصـحفي ونشـر ممـا نشر تحقـيق "رمضـان في بـنغازي"، أعـد الكـلمات المـتقاطعة وكانـت تنشـر لـلمرة الأولى في الصحافة العربية. كـان مـن المناهضين النهضويين، لخص مما تـرجم عـن النهضـة الإيطالـية حـين كـان في نفـس الوقـت أحـد السـوريين المقيمين في البلاد يترجم لأول مرة إلى اللغة العربية: الكوميديا الإلهية لدانتـي، وكمـا تـرجم القصص الإيطالية مثل بيرنديللو كتب القصة القصـيرة. لكـن العقـد الثالـث مـن القـرن العشـرين تلـبد في نهاياتـه وخلطت أمـوره وتعقـدت شؤون العـالم حتـى لم يعد مطراح، ضاق كل شيء علـى كـل شيء، ضـاقت الـبلاد عـن أهـلها: رحيلي عنك عز على جـدا / وداعـا أيهـا الوطـن المفـدي / وداع مفـارق بالـرغم شـاءت / لـه الأقدار نيل عيش كدا / وخير من رفـاه العيش كد / إذا أنـا عشت حرا مستبدا / سأرحل، عنك، يا وطنـي، وأني / لأعلم، أننـي قد جئت إدا. كانـت إدا عـلى رفـيق فـيما توفـر وهـبي عـلى وظـيفة في القنصـلية الإيطالية بطنجة لم يطل المقام حتـى تركته طنجة لروما غب الحرب، في إذاعـة رومـا العربية كـان المحـرر والمذيع والمترجم والتلميذ في الآداب واللغة الإيطالية.

و ب: في فـترة الثلاثيـنات عـندما بـدأت أهـتم بالقصـة وأحـاول كتابتها، نشـرت أول قصـة في مجلـة "ليبيـا المصورة" وكـان أحمد رفيق المهدوي هـو الـذي شـجعنـي عـلى نشـرها. هـذا شـجعنـي عـلى مواصلة الكـتابة. وأنـا أعتـبره أسـتـاذا أو مدرسـة للشـبـاب الـذيـن عشـقوا الأدب

والفكر في ذلك الوقت، والذين كانت الظروف السياسية المحيطة بهم لا تتيح لهم فرصا كثيرة لأن ينموا مواهبهم، فكانت هذه المدرسة، مدرسة أحمد رفيق هي التي يأتي إليها الشباب ويتعلمون فيها دروسا في الشعر والأدب والوطنية ... أحمد رفيق هو الذي أخذ مني أول قصة كتبتها وأعطاها لمجلة "ليبيا المصورة" لتنشرها.

غربلت طائرات الحلفاء سماء بنغازي، وكما خرطها غرسياني مندحرا شققت بنيانها هرولة الألمان، استعادها المحور لكن مونتجمري تأسد على ثعلب الصحراء وانتزع بنغازي وهي في الرمق ما بعد الأخير. انحسر كل غطاء عن روما التي غدت مدينة مفتوحة ولم يعد ثمة ملاذ لوهبي البوري لكن إن كان لرجل امرأة من البلاد ثمة ملاذ، وكانت ثمة امرأة والدها كابنييري، ضابط البوليس وفر للرجل الذي قد تأسره قوات الحلفاء إمكانية الفرار من نتائج الحرب، بعد غداء طيب ووداع أطيب من المرأة وضع البوري على باخرة هدفها الصومال وتمر طبعا بالسويس، دون أوراق ودون علم أحد فما بالك القبطان، الخطة أن يفتعل الضابط عركة وأن يختلس البوري نفسه ويندس في الباخرة دون أن يتبين أحد وجوده حتى تمخر السفين وتتوسط المتوسط. اكتشف البوري عندما لم يكن للقبطان أمر ... حتى وصل السويس مراده في مصر، منع من النزول، فكر مستذكرا خبرات ومقلبا معارف: بينه وبين عبدالرحمن عزام أمين الجامعة العربية المصري وشائج، جمعت بينهما ليبيا بلاده وقد

كـان عـزام مشـاركا في جهادهـا وكلاهمـا محـوري الهـوى، أبـرق مـن باخرته-مستعينا بالمال- لصاحبه من استجاب، دخل مصر آمنا.

وإن كانـت الـبلاد قـد عتقـت مـن الفاشية فإنهـا لم تعـتق مـن نتائجها، هكذا وجد نفسه في ركامها حيث حولت بنغازي إلى خرابة، وكان هو قد تعلم حيث لم يكن في البلاد من متعلم غير قليل لهذا تبوأ المنصب تلو المنصب ولهذا سيسكن العالم كوزير للخارجية يلتقي نهرو وهوشي منه وكنيدى ونكروما ...، قبل ذلك جمعته في برلمان البلاد صحبة بزميل من صحب القلم عبدالله القويري ناسك الكلام وعلم الكلام من شغل بالكتابة وبمعنى الكيان عن أي مطمح غير ذلك، لكن البوري أشغل عن الكتابة وأنسته مهامه الرسمية القصة فيما بعد ندم عن تركه القويري وحده، وأنه لم يكن ثاني اثنين في المنسك.

قصرت الخطى كي أتأمل قرنا يمشي في عشية قرن آخر في ألفية ثالثة، كان يتقدمني في المكان والزمان ولكن بتريثه علم بوجودي خلفه، لهذا التفت والبسمة تغطي مجمل الوجه، وهو يصافحني تأمل اندفاعي ضاغطا على يدي حتى تبددت الدهشة في ألفة اللقاء والتلقي الحميم.

# بورتريه ماما خديجة!

مشهد مستعاد: أعطتني بظطهرها معنفة، غامرا جسدها النحيل الجمع الذكوري الذي يصبغ الشارع حيث مشت واثقة الخطى ملكا لا يألوا جهدا، نافرة ممسكة بيد خديجة الجهمي، عابرة الشارع بخطوات ثابتة ومتيقنة حميدة طرخان القريتليه سليلة كريت: آه يا طين كريت القاسي، لقد انزلقت كومضة فريدة تلك اللحظة التي اعتصرت بها وتشكلت في هيئة إنسان مكافح، لقد جبلت بالدم والعرق والدموع، أصبحت وحلا، أصبحت إنسانا وابتدأت صعودها.

مشهد آخر: أصعد في اتجاه ميدان البلدية ما قبيل وصله يقطع الخيط طول رقبة قصر حمد الشارع الذي يربط عمر ابن العاص بالبحر هنا أتريث، متمهلا أتأمل فصاحة عمر المختار وبلاغة قامة خديجة وهي تخطوا أولى خطواتها، بارزة، وجهها حاد الملامح وفي نظراتها قوة، امرأة ناضجة، تلكم الصبية التي تقطع الطريق بسكين المثابرة والنفس الواثقة، والجوبة بعيدة سافر مازال عيني تريده، بنت الوطن، الاسم الذي اختارته لتقدم ما كتبت من أغان، من أهم ما قدم في النصف الثاني من القرن العشرين من أغان ليبية مميزة.

ماذا تسمى صوت اليد الواحدة عندما تصفق؟ لم يصخ أحد السمع، لم يجب أحد لكن اليد الواحدة استمرت في التصفيق والإصبع الواحدة في رقن الحروف، ثمة صوت يقطع وصل الصمت الصاخب. في وحدتها تنثال شلالات من ذاكرة منهمرة، في عراك بين تصورات وأحداث وأفكار راسخة وأخر طارئة، أما الأسئلة فقد جعلتها في متاهة إن وطأة الماضي تجعل علاقتها بالحاضر مضطربة وهذا مما يؤدي للإحباط وعدم الفهم. بقلق انزاحت إلى الأمام لتحل هذا الاضطراب، أفاض بها ذلك إلى مزيد من الثقل والتوتر المشوب بالحزن، لم تستعن في وحدتها بغير نفسها ولم تستعن في مضطربها هذا بغير وحدتها.

ولدت من امرأة أمة أو جارية دون أهل، ولدت من هذه الوحيدة باقتدار من كانت حاجتها للغد هي أقل القليل، لهذا فإنها مضت بفرح كبير لاستقبال الغد لاستقبالي. ولدت في بنغازي فجر يوم الجمعة 7 رجب أي 15-3-1921م، تذكرت أن شهادة ميلادها تحمل تأريخا مغايرا فأوراقها الرسمية تجعلها أصغر أربع سنوات ومنذئذ جعلت تاريخ ميلادها مؤشرا إلى أنها ولدت ساعة شاءت وليس كما شاءت الأقدار. الرقن يستمر، مندهشة من انسياب مخيالها وتدفق ذاكرتها ساعة رنت لوالدها وهو يجمع حروف الرصاص التي تتراص مكونة جملا تتدفق بحيوية المعنى. وقفت عند باب المطبعة ترقب والدها في شغله، والعدد الجديد من المجلة يتشكل

من ضربات أبيها على الآلة: كيف تَأَتّي لرجل كهذا أن يخلق المعني يعزف بيديه على رصاص ساخن، من ولد يتيما ونشأ وحيدا بعد أن ضاع والده في الصحراء، من كان جنينا عندما أرسل جدي عبد الله بوالده رفقة عمه في رحلة تجارة السودان، في قافلة يمرض دليلها، في عينيه يندس الظلام فيكون جدي الدليل لماء سيكون السراب الذي يجعل من أبي يتيما ووحيدا. في وحدتها ومعزلها كثيرا ما جاست صحاري كبرى بحثا عن هذا الجد، فكانت الذات التي تتوسط بين ماض غير موجود ومستقبل غير موجود، لذا لم تحس حضورها، فكأنها تقطن بغموض في الماضي على أنها كائن من الظل يتطلع إلى الإمام لما قد يكون في المستقبل.

وهكذا اجتمع الوحيدان، الجارية سليلة العبودية والحر سليل الفقد، حرمت أمي من الإرث فكنت ميراثها. حكى والدي لي أنه كان في حالة سيئة وفكر في طريقة للتخلص من العروس التي فرضت عليه فرضا: قررت أن أقتلها-قال ذلك وهو يضحك- دخلت الغرفة وفكرة القتل نائمة في عقلي، سمعتها تنتجب فدنوت منها وسألتها متعجبا: ما سر بكائك؟

- أبكي؟ أبكي حظي العاثر يا ابني، لست بحاجة للزواج والطلاق كل حين ولست أنت الرجل الذي من المفروض أن أرتبط به.

- لماذا قبلت؟

- لأنني يتيمة وامرأة.

بين هذين اليتمين ترعرعت نبتة طرية في العناية المركزة، في بيت ككل البيوت ولا يشبهه بيت، ممر طويل يتوقف عند السقيفة التي تفتح على ساحة وسط البيت حيث في كل ضلع من أضلاعها المربعة حجرتان، أرضيته كانت مزلزة بالأسمنت فكنى ببيت الخواجة، وفي وسطه ثمة برميل ماء وزير وجنان الذي فيه كنت أزرع أي قطعة نقود أحصل عليها: MIA BORSA DEL DENARO BELLO يا حصالتي ... يا حصالتي الجميلة/ أضع فيك اليوم مليما ليزهر/ يثمر فيما بعد فرنكات وليرات/ بهذا أحضر أشياء جميلة/ وتمكنني من امتلاك أشياء أجمل من النجوم. رددت في الفصل مع غيري هذا فطلبت مني المعلمة أن أكف عن الغناء فصوتي رجالي، غدوت من هذا إلى الجنان حيث يزرعون أزرع نقودي وإن لم تثمر.

ماذا تسمي صوت اليد الواحدة عندما تصفق؟ لم يُصغ أحد السمع غيرها لكنها وكدت النفس أن هذا الصوت الذي أزعج المعلمة لابد أن يخترق حاجزه هذا. ومن شباك وحدتها نسجت خرافاتها، في حجرة أمها منامها، وفي ضوء فتيلة القاز ولمبة خمسة استذكرت درسها، في ذات الحجرة ذات الاستطالة المفرطة ناموسية إلى جانب سدة من الخشب المزخرف تحت هذه السدة الخزانة، حيث تخزن المؤن خزنت كنزها، ومن فرط توحدها طفقت عند مرآة الشكماجة تسرد مسرودات يومها بقرب الصندوق الكبير ما يختزن أسرار أمها

أسرت للمرآة بسرها: أن صوتها رجل وأنها ستكون صوتها.

انسابت في خضم الشارع، ليس من ولد ذكر كي يقوم بجلب حاجات الأم التي ليس بمستطاعها خرق جدران البيت كما كل نساء المدينة الصغيرة، تكشف لها أن ما بين البركة وسكنها هو الشارع الوحيد الرئيسي في المدينة، لكن قطعه يعني سفرا وإن لم يتعد ذلكم مئات الأمتار- لهذا وغيره لم تتجاوز وسط البلاد حتى تخطت العشرين- بيتهم محور تتحوطه الأسواق منها سوق الحشيش حيث بعثت لجلب الحشيش البري وقليل من حشيش الصفصفة كي تغذى خروفها الصغير، عند خروجها كل يوم تطلق النظرة على الخمارة التي كانت قبالة البيت، هذه المرة وقد اجتازت شارعهم راكبة الدراجة صحبة ابن عمتها لفت نظرها امرأة جالسة أمام بيت الدار في الشارع سافرة: حيه .. حيه .. مرا هبله مصبية قدام الباب. لم تعرف لِمَ جزرها قريبها ولم تفك لغز شارع الشطشاط حتى هذا الزمان: ما معنى سوق للمتعة وامرأة جسدها سلعة هذا السوق؟ ماذا تسمى صوت اليد الواحدة عندما تصفق؟ تاهت في السوق بين الحشيش والحمير والحطب والفحم والإبل، والعربات التي تجرها الخيول والبغال والصوف الخام، والقعمول والشماري والغرنبوش وكريشة الجدى والحلبة الخضراء والبرسيم وأكداس الأعشاب الطبية وغير الطبية من حشائش بر، وبين الباعة والمشترين الوافدين من الصابري والقوارشة وسيدي خليفة ودار العريبات، والحمالين المحملين

بزكائب القمح والشعير.

هذا السوق يقال إنه فيما مضى يباع فيه أيضا الرقيق، وفيه يجمع هؤلاء العبيد آخر النهار ليقيموا حفلة/ دنقة، رقص وطبول مدوية وصرخات تقطع أوصال المكان، ليقيموا ختمة السوق لأسيادهم القدامى الجدد. في هذا لم يكن غيرها من الأطفال، ومن النساء فقط دادة حواء ودادة مريم الأفريقيتان اللتان أعتقا، أما دادتها بخته من تحب فإنها تمر بالسوق على رأسها قفة فيها فول مطبوخ ساخن: فول يا عويلة .. فول يا عويلة، فهل يتسنى لها يوما أن تحصل على القفة تحمل ثقلها عن دادتها وتأكل كل ما فيها؟ وين حوش بوسعدية ... ما زال لقدام شوية، "بوسعدية" الإفريقي المدجج بالعظام وعلب الصفيح الفارغة المسك بعصاه يرقص هنا ويقفز هناك، يقطع خيوط فكرها ويخبلها فتلاحقه مع الصغار مرددة: وين حوش بوسعدية ... مازال لقدام شوية. وتنتبه فجأة دون الصغار مكبلة بالخوف من هذا العفريت الأسود الحي، تضيع عن بيتهم باكية في نحيب يقطعه رجل يعرفها ويصلها البيت. هل ذكرها ذلك بالأبح جزار حيهم العصبي المزاج الذي كلما شاهدها عائدة من المدرسة صرخ غاضبا: البنت التي تخرج إلى الشارع وتدخل بيت النصارى التي يسمونها مدرسة ما تحشمش ودير العار، لكن أباها يصد عنها هذا وكل هذيان. في العقد الثالث من القرن العشرين كان الاحتلال الإيطالي في العقد الثاني: الرجل الذي لا يستحي يبعث

ابنته للمدارس، المدرسة شغل نصارى لتنصير المسلمين، لم يكن ذلكم وحسب ما جعل أهل المدينة يرفضون المدارس الإيطالية كان الفقر، للفقر توءم هو الجهل، التحقت بالمدرسة رفقة عشر تلميذات، ثلاث ليبيات والأخريات قريتليات وتونسيات ورفقة إصرار والدي، عناد التركي كما علق البعض الذين منهم ومع الزمن من شارك والدي هذا العناد، مما جعل الصف الأول الابتدائي يصل الثلاثين تلميذة لكن ما أن يصلن الصف الثالث حتى ينحسر العدد إلى أربع أو خمس. في بيت من حجرات عدة كانت المدرسة الملكية الابتدائية للبنات المسلمات تلقت دروس التاريخ الروماني والجغرافيا والرياضيات باللغة الإيطالية، تتخللها حصتان في الأسبوع للغة العربية والقرآن.

- كيف تخيط قفطان لبنت وجهها كيف ها الوجه وبـ "15 فرنك"، تقدر تشرى بيهم شوال دقيق ثلاثة زيرو ... يا كافر ...، عمها يصرخ في وجه أبيها الذي خيط لها قفطانا ونعلها قبقابا يوم دخولها المدرسة. أمي أيضا لم تقبل المدرسة، نظرت فيما يحوطنا فوجدت بنات الجيران موشومات فقررت أن أفعل مثلهن، على عجل دون علم أحد ذهبت لجارتنا الوشامة، دقت لي وشاما طويل أسفل الشفة السفلى وفي جانبي الوجه، عدت فرحة فقد صرت منهم، غير أن الفنان والشاعر في والدي الحريص على اختلافي حزن لتصرفي الطفولي هذا. في وحدتها طالعت ما وجدت من محفوظات، في مكتبة جد أبيها كتب فقه ولغة، الجد درس في "زاوية الجغبوب" المركز

الثقافي الديني، كلما استعصى عليها العصى أصلا سألت، أعمامها يجيدون القراءة والكتابة. ما معنى كلمة إجهاض؟ لقيت من تعنيفهم ما حيرها فظنت أن في الكلام المدون في القراطيس معائب جمة. الإجهاض: الثمرة التي تسقط من الشجرة قبل إتمام نضجها، الشجرة أيضا تجهض حملها، أجابها والدها ببساطة بددت سوء ظنها. سنيورينا سارتا قلقة من تبطلها من اعتادت الشغل وانتحلته مركب صعابها، خاطت غطاء رؤوس النساء/المحارم المحلية وأحبكت الفانيلات من الصوف، أجادت فحصدت الثمن الأغلى وهي تخيط الأجود دعيت بالآنسة الخياطة، سنيورينا سارتا. بعد أن اضطرت لترك المدرسة عامين عادت لتنال الشهادة الابتدائية في الصف الخامس، في العام الرابع عشر من عمرها. ماذا تسمى صوت اليد الواحدة عندما تصفق؟ وهي ترقن حيرتها تذكرت سيدي حميدة الدرناوي عطار السوق، من معظم زبائنه من البنات مثلها يزدحمن في الدكانة، لا تزيد عن ستة أمتار وتحتوي على كل شيء طيب وسحري، جلاب الجمال وجلاب العافية:

- كم عمرك يا شاطرة؟

- سبع سنين.

- يبقى أنت غبية وما تخافيش الله، أمك لم ترسلك فهي لا تطلب مثل هذا فلماذا تكذبين؟. فعلا كنت أكذب بناء على طلب جارتي التي طلبت مني أن أشتري لها مادة مما يبيع سيدي حميدة

الدرناوي وأن أقول له أن من بعثني أمي وليس جارتي، ولكن حقا كيف تسنى لسيدي حميدة معرفة ذلك دون أن أخبره؟

عدت للبيت تتلاطم طفولتي الحيرة والخيبة فداهمتني مشاغله: القمح يغسل والشعير ينقي من الشوائب كي يحضرا للطحن على الرحى، الخبز خمر وجهز ليؤخذ للخباز في كوشة القش، الغسيل عسير مع ماء بنغازي المالح وهذا الصابون الأخضر الذي يصنع محليا ويدعي الصابون السوسي قليل الفاعلية، ولغبن الغسالات يضفن الرماد كي تنظف الملابس، أنشر الغسيل بعد أن دعكته أمي بين يديها، وهي تتمتم متذمرة: قالت أيش يهد المرا ... قالت لها: الغسيل والرحا، قلت يا امي لو نتزوج فزجرتني: انطمرى عيب بنت وتحكي عالزيجة. كنت ابتغي مشاركتها في حوارها الدائم مع نفسها فكأن لكل امرأة في المدينة قرين لا مرئي تبادله الحديث، فقد شاهدتها كثيرا في منولوج، خاصة إذ زارتنا عمتي وأقارب أبي فتكون شغالة تعد لهن الشاهي وما يتيسر من طعام وحلويات، ولا واحدة تمد يد العون، كنا يجلسن يتبادلن الأحاديث وسيرة الجيران وسمعة هذه وشينة تلك وأمي مدفونة في المطبخ بين المواعين والرماد.

شاقني حالها كما شقيت طفولتي بجزرها، كما شقيت في كل ليلة ونهار بأكلة واحدة طبيخ البطاطا أولا وحينا بامية أو كوسة وخبز نعجنه في البيت من قمح أو قمح وشعير. وإن كان بيتنا من دون غيره يزيد اهتمامه بالطعام حيث يعد المحشي من فلفل وطماطم

وكوسة وملفوف السلق/ البراك، نحمله في طاجن على الرؤوس إلى كوشة القش، الفرن القريب لبيتنا، لكن ذلك كان مدعاة لتعاليق رجال الجيران: أن ما يحصل عليه أبي من دخل الوظيفة يصرف على البطن بدل أن يدخر كي يبني بيتا خاصا بنا، دائما يرد أبي على هؤلاء: الغذاء ... لا الدواء. لم يخالجها أيما شك أن الشقاء في خطر وهي ترقن مستعيدة ترتيب حوائج النفس، تحل تخبلها بتفكيك ذاكرتها مما يشوبها من انثيال مصاعب جمة واجهتها في كل خطوة، وفي طريق دون معالم ودون دليل، لم تخطط لما ترقن، انسابت بإرادة الوحيد في أن يجعل من وحدته تضوج حيوية، لم يكن يهمها أن تصل بل المهم أن تقطع الطريق دون كلل وبضجر أقل. لهذا نهضت تعد الشاهي الأخضر الخفيف ما تحب، متكئة على جسد أوهنه الزمان وأثقال ما حملته من وحدة مختارة بعناد ومثابرة لا تعرف الكلل. خيم الصمت صاخباً في مرتكنها حيث ترشف الشاهي وترصد أبخرته التي تهس مشكلة لوحة من عتمة شفيفة. فيما عاد الإصبع الواحد يكسر حدة الصمت... عادت لشارعهم مندهشة من تلكم العجوز الإيطالية ووحيدها من يسكنان وسط بيوت من عرب المدينة، عائلة غريبة ومختلفة تقابل بالتحفظ من الجميع، قبلت يد العجوز مرة فزجرها جدها، فكيف لها أن تقبل يد نصرانية؟ رغم أنهم جميعا كثيرا ما حثوها على تقبيل يد الأكبر منا سنا، انبرى والدي كعادته لافهماها معنى نصراني. هذه العجوز الإيطالية لا تحبها خالتي جازية العجيلية التي تتعيش من التقازة/ قراءة البخت، وقد طلبت

منى مرة أن أخبرها بأن تقز للعجوز الإيطالية التي أجابت حاسمة: الماضي أعرفه والمستقبل لا أعرفه وهذا أفضل، وقد علقت خالتي جارية باقتضاب: طيح سعدها. ذلكم حدث في العاشرة من عمرها، حينها عادة من السوق جالبة حاجة من حوائج البيت لتفاجأ بأمها وجارتها تنتحبان، تساءلت بفزع عن مدعى ذلك وان علمت: سيدي عمر المختار شنقوه فإن شنق شيخ المجاهدين لم يعن لها شيئا، عادت تلعب بفرح وحيرة. هذه الحيرة خيطها الموصول بشريانها، طعامهم ما يتبقى من أي وجبة يوضع تحت الليان- صحن غسيل الملابس المصنوع من الزنك- ويوضع فوقه سكين مرددين: خاتم سيدنا سليمان عالمتغطي والعريان. حلمت مرة أن سن من أسناني الأمامية سقطت فصرت أبكي خوفا على أبي فلم يكن ثمة رجل في بيتنا غيره وإذا حلم فرد من آل البيت بسقوط سنه الأمامية فتفسير ذلك أن البيت سيفقد ذكرا. ولم تتمكن من استيعاب أن يغني فريد الأطرش في إذاعة مصر وبعد قليل في إذاعة طنجة بالمغرب، كيف يتسنى له الانتقال بهذه السرعة من بلد لآخر؟. أول مرة تحضر عرسا شاهدت العروس ترمي بيضة على مدخل غرفة عرسها وبيضة على حائط الغرفة المواجه للمدخل، وقد بيتت البيضتين ليلة كاملة مغروستين في طبق عجينة حنة العروس. وكما كانت الحيرة زادها كان الجنون محيطها، كلما خرجت للشارع وجدته قبالها، محظية الامرأة الضخمة تمشي في الشارع تكلم نفسها وكذا يفعل ابنها الصغير، هذه المرأة تلبس بعناية ملبسها المحلي من رداء وقميص

لكنها دون جرد يبرقعها فهي سافرة تمر على محال التجار تطلب حاجتها، كل يوم تطلب قدر حاجتها فإذا منحت مقدار ما طلبت ثلاثة أضعاف فإنها تغيب ثلاثة أيام ثم تعود في اليوم الرابع لتطلب من جديد، معلقة أنها تطلب حقا لا تنهب. عبابودة .... قتال القطوس السودة، تجري مع الأطفال وهو يطاردهم يجرجر أوساخ الشارع خلفه بقميصه البالغ الطول ممسكا بعصى ملوّحا بها دائما مهدداً الهواء أو الأطفال، ثريا السمراء الشابة التي لا تخاف أحدا تتسول النقود فقط لتنفقها في الخمارة. العمياء بطة مغنية يهودية وزوجها خموس، خموس صاحب الدكانة المقابلة للشارع، حرفي يصلح ما فسد ويحور الأشياء مثل علب الطماطم التي ما أن تفرغ حتى تؤخذ إليه ليحولها لعلب بغطاء تستخدم لحفظ التوابل والفلفل والبزار، كثيرا ما بعثت إليه بمهمة كهذه، كثيرا ما راقبت بطة الدرباكة برفقة نجمة الليبية الكفيفة يقيمان معا ويترافقان في الأعراس ويغنيان معا. كثيرا ما بعثتني أمي إلى شالوم من يسكن شارع الشويخات، من عنده بضائع نسائية لا توجد في سوق، النسوة كنا يخرجن للدلال بائع البضائع اليهودي دون تبرقع، اليهودي لا يجوز الزواج منه، كأنه ليس رجلا عند نسائنا، لهذا تميزوا طباعة للحاجيات النسوية فاختلطت بهم أكثر، فيهم رقة ناعمة وأنوثة والكلمة الحلوة مما تحب النساء، خاصة الفقيرات منهن اللاتي يتحصلن على مرادهن دون مقابل أو بالدين الطويل الاستحقاق، ذات مرة دخلت أحد البيوت فجأة رأيت أحد هؤلاء الباعة، طارحا

أقمشته، بعض من مصوغاته، أدوات تجميل وعطور، يتصرف مع امرأة البيت التي أعرف بطريقة أخجلتني، خفت أن أخبر أمي.

- يا ربي نجي عويشة.

تخرج للشارع مرددة، تمشي في الزنقة مكلمة النفس مجرجرة ثوبها القذر حافية القدمين مخبطة رأسها، معتوقة اليهودية الوحيدة دون زوج تسكن شارعنا تدخل بيوتنا، كـ "ساسية" من تسكن مع وحيدها "خلافوا" وبناته، لتقضي حاجات نسائها اللاتي لا يستطعن قضائها لأنها في الخارج وهن لا يغادرن بيت الزوج إلا لزيارة بيت الأب أو الجبّانة، عندما تدخل معتوقة لبيت عمي تطلب كوب ماء وخبز، تغب الماء بطريقة عرفت عندنا جميعا بغبة معتوقة، رغم وجود ماجن في بيتها دائمة الحرص على هذا الطلب ثم تنام بعد تحققه، تفيق تخرج للشارع مرددة: - يا ربي نجي عويشة. ساسية غير خدم نساء الشارع تدخل البيوت رفقة ابنها خلافوا ليغنيا في الاعراس، ساسية كثيرا ما سمعت تؤنب خلافوا لعدم قيامه بواجباته الدينية وعدم التردد على الكنيسة فيرد دائما: لما ينزل رسول جديد، يجيب كلام جديد، الكلام الأول حفظته. شدني هذا الحوار كما فجأني بنات خلافوا حين جئنني طالبات أن أعلمهن اللغة العربية، قلت في الخاطر: بالك يستسلمن. في وقت آخر، مرة ثانية فجأتها الأبنة الكبرى لخلافوا التي تركت لباسها الليبي الشعبي المعروف وغيرت من هيئتها، صارت فرنجية لباسا وسلوكا وعللت لها ذلك بأنه استجابة لطلب خطيبها، في المفاجأة الثالثة: ساسية وابنها باعوا بيتهم وكل

ممتلكاتهم، دون أن يفطن أحد غادروا المدينة، فيما بعد تناهى لسمعها أن ذلك كان استعدادا للهجرة لفلسطين.

الحيرة بددت الهواجس والجنون روض الخوف، ترقن سفرها ووحدتها أنيسها في معزلها الذي بنته بتؤدة، تنسج الوقت وتحوكه رداء العمر الذي لا يبيد ولا يتبدد، تنشغل عنها بالآخرين، مستمدة من وحدتها سماحة فسيحة تتسع كل اللاجئين إليها من عثرات الزمان وعبثه. نشبت الحرب العالمية الثانية فتصارعت ديوك الحرب في سماء مدينتها، الطائرات تدك البواخر المحملة بعتاد الحرب الذي يتفجر محولا الميناء لجبانة والشوارع لفخاخ قاتلة والعمار لحطام، هربت رفقة الأهل في عشرينية العمر للقوارشة قرب المدينة حيث الخلاء غير مستهدف من أحد. لكن الجميع كان عرضة للانتقام: الجيش المنهزم الذي في المرة الأولى كان إيطاليا وفي الثانية تحول لإنجليزي في الثالثة ألماني إيطالي، في هول الحرب هبت عاصفة وكانت برفقة أكثر من خمسين طفلاً وامرأة تحت خيمة اقتلعتها العواصف الهادرة، لم يفلح الرجال في صدها فباتوا عراة. في هذه الحرب مع جيش منسحب غادرهم أبيها إلى مصر، بين وابل الغارات وفعل المتفجرات تخيط الثياب من أجل القليل من القوت النادر، الغالي الثمن في ظرف كذلك، ويمدهم الجار الذي عاملهم كأهل بالشاي والسكر الأكثر ندرة. في القوارشة حيث هجوا مدت يد العون كممرضة تتقن الحقن وتضميد الجراح، كناها الجد بـ"جيجا" اسم

المرضة الأرمنية التي تحقن الإبر لمرضى الأسرة وبعض من أهل المدينة، لكن الظرف مختلف مما جعل عملها هذا تطوعا وليس كـ "جيجا" الأصلية، خاصة مع نفاذ الدواء الذي جعلها أيضا تطهر الجروح بـ"القاز"، كروسين الفنارات مضاءات ليلهم البهيم. حينها قل الزاد وبعد المعيل فكان لزاما عليها أن تشمر ساعدها وتخرج ماكينتها لتخيط، بيد أن القماش ضنين فحورت المظلات التي زرعتها الحرب في سماء المدينة وأطرافها، قماشتها من حرير طبيعي وبفتقها وإعادتها لأصلها وإعادة تلوينها وبيد ماهرة في الخياطة تكون القمصان الرجالية والقفطان النسائي. اليد النشطة، مما تعلمت زمن السلم في المدارس الإيطالية، جنت من الحرب النقود التي انخفضت قيمتها فلم تعد تجلب شيئا بعد أن ندر المعروض من الزاد.

بعد الحرب لم يعد الأب كما عاد غيره لبنغازي، جاء من عنده من نقل عن الأب: ليش نروح؟ علشان بنتين زرق، ما عادش نبي بنغازي، فزعت عند وقع هذه الكلمات في أذني، أمي أصلها أفريقية زنجية، لماذا تزوجها ولِمَ جعل نفسه أبا؟ استدركت الأم قائلة: أجي ويزوج البنت ويرجع، بالنسبة لي كان لا بد من التأكد مما نقل عنه.

كاتبته: شور والدي ما هوش كيف العادة/ لا يريد حوشه ولا يريد بلاده/ ما هوش كيف الماضي/ هالي مدللني وساد أغراضي/ زعم يا عرب حرجان وإلا راضي/ اللي خاطري عنده طريح وساده/ ما نكش كيف الأول/ شوره غلانا من فؤادك تحول/ صحيح ع الإقامة

في الأمصار تعول/ ناسي خديجة الغالية والودادة.

فكاتبها: جوابك وشعرك راه أثر فيا/ غيابي عليكم كل يوم بمية / ما ننساكم ... غيابي عمل/ ودي نحوز رضاكم/ نرجع ويرجع كيف قبل هناكم/ على الله يا ستي وعيني حية/ نجيكم غادي ... ونمسح دموعك/ يا حشيش في وادي/ وفي كل لحظة باسمك انادي/ مربيك يا أشرف بنات ألفية/ ربتك مشهورة .../ وطبعك وعقلك دوم باين نوره/ وحق الكتاب اللي نزل بالسورة/ من فرقتك جارن أمراض علي.

لم تكن تهتم بالسياسة فلم تدرك كنهها، قيل أن لوالدها خلافات سياسية اضطرته حينها للبقاء في المهجر، وأن كاتبها وأرسل النقود فإن ذلك زاد من حيرتها، الأم تعاني من روماتزم في القلب، أخبار ترد أن الأب تزوج في مصر التي لم يمكنها أحد من الذهاب إليها كي تلتحق بأبيها وقد توفيت أمها.

حين وصلت مصر واستعادت رباطة جأشها حارت في قدراتها وتكشفت نفس غريبة كامنة في النفس الظاهرة لها، صباح الخميس 4- 4- 1946م تسللت من البيت، دون عدة، دون جواز سفر، دون مال كاف، دون معرفة وطيدة بالطرق التي تسلك وبهدف غائم وإصرار ملبد بالغيوم السحت.

تغطي الرأس، تنقب الوجه، تتوكأ عكازا، عجوز بدوية

استقلت سيارة، كرسيان طويلان متقابلان، ركاب رجال، عجوز بدوية مفردة بصيغة جمع متوجس يردد التسابيح والآيات التي تشد العزم. توطد النفس في منولوج يقطع الأنفاس بالأسئلة والريب، المصير المبني للمجهول، تستذكر دروسها غابت عن محيطها: أليس كل قراءة معتزلاً، لقد كانت منذ صباها في عزلة، المدرسة مغامرتها الأولى: أنت يا عجوز وصلنا المرج تريدي شاهي وإلا مشروب، توكدت من أنها عجوز ومن أنها خيبت أمال العجز، أنقذها صوتها من كشف سرها فتفطنت أن معيبها سلاح لحظتها. وصلت درنة بعد، ساعات عشر من السفر، ثلاثمئة كيلو متر، ثلث المسافة مما توجب حتى تصل مرادها، أصابها الهلع، الليل حبك خيوطه وخبلها: أين أذهب؟ ماذا افعل؟ أين تقضي الليلة؟ كيف تستأنف السفر غدا؟ طاش عقلها ونطق لسانها لأقرب رجل منها: أريد الذهاب لطبرق ولا أعرف أحد هنا، وعدها خيرا ثم تنصتت عليه فإذا يحادث رجلا بالإيطالية ثم يجيئها ببناء لا تحبه: ما فيش كرهبه توصلكم لطبرق لكن ... ولم يكمل، لكن تسد الأنفاس وتوثب الروح وتوقظ الحيرة، انتقلت بعدها لسيارة نقل بضائع لتجلس محاذيه السائق: ربي ظلمت نفسي وأظلمت طريقي وعميت بصيرتي أتوسل إليك ذليلة خاشعة فأجعل في قضائك اللطف. توسلت في نفسها القوى وقد تناصف الليل وبعد ... ترقن في دفء الوحدة شقاء طريق دون رفيق وعمر زهوه هذه الطريق كأنها واحد أحد لا زوج ولا ولد، زوجها نفس تواقة وولدها عزم مركبه موج عال، كثيرا ما رددت ذلك وقد أقبل

الصبح مدركة أن كل علم ليس في قرطاس ضاع. وهي ترقن ذلك ضاع خيط سبيلها حتى أفاقت على بزوغ الشمس وبيان طبرق، نزلت في برد وسلام متوكأة على يد السائق الذي أسرع يمد يد العون للعجوز رفيقة السفر متسائلا: وين ...؟ قاطعه قلقها وما ينم عن هلعها: لست أعرف، اللّٰه يعلم أني أبغى السفر إلى السلوم من قصر الجدي، فقاطع
- السلوم !! فيه بللمون واحد يسافر للسلوم في الأسبوع مرة وسافر أمس. في قصر الجدي بعد ان أوصلها سائق الناقلة أقامت ضيفة في بيت بدوي تلك الليلة، في النهار أطلعت ربة البيت عن مرادها السفر لمصر ودون جواز سفر، دون مال، دون رفيق، تشاورت المرأة مع زوجها وتوكد العزم أن يرافقها ابني المرأة ليتم تهريبها من حراس الحدود ومن جنود القوات الإنجليزية المرابطة هناك غب الحرب، والصحراء بغير السراب زرعت ألغام وأشباح ما تبقى من حرب لم تغلق أبوابها بعد، امتطوا الحمير لقطع الطريق في تسعة عشر ساعة والدوريات تجوس الأمكنة، مرددة في سرية: يا ستار... ويا ستار... انشا اللّٰه ... ما ينهق الحمار.

ماذا تسمى صوت اليد الواحدة عندما تصفق؟ لم يصغ أحد السمع، لم يجب أحد لكن اليد الواحدة استمرت في التصفيق، والأصبع الواحدة في تقليب ما وجدت، كتب مهملة في شرفة مغبرة في بيت أبيها، جد زوجة الأب معلم آداب فقراءت وانبهرت واستغرقت في كتب المنفلوطي وأحمد أمين وغيرهم من معاصريهم، أثر ذلك

تمصرت، ولدت في بنغازي عاشت ربع قرن لم تغادر مدينتها، لكن أبيها عقب دخول الإنجليز المدينة وهجته لمصر حصل على الجنسية المصرية وبالتبعية حملت جواز سفر مصري.

أكتوبر 1947م، عادت للبلاد كما عاد الوالد، عهد الإدارة البريطانية، عادت لبنغازي عن طريق السفارة البريطانية باعتبارها حاملة الجواز المصري رفقة دفعة معلمين مصريين، عينت كمعلمة في مدرسة الأميرة، أمنيتها تحققت لكن التعليم ليس كالتعليم. من حيرتها تتفتق ذاكرتها: في يوم 15-3-1939م يوم ميلادها الثامن عشر وطدت النفس على احتفال للمرة الأولى بهذه المناسبة، ستدعو الصديقات على الأخص صديقات إيطاليات، تكتب خطبة باللغة العربية، تتطوع صديقتها وداد أشرف لترجمة الخطاب للغة الإيطالية، تعد العدة لحفلها هذا تعجن العجين تعد لقيمة القاضي، لما شاهدها الأب تجهز حلوياتها المحلية هذه أحضر من محل إيطالي حلويات إفرنجية، في الصالون الفرنجي الذي أدخل البيت من فترة ليست بعيدة، جلسن لكن إحدى المدعوات جلست على كرسي مكسور فسقطت لن تنسى الحرج ما أربكا. أم صديقة إيطالية من المدعوات حضرت برفقت أبنتها، هذه المرأة الكبيرة السن شدها أكثر ما شدها الخطاب الذي ألقيته، نصحتني كثيرا بالعلم وأني أن فعلت هذا سأحقق كل ما أتمناه وأن في هذا سيكون لي شأن، من هذا الحفل خرجت بالكلمات وهذه النصيحة. بحثت، قرأت، تسألت عن حق

المرأة في العلم، موقف الإيلام من ذلك، القرآن وما يقوله عن المرأة وحقوقها، كتبت مقالة في الخصوص، أرسلته إلى مجلة ليبيا المصورة التي لم تنشره، أعقبته بمقالة أوضحت فيه استياءها من موسوليني، هذا المقال عرض الأب لمشاكل، الأب الذي أنبها بشدة على فعلتها الشنيعة تلك ففجرت استياءها في رسالة لصديقتها بهيجة هانم العرادي لتحفظ هذا الاستياء طول العمر كشيء مقدس. حين دخلت الفصل للمت ذاكرتها وبدأت التدريس من درجة الصفر لخليط من بنات وأولاد في أعمار متباينة، استغرقها الدرس سنون، فطنت لنفسها تتوق لمزيد الدروس فشدت الرحيل لمصر في 10-8-1952م، لتقيم في بيت أقارب لهم، هناك تبدأ من جديد السفر في بحر مجهول ودون زاد يذكر لتحصيل ما يمكن مما لا يمكن: متر قماش وشريط أزرق كانا وسيلة تجد بها الشغل والحصول على الشهادة الإعدادية، في العام الثالث والثلاثين وثلاثة أشهر من عمرها تحصل على شهادة من جامعة عابدين الليلية: تعادل شهادة الثقافة، درست الصحافة بالمراسلة وحضرت دروسا في الفرنسية. تاهت في خضم أحلامها المتلاطمة لم تعرف سبيلا لتخلص من موج طموحاتها، جنت من نفسها على نفسها، الثمرة الحقيقية لعجالتها اللاواعية فقد كانت الثقافة تعني البطء، تعثرت كثيرا في ظلال نفسها تلك متشبثة بخيوط تنسجها من وحدتها، تضرعت مع أحد الشعراء إلى جميع من يحبوها أن يحبوا وحدتها، لهذا على عجل فكت رباط زواج سريع، جعلها هذا تعرف دائما كـ "أنسة" تزوجت أحلامها، طائشة في توقها

للآخرين الذين جعلت من آذانهم مسربها ومن سرائرهم التي تنيرها ولكن كنجمة آفلة سريرها.

- يا سيدة خديجة ... يا سيدة خديجة.

لم ينادها مناد في شارع ولا لقبت مرة بهذا اللقب، جفلت فضاعفت خطوها، عادت لبنغازي ولم يكن العود أحمد، ستعين، بعد أن يعتبر تغيبها للسنوات الخمس الفائتة دون مبرر، بمرتب ثمانية جنيهات فقط بعد أن كان مرتبها طال الخمسة عشر جنيها، ليذهب التعب سدى، لحق بها المنادي وكان ابن عم لها:

- لقد جاءك الأستاذ محمود خصيصا بوظيفة مذيعة...

- عمل ما نعرفه، مذيعة!!

- هم بحاجة صوت نسائي، ورقة تنقراء وبس.

- ويرضى هلي وهلك، ما يكفيش ما درت، نضيف لهم فضيحة أخرى، عمل وفي إذاعة!

عادة ما كانت كالكتب التي تقرأ تفصح عن نفسها من مجرد النظر إليها، حرنت في البيت تغالب توقها لأن تسمع، مرة ثانية سيكون معيبها سلاحها، لم تكن تجيد معاركه السيدة حميدة العنيزي الملحاحة على موضوعها، خاصة أن تسند بامرأة في مهمتها لتحرير المرأة وفي دور مذيعة، لم تكشف حميدة عن مسرها، ما أفصحت عنه:

- لا تشددي، عمل مذيعة أفضل من التعليم مقابل ثمانية جنيهات.

- نحصل في الخياطة على مبلغ أكبر..

- جدك البعباع موافق.

- عائلة باتي ... عائلة باتي، بلكي ما توافقش.

تدخل السيدة حميدة العنيزي حسم الأمر، عملت مذيعة.

- نخش عليها في نص الليل نقبض روحها.

ابن عم اعتبر عمل المذيعة مدعاة لأن يستعير دور عزرائيل، فكرت وعزمت أمرها دخلت بيت عمها لتدعوا من هددها أن يفي الوعد، خجل منها ومن جسارتها بكي:

- حشمتي بينا، الناس اتقول بنت عمك تخدم في الإذاعة.

طلبت منه في تحد وقوة أن يتبعها ليعرف ماذا؟ هي نفسها لم تكن تعرف، كانت تعيش وسط ضوء بين زمنين مظلمين دون أن تمسك بخيط هذا الضوء، أحيانا تتبدى لها نفسها كظلال غائمة وترتعش كضوء شمعة أحيانا أُخر واثقة الخطى، دخلت الإذاعة قابلت مستر فلتشر الإنجليزي المسؤول على الإذاعة، إلى جانب عمله كسرتير أول في السفارة البريطانية، صباح يوم 7-10-1956م، تصادف أن كان ذلك فترة الاعتداء الثلاثي على مصر. فجأها مستر فليتشر:

- ليدي خديجة، لماذا ذهبت للسفارة المصرية؟

- ذهبت لأن جواز سفري مصري.

- كيف نفسر ما فعلت؟

- أنا أعمل معكم هنا ... أصدقاء، عند اللقاء في الميدان سأكون مصرية أولا عربية ثانيا هذا ما يجب أن تعرفه.

وما الأسماء التي تضمها القائمة؟

حارت: من أخبره. وقد تم الأمر بينها والقنصل المصري، لم يطلع غيره على قائمة المستعدين للتطوع لخدمة مصر في حربها لكنها بددت حيرتها بإجابة قاطعة:

- لا أعرف.

باشرت عملها، كانت حميدة بن عامر قد سبقتها منذ عام وتقدم برنامج ركن المرأة. كي يفصل مستر فليتشر أي احتكاك بين المرأتين اقترح عليها فكرة برنامج مستوحى من أهداف جمعية التسلح الخلقي: عدم التدخين، عدم الشرب، المحافظة على الترابط العائلي ...، قدم لها كتيبا يحتوي على أهداف الجمعية، التي ستعرف فيما بعد أنها فرع من الجمعية الماسونية الدولية.

غنت: عليش عايشة يا عين/ وايش تريدي/ وأنت كل ساعة/ في الهموم تزيدي.

غنـي: الـزيجة شينة/ تقـيد بـنادم/ مـا يمـتع عيـنه/ عـياط العيال/ يطلعه من دينه/ ويقول يا خسارة أيام هنايا. كتبت تمثيلية إذاعية من وحي مقترح مستر فليتشر حول عواقب الخمر شاركها في التمثيل المطرب على الشعالية وغنت مما أثار لها مشاكل وخيمة، اكتفت بتقديم وإعداد البرامج وكتابة الأغاني، كانت هذه التمثيلية الإذاعية الحلقة الأولى من برنامجها [أضواء على المجتمع] الذي سيكون أهم البرامج الإذاعية الليبية لمدة ثمانية عشر عاما، من هذا الكثير، الكثير غيره ستعرف بـ "ماما خديجة".

# بورتريه محمد زغبية

الصابري عرجون الفل

الصابري عمره ما ذل

الصابري ورد وياسمين

الصابري زين على زين

كنت أنصت للغياطة محتارا في عرجون الفل الذي لم أشاهده مرة في الصابري حيث أقطن. كان "بوسعدية" يخرج قدامي من "زرائب العبيد" متقلدا العظام والعلب الفارغة ولم يكن ثمة فل، حتى زهرة واحدة.

ذهب الصبا، وردح من الشباب دون فل ولا يحزنون، لكن في ذلك الصغر كان الصابري الحي الشعبي، في بنغازي الناهضة من ركام الحرب الثانية مهدودة الحيل والحال، الصابري يفاخر، البركة وحي البلاد، بفقره الذي يزدهر والخراب اليانع. والصادق النيهوم يكتب عريضة بسم سكان الصابري المعترضين على سكان بنغازي الآخرين الذين يخترقون الشارع الرئيسي لحيهم حاملين جثث موتاهم

فحسب، حيث يقع الصابري بين جامع الموتى وجبانة سيدي عبيد، النيهوم سكن الصابري وطاردته العفاريت بين "حلاليقه، أكواخ الزنك" في شوارعه المتربة والضيقة.

وفي ذاك الصبا غير المأمون سكنت شارع الدرناوي الذي يحده جهة البحر زرائب العبيد حيث الدنقة والغيطة والرقص فنون الزنوج القاطنين الزرائب. يصب ذاك الشارع في سبخة الصابري قبالة "كوشة الجير" لسي على زغبية، من أولاده محمد زغبية الناقد والكاتب والمترجم والمثقف المتميز، وخالد زغبية شاعر أغنية الميلاد، الذي بشر بالحداثة الشعرية من خلال كتابة قصيدة التفعيلة/ القصيدة الرومانتيكية الثورية التي احتفت بالموروث الشعبي في أغنية الميلاد، والذي منعت له قصيدة وقدمت للمحاكمة باعتبارها تمس تابو من التابوات، وإبراهيم زغبية الذي كتب في مقتبل عمره بعض المقالات وشارك بفاعلية في المنشط الثقافي السياسي وشارك في بعض مؤسسات المجتمع المدني ... وغيرهم مما ساهم في الإدارة الليبية.

ذلكم حصل بين الأربعينيات والسبعينيات من القرن العشريني المنصرم.

هكذا كنت: والصديقان الشاعر المتقاعد محمود العرفي والمخرج المسرحي داوود الحوتي نسكن ذلكم الشارع: يخرج على زغبية متأنقا بملبسه الليبي، متكأ على عصا جميلة كثيرا ما زجرت مشاغباتنا بتؤدة وحنان، حينا يدخل دكان والدي ليتشاغبا حول شؤون

السياسة الناصرية، حينا يدخل سوق دكاكين حميد حيث الجزار موسى سلامة- والد الكاتب المسرحي على الفلاح- في محل سي موسى سلامة كتب لسلامة موسى وروايات نجيب محفوظ وغيرها مما يطالعه هذا الجزار.

يطل من بعيد رجل مربوع القامة متوسط العمر، يضع على كتفيه "جاكته" شتاء صيفا، كنا نهابه ففي عرفنا أنه الفيلسوف، كل ممسوس بالفلسفة ممسوس!، هو محمد زغبية الذي لن أعرف عنه في مقتبل العمر غير ذكرى الطفولة والصبا هذه، في غبش الذاكرة سمارة داكنة ومحيا صارم وجدية عابثة، ولم يكن لخالد زغبية محط في معارج ذاكرتي في شارعنا في حي الصابري عرجون الفل كما يردد الغياطة وسيغني محمد حسن، الصابري المنشأ. وفي تيه ما بعد الحرب تاه محمد زغبية في فيافي العقل الجموح، العقل الذي تشده عقول وعقود عن آفاقه التي لا يحدها حد ، في فيافي هكذا غاص وأقرانه عبدالعظيم المهدي الحداد، حسن مخلوف، الراحل محمد حمى، الناجي مصطفى الشيباني، اليساريون الموجوعون بضيق الحيلة وشعب الفقر الفكري المتربصة بكل متوثب لنهوض ما.

كأن الشغف بالتذكر من دواع التبطل، فإن محمد زغبية لم يدق أبواب مقتبل العمر المشرعة لكنه دك أبواب العقد الخامس، وقد قعدت متقاعدا متقرفصا أفتش في ثنايا دكانة الأمس، وقيل وردد والدي أن صاحب الدكان إن أفلس يفتش سجل الديون.

كان الشغف بالتذكر لدفع ديون تراكمت ووجب سدادها قبل أن يغرب العمر أو هكذا، فمن سنوات أخذت في تقليب ما أصفر من ورق خريف العمر، هذه مجلة الضياء التي أصدرها الصحفي والمؤرخ عمر الأشهب، تلك مجلة النور للصحفي عقيلة بالعون التي أصدرها بعد إغلاق مجلة عمر المختار، ومجلة ليبيا مما أصدرت جمعية عمر المختار برئاسة مصطفى بن عامر وقد كان محمد الصابري رئيس تحرير جريدتها الوطن.

قلبت المدونة: وما سرقت الصحف من الزمن فأبقت، وجدت محمد زغبية كاتبا مثقفا بالإيطالية والعربية قدّم وعرّف وحلل نظرة فيلسوف الجمالية الإيطالي "كروتشة" في العقد الرابع من القرن المنصرم، مبينا أهمية مفهوم الجمالية وهذه الفلسفة التي تحلل علم الجمال وتبوبه مكانة أولى في الكتابة الإبداعية، باعتبار أن الإبداع عمل جمالي محض وأن محتواه من مقتضى الحال، الكتابة الشعرية كتابة جمالية لا تستهدف هدفا فذاتها هدف. لذلك شارك محمد زغبية في مناقشة كانت حامية الوطيس حول مفهوم الفن، والشعار الذي غطى المرحلة بمعطفه: الفن للفن أم الفن للحياة، وباعتباره يكن لفلسفة الجمال بمكمن وسابراً لغور مفاهيمها فإن الفن عنده فن أولا وأخيرا، الفن قبل الأخلاق حيث الأخلاق أيدولوجيا، فهم الحياة ورؤية لسلك شعابها فيما الفن كما الصرخة الأولى بريئة من كل معنى قبلي. واهتم لذلك محمد زغبية بنظرية الفن قبل وبعد اهتمامه

بنظرية للحياة، كما سوف يتغنى شعراء الحداثة الأولى كالشاعر خالد زغبية أخيه، وابن حيه أو من كنت أسمع صوته صبيا في الراديو ومن طرق ذهني الحديث عنه وهو يتردد على أخته في الصابري بشارع الدرناوي، الشاعر محمد المطماطي والمذيع، الذي ترك الشعر للسياسة، السياسة التي لم تعطه ما أعطاه الشعر، ما أعطاه عرجون الفل، خالد ومحمد هذان من كتبا قصيدة الفن للحياة وأن لم يعطيا الظهر لنظرة محمد زغبية الجمالية.

لم يكتب أو تحديدا لم ينشر، الكثير كان ضائعا في متاهة الشفاهي وعلى عجل، لم أجد له فيما قلبت من ورقات الزمان غير هذا القليل لكنه من القليل الذي يكفي، فما كتب في نظرية الفن كان من جهة بحث دؤوب ومكثف وينبيء عن مطلع عارف شغوف حر.

عند أطروحه الفن ليست بحاجة لأي اعتبارات خارجية ومداهنة، الفن فوق الأخلاق حيث الأخلاق أعراف وتقاليد ومعارف سالفة، الفن خليق بأخلاقه فالجمال ينبوع الذات الذائقة التي ليست بحاجة إلى من يقننها ويحوزها ويقولبها وكأن الفن عنده رديف الذات الحرة.

الصابري عرجون الفل

الصابري عمره ما ذل

الصابري ورد وياسمين

الصابري زين على زين

الغياطة يغيطون، وقد غطت في ذاكرة موشومة برائحة بيوت العازبين المتقدمين بالسن المخيفة مرددا دون إدراك: أنه في قديم الزمان وجديده حيث كل شيء يكرر كل شيء لا يشعر الإنسان بالزمن لولا كبره وموته، العالم يكرر الحكايات والرسوم نفسها وكأنه لا وجود للزمن، كنت أردد ما أردد دون وعي ودون حاجة، وتلك الأعمال تبذير للنسمة.

# سوق الظلام ... سوق النور؟

دخلت سوق الظلام، وإذا بعيني تخرجان من وكريهما، لم أتخط فيما مضى عتبة الصابري الذي عندي هو الدنيا لهذا كثيرا ما رددت مع صبيانه: الصابري زين علي زين، لكن هذه الليلة وقد توغلت في سوق الظلام تكشف لي نور ما رأيت من قبل، ولا لمخيلتي القدرة على تصور مواشير الضوء التي تغطي سوق الظلام أو تمخر سوق الجريد وشارع بوغولة- مدخل السوق، حيث ليس بإمكان أية غولة أن ترتع فالنور بساط وغطاء، النور كاشفها، رأيت الذهب، ما يخلب الأبصار وتهت مع الدلال .. أخذتني القمجة بألونها الزاهية ففيها تبينت نساء خراريف جدتي يتمخطرن بدلال في باحة المخيلة التي تدفقت كالماء متفجرا عن ينبوع، أثارها اللون الأرجواني في القفاطين النسائية، ألتف برأسي حيثما وجه أبي نظره، لم أكن معه وهو يشير إلى بعض ملابس الأطفال التي تصلح للعيد الصغير عيد الملابس، لقد اكتشفت بنغازي مدينة جدتي المسحورة وبدأ لي أني عرفت خزنة حكاياها، أسواق: الظلام المضيء كلؤلؤة، الجريد الذي يغطيه سعف النخيل، وشارع بوغولة الذي ولا شك مكمن ومسكن الأغوال حيث المسرح في الزريريعية مرتع الأهوال التي ظهرت لي

الآن، إنها السفح الأخير للدنيا فهي ربوة من الرمل نهايتها سبخة، شغفت منذئذ بالبلاد، وسط بنغازي وبالفترينات، رغم أني لم أر غير أسواقها التي تزدحم بالرجال والصبيان والشحيحة في البنات مع أنها تغص بلباسهن، هكذا عرفت بنغازي لأول مرة وشغفت بها، وكان ظني أنها مدينة عجوز من صنع سرد جدتي، في هذه الأجواء المسحورة وجدتني بين يدي أبي وهو يشلحني ملابسي لأقيس بدلة العيد التي اختارها لي، هي بدلة ضابط مثل بدلة الضابط ناصر الذي يعلق أبي صورته على حائط المربوعة، ووجدت الشائب صاحب الدكان يعطيني التحية العسكرية، دفع أبي الثمن وعاد بي للبيت مزهوا، لم أنم تلك الليلة في انتظار العيد الذي جاء الصبح ولم يجئ. لهذا حزنت وانغمست في وحدتي حتى أخرجتني جدتي معها غصبا في زيارة لجيران قدماء يسكنون حي دكاكين حميد هناك انغمست مع صبي يدعي بشه في اللعب، وجدت عنده ألعابًا صنعت من علب الصفيح الفارغة التي ثقبت وربطت بخيط على أنها خيل تجر عربة مصنوعة من خيط معدني، علاجتها من علب حليب وردة، كارنيشن الفارغة، أخذت عربة وهو كذلك وفي سباق محموم أخذنا نجري ونجري مغنين: كارونا غلب كاروكم ... هاتوا الشيمة ونكروكم. العربات محملة ببضائع مكونة من أشولة الرز، المكرونة، الدقيق، السكر وصناديق الحلوى وعلب التن والسردينة، كانت الخيل تلهث من ثقل الأحمال والسرعة وكذا نحن نلهث، نضرب الخيل بالسوط، نجري حفاة. لما سبقته انقلب كاروي، تبعثرت أحماله وتعثرت

خيلي، سقطت على الأرض فسبقني باشًا جذلانَ على أجنحة الريح، إبتعد كثيرا وشدتني الخيبة إلى الارض، انساب ثقل في قدمي وزادت نعومة رمل البحر فأغوتني بالقعود، غلبني سلطان النوم توأم الخيبة فذهبت معه بعيدا ولما تركني وجدتني وحيدا بعيد أن أخذ الشمس رفيقة بدلا مني، غطى الرداء الأسود الدنيا، نسيتني الخيبة فتذكرني الخوف، تخبطت في محبسه وحيثما لذت وجدتني في مكاني مربوطا كما خيلي مربوطة للكارو. حينما تعرفت على حبسي ساعتها أدركت أن الساكن على البحر مرمى بصره هول، تحته عجين الظلمة، مصيره بين يدي امرأة لعوب أو كما تقول جدتي عن البحر وأن بنغازي ابنة لهذه المرأة. لا جبل يأويني ولا جدة، حين هممت بالخروج عن مكمن المتاهة هذا طلع (الشخص) الذي يطول السماء، شنبه الليل مشوب ببياض، عيناه مجمرتان ككوشة الجير الموقدة، أنفه كهفان مخنان، الصوت بحر هائج مبحوح، ذراعاه خرطوم فيل، أصابعه أحراش غابة، أخذني بخنصره لحسني بلسان عشرة خيول: لقد وجدته بحذاء الشاطئ قرب القصباية لكن بعيدا من بئر الكلبة، ستر الله لم يدخل البحر قال أبو بشة لجدتي وهي تمسد شعري وترتعش.

كانت تلكم ذاكرة مشوبة بالحزن حيث هدم سوق الظلام الذي سرحت فيه بين ثنايا رواية "سريب". أعيد بناؤه بشكل مشوه ولم ينهض بدلا لمحيطه الذي بقى فيه الجامع العتيق يتيما، الأقواس

عند مدخله لم تعد تضم مقهى العرودي، ولا قرطاسية بشير المغيربي أحد مؤسسي جمعية عمر المختار الذي تاهت به الدنيا فساح.

صخب المقهى يصم آذن الذاكرة المثقوبة حيث جلاس المقهى يتخذونه مقاعدا لقضية الوطن ووحدة البلاد. هم أبناء المدرسة الكلاسيكية الحديثة يتشاكسون حول عمود القصيدة مع شاعر الوطن، أحمد رفيق يعتمر الكلبك التركي ممسكا بعصى كناها بمسعودة، تطال كل من خولت له النفس: أن يعترض على ضرورة التجديد، وأن من لزوم ما يلزم تحوير مسار عموده حتى لا ينتهكه الجبرانيون- أتباع جبران خليل جبران من أمثال راسم قدري والشاب علي صدقي عبد القادر- : أليس كذلك ...؟ موجها ملاحظاته للشريف الماقني والشاعر محمد كامل الهوني ومصطفى السراج، ثلة من رفقة المقهى تصيخ السمع لمظاهرة تصل أصواتها ميدان البلدية: الاستقلال أو الموت الزؤام.

بعيد ذلك ضمت مقاعد مقهى العرودي، مقاعد أصحاب الوطن، من جلبة المدينة حاضرة البلاد من رجال عرب جاؤوا للخدمة في عاصمة البلاد، التي نالت استقلالها حديثا بقرار من الأمم المتحدة، هي أول بلاد في التاريخ تمنحها هذه المنظمة الدولية استقلالها بإرادة دولية، في تصويت الأول من نوعه، هذا ما كان مثار حديث الرجال حين انضم إليهم ضيوف جدد من رجال الدولة ومن التكنوقراط العرب والأجانب. في المشهد يرتكن مطربشان في خلوة

القاريء، أحدهما المؤرخ الليبي ومدير وزارة المعارف مصطفى بعيو ممعن الإنصات، الآخر القاريء بيده أوراق تبدو لمتأمل فاحص مذكرات أو أوراق خصوصية، محمد فريد أبو حديد الكاتب المصري والمفتش الفني بوزارة المعارف الليبية: تنبهت من سبحة بعيدة عندما شعرت بالطائرة تضطرب اضطرابا عنيفا مع تيارات الهواء العاصفة فوق الجبل الأخضر. ونظرت من النافذة نحو البقع الخضراء التي ترقط محيط الرمال كأنها نقوش وشم متناثرة ولم تلبث الطائرة أن أخذت تهبط لتستقبل مطار بنغازي. ولأول مرة وضعت قدمي على أرض ليبيا عندما هبطت من الطائرة لانتظر استئناف الطائرة لرحلتها نحو طرابلس، وفي تلك اللحظة تمثلت لي الحقيقة التي كنت أسبح معها في الخيال وأنا فوق متن الهواء. كان هناك الجندي الليبي الذي يستقبل ركاب الطائرة، وفي ملامح وجهه رأيت أول ملامح ليبيا. كان وجهه ينطق بالجد والفرحة إذ سألني قائلا: إلى أين؟ ناطقا بلهجة عربية مألوفة عندي لأني طالما سمعت مثلها في صباي في إقليم البحيرة بمصر.

قلب الورقة متفحصا وجه السامع مستقرئا انطباعاته: كان ذلك في التاسع والعشرين من شهر أغسطس في العام الخامس والخمسين وتسعمئة وألف، نطق ذلك في صيغة التوكيد كأنه استشرف سؤال مستمعه، دس عينيه في ورقة أخرى: مما أحب أن أذكره في هذه المناسبة حادثة صغيرة، كان لها في نفسي أثر عظيم في

أول عهدي بمدينة بنغازي. فقد كنت سائرا في إحدى حارات المدينة القديمة ذات صباح فرأيت أمامي طفلة تبلغ التاسعة من عمرها تتجه نحو المدرسة. ونادتها زميلة لها من خلفي فقالت: "يا فاطمة !" وكان في رنين صوتها شيء استرعي انتباهي، إذ خيل إليَّ أني أسير في حارة من حارات إحدى قرى مصر. والتفتت فاطمة نحو زميلتها فرأيت وجهها، وكأني أرى وجها رأيته من قبل وعرفته. كانت ملامحها وسحنة وجهها ونظرتها وبسمتها لزميلتها وهيئة ملبسها وتسريحة شعرها، كان كل ذلك يشبه ما سبق لي أن عرفته في أطفال القرى المصرية، ولا سيما قرى الوجه البحري. وسِرت في طريقي سابحا في فكرة واحدة استولت عليَّ، فكيف حدثت هذه الظاهرة العجيبة؟ أية قوة هذه التي استطاعت أن تطبع أهل هذه البلاد بمثل هذا الطابع؟ وأي شعب كان هذا الشعب الذي استطاع أن يخلد أثره في بلاد تفصل بينها آلاف الأميال؟ لم يكن صوت الطفلة الذي سمعته، إلا ذلك الصوت الذي يمكن أن أسمعه في مصر وفي غير مصر من البلاد التي تمتد من العراق إلى المحيط الأطلسي. ولم تكن طريقة الحديث وطريقة التحية، وطريقة المشي والملبس والزي إلا طريقة واحدة تتميز عن كل طريقة سواها: حقا لقد كان العرب شعبا عبقريا له طبيعة غلابة.

خيم الصمت على القارىء والمتلقي، قطع مصطفى بعيو حبل الصمت بتقليب للأوراق ثم توقف عند ورقة تفحصها بعينيه: دهشت

يوما إذ رأيت بائع السجائر المتنقل على عربته يقرأ إلى جانب عربته في ناحية من الرصيف، وكان الكتاب الذي في يديه كتابي "صلاح الدين الأيوبي" الذي نشرته دار الهلال في يونيه سنة 1958م. في بنغازي شغف عظيم بالإطلاع، والشبان الذين نالوا قسطا من التعليم ثم انخرطوا في سلك الوظائف الصغيرة حريصون على القراءة. ويعجب الإنسان لمقدار إطلاعهم على ما نشر من المؤلفات العربية، وهم يعرفون أسماء الكتاب العرب في الجمهورية العربية ولبنان والعراق ويتابعون ما ينشر من النقد لهؤلاء الأدباء، وهم ينقسمون في تقديرهم للإنتاج الأدبي ويعبرون عن آرائهم في حماسة ظاهرة تدل على مقدار اقتناعهم بما يقولون وسعة اطلاعهم على ما يكتب.

## المنارة تشي بالمدينة النوامة!

سئمت كل شيء، سئمت تلال العتمة، سئمت الخمود، كل شئ ساكن والبرد يشق حيطان المدينة المتصدعة من آثر الرطوبة، احترت كيف يتسنى للشوارع الخالية والميدان المهجور أن لا يغادرا هذه المدينة العجوز، توجست خيفة من هذا الخواء وتطلعت إلى مطلع يخرجني من جب ميدان البلدية. لم يتم الليل مطلعه بعد لكن لا أحد، لم يلون الظلام المكان لكن لا أحد، الميدان خاو على عروشه تؤنسه الوحدة ولا أحد، تخبلت في هذه الوحشة وغصتً في سباخها، بنغازي النوامة، مدينة المسارب التي تؤدي إلى مسارب في مسارب خلتها فجوة الهيولي حيث لا أحد. غصت في نهر النسيان على حافة المدينة ووجدتني في نهر الليثون- الجخ- الجوفي، هناك في كهف عميق تحفه المياه يمتد في باطن الأرض مئات الفراسخ ويتسع في أماكن عشرات الفراسخ، به ثلاث حجرات متصلة: الأولى درج ترتقيه صعودا والثانية هضبة مسترخية في نعومة الرخام والثالثة قمة. هناك أشارت لي بأن هذا هو مصب نهر النسيان وهناك التقيت أحد الرجال يهيم في ذهول عن كل شيء، حتى عن نفسه، لكنه لما رأى بنغازي بدأ وكأنه في رؤيا، أخذه شطح رجال الحضرة ثم

سمعت الدفوف، ورأيت الهسبيريدات حارسات بستان هيرا- أو كما قيل بأنهن سيدات المساء الذي لا يأتي دون أذنهن بعد أن تتوارى التفاحة الكبيرة لتظهر خصلة برنيقي خصلتي، في هذا الآن أخذ الرجل الصرع والهذيان فقال مما قال: يا سيدتنا برنيس إني الشاعر المجنون، مجنون قورينا التي جعلتني في نهر النسيان أنسى نفسي ولا أنساها. ثم صلى بين يدي بنغازي فقالت الهسبيريدات: هذا كاليماخوس القوريني العاشق قورينا وأخواتها ومن تغنى بخصلة شعرك يا برنيس الأحلى مذاقا من رحيق الأزهار... ومن أطيب الطعام، والتي تمر باللسان أحلى مذاقا من الخمر الجديد المنعش.

ثم وقف كاليماخوس هذا وقفة ضاقت فيها العبارة وهو يهذي: وبعد أن رنا كونون ببصره يتفحص أجرام السماء، والنجوم السابحات كل في فلكها، عثر على، أنا خصلة برنيقي، التي وهبتها للآلهة جميعا، وها آنذا أتحرك في الفضاء .... لقد أقسمت برأسك وحياتك ... وارتفع سليل ثيا إلى ملأ أعلى خفاقا لامعا مثل مسلة والدتك أرسينوي (تيوكيرا)، وأبحرت سفن الميديين المدمرة متوغلة وسط جبل آثوس الذي سيسمى في قادم الأيام الباكور.

ما حيلتنا وما عسانا نفعل نحن خصلات الشعر، إذا كانت مثل هذه الجبال تذعن لجبروت الحديد؟ يالغيظي! من كشف عن ثمرة الأرض الشريرة هذه، وعلم الناس فن الحدادة؟

وبمجرد أن جززت أنا خصلة برنيقي حزنت على شقيقاتي.

وحرك النسيم الرقيق، زفير شقيق ميمنون الأثيوبي وابن الفجر، أجنحته في الحال في حركة دائرية، فاندفع حصان أرسينوي، ذات النطاق القرمزي. وأمسك بي بأنفاسه، ثم حملني عبر الهواء الرطب ووضعني بين أحضان دارنيس. لقد اختارته أرسينوي (أفروديت زيفوريتس) التي تسكن على شاطئ برسس، بنفسها لهذه المهمة.

وهكذا لم تعد العروس المينوية، من أحبها ديونيسوس وأقام لها تاجا من النجوم تبعث بنورها على العالمين وحدها، بل أنني أيضا أنا : خصلة برنيقي الجميلة، قد أصبحت إحدى النجوم العديدة.

وبعد أن اغتسلت في مياه أوقيانوس، وارتفعت على مقربة من الخالدين...

وضعتني دارنس نجما حديثا بين النجوم القديمة...

بعد أن تقدمت إلى أوقيانوس في فترة متأخرة من الخريف.

ولكن ما كانت متعتي بهذه التكريمات تفوق الحزن الذي يجثم على صدري.

لحرماني من ملامسة ذلك الرأس

الذي رشفت منه عطورا كثيرة عبقة

عندما كانت برنيقي لا تزال بكرا

ولكني لم أمتع بعطر المر، العطر القوي في شعر المرأة المتزوجة.

المنارة تشي بالمدينة والسفن تنسل من ظلمة، تطلعت من مرقاب ميدان البلدية، الشويرع المندس تحت المبنى القديم للبلدية هذا الفالوج يصب في البحر اللابس لبوس الليل، المنارة برق كاشف: فوق تلة قرب بحر الشابي وخلف المبنى القديم للبلدية صندوق حجارة طيني، قالب مستطيل خارق للسماء وسكين ضخم خارق قلب جبانة سيدي خريبش، في مدخل الجبانة متحف المدينة تسوح فيه، فيه تماثيل الموتى الذين يرقدون خلف المتحف حيث يوسبريدس بنغازي الهلينية، حفريات، قلادة تحوط رقبة مبنى المنارة من تحت، بين الموتى والحفريات مسارب تؤدي بك لفم المنارة تصعد، تصعد سلما في أعلاه المصباح الواشي بالمدينة كل ليلة منذ سنين وسنين، وفي القريب منها رقد المكان جثمان سيدي غازي من آول بعضهم فنسب أسم المدينة لبنيه: بني غازي! بعد أن لم تعد تكني بـ "كوية الملح"، بارت تجارة الأبيض بمنع تجارة الأسود البشري، حينها هزل حال كوية الملح فنهضت بنغازي على أنفاس ذهب أسود، هذه المدينة السواد طعامها والبياض ملح هذا الطعام وبحر الشابي صخور تتلاطمها أمواج عاتية شتاء، في الصيف جزر البحر، في الحالين ثمة صخور صاغها البشر كي ترد عن الميناء شغب اليم العاتي والمستكين، في الجزر عند السكينة تمتد قصبات الصائدين، في الغلو بوسيدون إله البحر عاشق المدينة يغمرها برغائه، يزبد شوارعها، فيما سلف كثيرا ما طرد ساكنيها غيرة:

- الحبيب لا يخون.

- العدو لا يخون.

- فئران المنارة تتخبط في الظلمة،

والسكان يرعبهم اهتزاز الحائط.

- أنى فاعل ما أستطيع لا ما أريد.

ثم انسل بيسدون من المشهد لاحسا زبدته تاركا بنغازي كل عام نائحة، والمنارة تشي بالمدينة. تخبطت بين حيوط مشبعة بالظلمة وشوارع تعاني الوحدة، المدينة تغط ومتساكنيها في سبات، الكسل يشع من مصابيحها الكهربائية التي تتصرم خيوطها كفخاخ مكشوفة، كل شيء حديث ميت، المدينة هذه الساعة مصباح نفخ عليه غول، هذه الساعة الشمس قد غربت وليت النفس للنوافذ المغلقة أرقب ضوءًا، جميعا في جحورهم يعمهون، تخبطت في نسج أسود يلطمه مجئ الليل والبشر الفارون من فسيح الشارع لضيق البيت المفتوح على الداخل، بيوت بنغازي قنافذ خارجها ساحات فارغة، مرتع للا .... أحد. جعلني ذلك أدرك أن الحياة الحقيقية هي مواجهة اللحظة، شفيت من خوف حين اخترقت بنغازي جوانحي فأحببتها، الملغومة بالتوجس والمرتابة دائما، السهلة المنال مثل مريم حبلة بالترقب وفي حالة انتظار أبدي، كل بيوتها رحم يرتقب وتقابلك رغم كل شيء بحميمية غير قابلة للصياغة في عبارات، فتكلم كي تراك.

رأيت فيما رأيت سوق الجريد يعج من النخيل بالجريد كي يلفه الظل، ثم رأيته مثقل الصدر بالسقوف الأسمنتية. طيبت خاطره بأن كل زمان يتغطى غطاء، حال السوق هي فرصته بعد أن أزيل سوق الظلام وهجر ميدان البلدية، تدرج سوق الجريد في ذهوله: إنه وحيد في مكانه، أنه يعج ببضائع مطلوبة، وعجزت الأسواق المستجدة في كل حي أن تسلبه مكانته اغتبط بخاطره هذا. هذا جال في النفس دون أن تدوس القدم سوق الجريد حيث ليس لي حاجة نسوية هي بضاعته، ولا يحسن مضغ الماء في سوق النساء. تذكرت أن أول ما لفت ماما خديجة في طفولتها سوق النساء المنعوت آنذاك بشارع الشطشاط، وأي ساعة ولج الذهن سوق الجريد ولجت تلك الذكرى، هل ثمة بين السوق والنساء وشائج وأن بين السوق والمتعة وشائج؟ إن حدث وولجت سوق الجريد النسوي، في بضاعته ما يحك المذكر تتذكر من ملابس داخلية نسوية..، من سواك وأحمر شفاه... من لوبان طرقعة، مثل طرقعة آلة الكتابة الآن صحبة المدفئة الصاخبة. فيه من بضاعة العرس والليل ما ليس في غيره، كذا تشردت نسوة شارع الشطشاط بعد منعه فاتخذ كثيرات منهن في أجيال متعاقبة سوق الجريد سبيلا، حيث ضرورة المتعة الحسية والحاجة إليها تجعلها تتقنع بالقناع الأكثر شفافية. لهذا تسوق المتعة نفسها حيث تتسوق، وطالبها أين التهتك يتحجب، استحوذت نشوة نصر عجيبة على سوق الجريد استمدها من تغييب غيره، هو سوق الممنوعات وشبيهها من المسموحات.

قلب المدينة عتيق ومدعاة للنشوة، فيه سبل خفية وظاهرة للمتعة، الحديث من عادته السفور ومن عادات المدن القديمة الخفاء. بنغازي في أسوقها القديمة كالسيدة الناضجة لديها ما تخفي وإن كان الزمان، يضيق سوق الجريد كما يضيق سوق الظلام فيما سلف بما وسع، وقد ضاق شارع عمر المختار عن متاجره بالباعة المتجولة الطارحين فخاخهم حيث ما أمكن، أما ما استجد من أسواق فسيحة في مدينة الحدائق وشارع عشرين ودبي، فإنها مثل شابة حاسرة الفخذين عندها من العنفوان ما تشهر. من عاداتي أن ألج السوق تلو السوق بغبطة مراهق منفك من مراقبة، محاسب تستهويه الأرقام ودقتها، من تشغفه سيقان عارضات الأزياء ومغلفات الأجساد الطرية وألاعيب سحرة الموضة، في تسكع شبه يومي أطرد الفقر بالأماني وبالمثل القائل: اللي ما يشري يتفرج، كانت نشوة طريدة، الغزالة الشاردة تغطي جسدها من مرآة عينيها اللتين تؤججان رغبتها، كثيرا ما تحسس نظري حريرها، البدن ثوب يشف شبق الروح، هذه تعلة المتسكع / المتسوق كأنا عند عتبة الجريد، وفي شارع دبي الفترينات والديكور حدثيان حدة شفرة حلاقة لم تستعمل بعد. بنت من بناتها تتخذ الحداثة عرجونا تكنس به خيباتها ومن وله المدينة/ الأم باستعادة الذكريات مخيطا، تحوك الكلمات، تتطرز الجمل في شعرية عابثة: في التباس المعنى/ أرحل إلى يقيني/ أفتش عن نسيان ممكن/ يتفوق/ على تكوينات الذاكرة.

البنـت في المشـهد المشـاكس في المديـنة تـردد تعاويذهـا: هـذه الدروب المرتعشة/ لم تعد تليق/ بأحلامنا الصغيرة. تخرج من المشهد تقطع درب الشارع حيث يحتشد مبنى التلفزيون والإذاعة الوطنية، مبنـى إذاعـة المديـنة المحلـية، الصـحافة، منـتدى الفـنانين والكـتاب، المقهى الذي ينحشر فيه مثقفي المدينة من الرجال ترتقب هذا من قـرب: وحدهـا الذكـرى لا يـزعجها نحيـب التجاعيد. في تلـك الظهـيرة اللافحة بالشمس الحارقة/ بالمطر الثاقبة، يعج شارع الإذاعة بأحلام مثقفة، بخيبات حالمة لجيل مطلع الألفية الثالثة الذي يتلصص كعين كاميرا على طيور حداثة جافلة: خلف مبنى الإذاعة هوتيل برنيتشي تتهجى المعمار صرح فيه من فخامة رومانية ما يبز الكاتدرئية التـي تحاذيه وأن فصل بينهما محط شارع، تعطي ظهرك البحر ما عرف بـ "القبطرانـية" و "نـادي الصـيد"، بالـتحديد كورنـيش المديـنة الـذي لم يـتجاوز حـدوده وأن تجـاوز عمـره القـرن إلا ربعًـا، واجهـة الهوتـيل في منتصـفه درج فسيح مرمري غالـب الزمن وغلبه ثم امتداد لطرقة هي مصعد للسيارات كي تقف بمحـاذاة بـاب الهوتيل عند اللزوم، الباب منفسح وبلّوري والبرانـدة أعـلاه مظلته، البراندة طول في عرض حديقة مطلها البحر، هي مطل للغرفة الرئيسة التـي بحجم دارة كبيرة في الهوتـيل التـي بنيـت للدوتشـي موسـولينـي مـن أقـام فـيها سـاعة زار المديـنة، وإن كـان لكـل غـرفة تقـع في واجهـته بلكونـة مماثلـة إلا أن حجمهـا ما يعادل الفرق بين الدوتشي ومواطن من مستعمرته الليبية، الشاطئ الرابع لروما.

ترتقي الدرج مسافة حتى تلج المكان في المدخل على شمالك مطل المقهى حيث مرتاده يطلق النظر للإفق البحري والكورنيش، لوحة منقوشة على قماشة الأفق ترتادها نوارس كسولة، رواد المشرب سكاري يتكئون على أريكة: هكذا كان في سالف الزمان، المسيحيون من طليان وغيرهم يأتون المشرب بعد الاعتراف في الكنيسة التي ترقب الهوتيل عن كثب: قبة هي كائن خرافي ضخم الجثة منبثق من الطرز القوطية تسابق صومعة الجامع العتيق في اختراق السماء فيما المنارة ضلع هذا المثلث، رأس المدينة المنحشر في البحر.

بعد خروج كاليماخوس القوريني العاشق قورينا وأخواتها إلى الإسكندرية تسنى للبنت أن تخرج لسانها لبرنيس: شاهدة قبر ترمقني بلا اكتراث، عند دخولها المتحف قرب مقبرة سيدي خريبيش لاحظت ذلك، هذه المقبرة مستلقية على ظهر يوربيدس المدينة التي دفنها القبلي قبل أكثر من عشرين قرن، جبانة سيدي اعبيد تغط على قلب هسبريدس المدينة الأقدم والسور عبارة عن: مقبرة اليهود تلضم عقد جبانات سيدي اعبيد وسيدي يونس ثم جبانة العويلة فجبانة النصارى، أما جبانة الحرب العالمية الثانية في الفويهات فهي مقر الأمم المتحدة التي انتصرت في تلك الحرب، ورقود هذه الجبانة من سيخ ويهود ومسلمين ومسيحيين ينامون، في سلام ودعة، في حديقة من الزهور، لن تلقاها في غير هذا المكان إلا في المتحف منحوتة على الصخور، مثل زهرة السلفيوم دواء كل داء.

## خصلة برنيقي الجميلة،
## قد أصبحت إحدى النجوم العديدة،
## قال كاليماخوس:

جاءت شفتاي مع قافلة للعبيد/ كان يملكها السنوسي الأكبر/ في الجغبوب عتقهم ونشرهم في الأرض/ أنهم مازالوا يقنطون الربع الفقير ببنغازي/ قرب المستشفى حيث ولدت. أولئك الإغريق/ الذين أهدوني حواجبي/ ما كان ببالهم البقاء بتوكره/ ولكنهم شموا ذات يوم/ رائحة المرمية البرية/ وأعلنوا بلادي مسقط رأسهم/ فرسان القديس يوحنا/ غزو اطربلس/ فطلب سكان المدينة النجدة من أسطنبول/ في عام 1531 جاء الأتراك بأنفي/ يعود شعري/ إلى إحدى جواري/ سبتموس سيفيروس/ كانت تهيئ له فطوره/ وأنجبت له أربعة أبناء/ فتح عقبة مدينتي/ باسم الله/ نجلس الآن على حافة قبره وأغني لك: يا ذات الأهداب الحلوة- حادة كالسهام-/ أهذا وجهي الذي أراه منعكساً في عينيك؟

شمس في جوفه نشفت ريقه وهو يتلو أشعاره:

في بيتنا نكسر الجوع بتمر من هون / وبأكواب من اللبن الرائب / ثم بأقداح من شوربة / بلحم الخراف ونكهة النعناع / ومنها لطباق من المحشي / وصحون من الفول المبهر / يسبح في بركة من الزيت والليمون / وهذه هي البداية فقط.

ليت كل ما لدي أن أخبرك / جميل مثل قصة الوردة / وصل موسوليني إلى سرت قابله غريزياني وجمعٌ من البدو الجائعين / كانوا لتوهم أخرجوا من معسكرات الاعتقال / صاحوا "ال كابو ... ال دوتشي" / وهمَ أحد قادتهم العجائز / (عيناه مضروبتان بالتراكوما) / بإلقاء قصيدة للمناسبة / ثم قامت فرقة من غاتٍ البعيدة (أتوا بهم عبر الصحراء بعربات مكشوفة) / برقص رقصة على جمال متعبة نحيفة.

في اليوم التالي ...

وصل موسوليني لبنغازي / لم أكن بعد في السابعة من سني / ولكني أول من قابله / بوردة حمراء / على مخدةٍ مخملية سوداء / كان مصدوماً / كأنه يتسأل / "أين المتوحشون؟" / مشى خطى قليلة / ثم رمى الوردة لأحد أعوانه / تلك الليلة سمعت أبي وأصحابه / من القضاة والزعماء / يضحكون عليَّ / وكيف وقفت منتظرة "ال دوتشي" / أن يقبل خدي. / مرت سنين قبل أن أفهم سمه ما شئت – كبرياء الضعفاء / أم قدرتهم الخارقة على / استيعاب المفارقة.

أنا أتحدث عن الليثي ولا أقصد بذلك الحي الذي ببنغازي/ على بعد خمسة كيلو مترات من المطار حيث يبني أبي بيتا/ بدون مهندس، بدون خريطة/ بدون مقاول وبدون أية تجميلات/ تقول أمي: إنه كبير جدا/ يقول أخي: لا فرق بينه وبين البيت القديم.

كان خالد مطاوع يلقي قصيدته هذه بفصاحة إنجليزية لعثمتها لغته الأم في مدرسته بالولايات المتحدة، زد عما سلف أن خالدا هذا لم يتسن له أن يركب جمل البحر، لم يتسن له أن يمتطي سفينة الصحراء، تسنى له أن يتخذ من طير أبابيل وسيلته لمغادرة البلاد صبيا. في صباه ذلك لم يتمكن أن يصيد سمك بحيرة بودزيرة الميت، التي تقع قبالة الحي الذي يسكنه "الليثي"، البحيرة دار حولها كثيرا، هي بحجم قبضة غولة بنغازية لكن عمقها مهول، وقيل إنها حنجرة النيل الذي ينفث فيها ما يشوبه من ملوحة لذا تركز ملحها. بعد أن تعب من مطاردة زرازير بحيرة بودزيرة وكابد العطش، شرق في اتجاه بحيرة عين زيانة، هناك بضمة يد كان يغرف الماء الحلو من وسط البحيرة المالحة التي لها بوغاز نحو البحر أضيق من خصر مارلين مونروا، صاد هناك سمكا برأسين، رأس- معتاد- في الرأس، رأس ثان- غير معتاد- بدل الذيل، حين تسنى له الحوت والصبارص والليم القارص أو لم نفسه وغادر البلاد ليكتب قصيدته، قبيل توسيع بحيرة جليانة التي شكلت صرة لبطن المدينة الرخوة.

أخذ الأب، الذي يبني بيته دون مهندس، يفكر في كثيرا وقد

•

بناني أيضا دون مهندس ولكن بعزم، كنت ابنه الذي أثقل ظهره بهموم لا تشغله وإن أحبها، أن ينشغل ابنه بقضايا الثقافة والآداب في بلد يضيق صدره بكل معرفة لا يعرفها، وبكل سؤال يقلق مضجعه.

نزل الأب بنغازي من فاه من فويهاتها، حط بزقاق بروين في شارع بوغولة، هناك لمته مع فنانين جمعتهم غربة الفن، مثل علي الشعالية الذي ربطه به نسب بعيد، وحسن عريبي الذي هج عن مدينته طرابلس بمالوفها الغناء الليبي المين، ليحط الرحال حيث يتسنى الغناء. الأب يسوح قمينس البلدة المحادية بنغازي على حمار يبيع بضائع جلها نسوى بقامته الفارهة ووسامة وجه بشارب هتلر، موضة الزمان، وعيون واسعة ببريق شهواني- ما سيرث الابن من قليل يورث-، اعتناء خاص بالملبس القميص الأبيض والكاط الأزرق المحروق والشنة الحمراء على معرقة بيضاء والطيب ووسامة الرجل، هذا عرف في كل بادية قمينس حيث يستبدل بضاعته ببعض من منتوجات الرعاة خاصة نسائهم. يحكي الأب أن فيه ما في سيدنا يوسف وما جاء عنه في الكتاب، كنت أنوي الزواج لما كنت في الغرب في زليتن تحديدا وقد توجهت وصديق للسوق البعيد عن البلدة كي أتبضع حوائج العروس والعرس ما حمل الجمل في العودة عند العشية في خلأ طلع علينا على بابا وأربعين أو ما شابه، فر صاحبي وأثقلني أني صاحب المال وما في القلب من حرارة العشق وزهو الشباب سرعان ما غلبت على أمري وكنا عند بئر حين سمعت رأس العصابة:

آخذ الحوائج لكنـي لا آخذ الروح، طوحـوا به في البئر، إن عمره طويل فكته السبل. رميت وفي سـاعات جاء القدر مرت قافلة تتغي الماء، فبعث. تزوجت وطلقت بعد رزقت بنت أخذها باريها، وجدتنـي في قميـنس تاجـر كالـيهود عـادة أسـوح بحاجـات النسـوة وأطفـالهن أستبدل بضاعتي ببضاعتهن أيا كانت، عاشق الحياة عرفت، نهاري نساء سافرات وليلي خدرهن والخمر وما من أمر المنادمة تضم خالي وخـالك الذي قد هـج مع أمه من غريان رفقة أمه وأخويه وأخـوات ثـلاث، تـزوج صـديقين مـن باديـة الـبلدة الاثنـتين الأكـبر وفي سـكرة منحنـى الصغرى التـي تجاوزت العقد الأول من عمرها بعام أو أقل من عـامين، كانت طفلة تلعب مع الأولاد حين زفت لي لكن خالي برر ذلك في تلك السكرة أن نبينا تـزوج أمنا عائشة في عمـر ينـاهز ذلـك، وتهكم خـالك أن فيّ من الأنبياء شواهد: تاجر جده عبدالسلام الأسمر وسيم وعلى يسر وفاض للمنازعات شيخ من العقد الثالث، بقي خالي يـردد أنـه لم يستلم مهـر أختـه مـن أبـي أبـدا. ضـاقت قميـنس ومـن بنغازي كنت أتسوق غادرت البلدة للمدينة فالتجارة مدنية، حططت في البدء بزقاق بروين وسط سوق بوغولة، ضمت جلسات الأنس وقد حضر الفن وتوفر الخمر أجسادا بضة أوربية نـأتـي بها مـن ملاهـي المدينة التـي في الحرب عانـت مـن الأتـراح، لذا غب الحـرب أقامت الأفراح والليالي الملاح. عـرف الأب ككل أب جاد في أبوته في هكذا مدينة بالصرامة، الجدية، الحـزم، الحسم في النهارات، عند مجيء الليل يشلح ثوب الشيخ، وتحت غطاء الظلام تنحل النفوس وتتخلص

من كل موثق. في الصبا وقد قر للإيطاليين الأمر عملت عند إيطالي أقام مخبزا وقد كنا قبل نصنع خبزنا في البيوت، هكذا تعلمت صنعة فيها جدة قلعت التنانير من البيوت، في مقتبل الشباب تجندت في الكبنياري أو البوليس المحلي ما علمني الحزم والضبط عند اللزوم وتفتحت آفاق. عند بيت النار في الفرن يضع زجاجة النبيذ وهو يدخل الخبز بعد أن يتناول جرعة، عارى الصدر فيه نار أن يخرج أمام المخبز في الشارع آخر الليل، يتروح بزهو الصانع الثمل، يعجن الدقيق أول الليل برجليه ثم بيديه يشكل الأرغفة ويلقفها النار، اتقاد دائم ركزه نقطة دائرة في الصابري حيث انتقل وثبت أقداما راسخة.

دكاكين حميد صف من محلات تطل على الشارع الرئيس مخرج المدينة الشرقي، خلف المحلات محلات تقتبلها محلات بنيت من طين وزوقت بالجير وطلاء الأبواب أخضر يانع، هنا يباع كل شيء. للأب محل مواد غذائية بضائعه سواك النسوة، الأسبيرن ودهن الفكس ولصقة جونسون، الدقيق، المعلبات من كل لون وكذا الخضار، الفاكهة، الفنارات، القار والفحم والحطب، الأبر والخيوط والحبال وعدة الحرث والحصاد، القرنفل والتوابل والفلفل المطحون والبزار والعطور، كل حوائج نساء البدو وحاجة البدو تتم مقايضتها بمنتوجهم من خراف وصوف وسمن، في البيت مستراح لعلية الزبائن هؤلاء ولشبابهم نقود للهو في شارع الشطشاط، كل هذا من بضاعة ومقايضة يدون شفاهيا! حتى يكبر الابن البكر فيكون من عامه

الدراسي الأول المدون الورقي. للأب مطحن يجعجع بحبوب الزبائن البدو ويطحن الملح ما يغلف في ورق خشن ويباع بالكيلو، كذا يكبس الشحم في مغلفات مماثلة وللأب فرن جير فليس لمثل هؤلاء الزبائن من حاجة إلا وتم حصرها. إذا حاذيت البحر شرق ميناء المدينة يلتقيك شاطئ يحاذي زرائب العبيدن العبيد الذين اعتقوا عقب إلغاء العبودية واسكنوا عششا من سعف النخل وسيقانه وتفل البحر والصفيح خردة الحرب، غرب هذه الزرائب يسكن أهل البلاد من غير العبيد وأن كان بهم عوز. هنا حط الأب وبنى بيتا على الطرز الليبية لكن المطورة، يجلب الماء المر ملوحة للبيت وراد من ماسورة البلدية التي تتوسط الحي لهذا أطلق مثلا مفارقا: بلا جميلت الوراد نشرب مية الصابري، حيث يتمكن أطفال البيوت الفقيرة من جلب الماء دون عناء ودون نقود طبعا، لكن مثل بيتنا يجلب ماؤه سبيكه كما يدعي الوراد الذي يحصل مقابل ذلك القليل من الماءعلى قروشي. أما الماء الأسود والفضلات فتسحب من حفرة تحت المرحاض، من قبل السائح اسم الرجل الذي يقوم بهذه الخدمة في حبور وزهو وهو يخيف الأطفال من رائحته العفنة، لكن طيبة قلبه والحلوى تجعلانه معشوق أطفال الحي، وحوله دارت أساطير أنه ابن أسرة ثرية وأن عشقا أصاب قلبه لفتاة زوجت من ابن عمها غصبا كما تستدعى التقاليد - جعله هذا مغبونا يدس نفسه في حنايا أطفال الحي ومراحيضه. ما بني الأب دعى بالعلى لوجود غرفة فوق السطح يعتزل فيها ويقيم لياليه الصاخبة، وأعلى شأن البيت لوجود الكهرباء فيه عن غيره من

البيوت التي تنار من فنارات وفتائل القاز. يكد الأب نهاره كي يجعل من ليله خمر الذي يبيعه أحد الجيران في البيت. في شرق البلاد منع الملك بيع الخمر للمسلمين. كانت أخت بائع الخمر صبية تقوم بنقل القناني في قدقود، حقيبة من سعف النخل، على درجاتها الإيطالية الصغيرة العجلات تحت وابل من معاكساتنا الصبية والشباب. تقف عند باب بيت الزبون وتستبدل الزجاجات الفارغة بالملوءة. عند المساء يفرش الأب جلسته وسط البيت يعد مزته بنفسه سمك مشوي، فول أخضر مطبوخ، كبدة بالمكرونة. تعلم الطبخ على أيدي إيطالية مدربة. ثم يجمعنا حوله كي نحتسي بعض الكؤوس، ويقيس درجة سكرنا بأن يطلب من كل واحد رفع صحن صيني وتوصيله للمطبخ فإن سقط الصحن فإن حامله يغادر الجلسة. معاقرة الخمر في البيت أو الحي شيء معتاد، لم يكن ثمة من رفاق الأب وصحبه وأقاربه من لا يتعاطها. هكذا تميز الأب بشخصيته الصارمة نهارا اللينة ليلا، المنضبطة في شغلها المستمتعة في أجوائها الخاصة. كانت المدينة تقيم الكثير من الفواصل بين الحي والحي، بين واجهة الحي وخلفيته، بين البلاد قلب المدينة وبين ضواحيها، بين الشارع والزقاق، لهذا تسنى للأب أن يقيم فواصله، زوجتان في البيت ولليل ما ملكت يده فإن تعاركت الضرتان ربطهما في حبل واحد ووضعهما معا في حمام البيت الضيق وارجع الباب خلفه، عند خروجه يطلبان مني فك الحبل ليتسامرا معا ويأكلا ويضحكا حتى قرب عودته للبيت. عندها يطلبان مني أيضا أن أعيد ربطهما. لا شيء يتم دون أذنه حتى الخروج لبيت الأهل أو الجيران،

كنت في التاسعة حين تخطيت البيت لبيت الجيران في الشارع الخلفي جلدني، حبسني في الحمام وملأه بالماء كي لا أتمكن من الجلوس، ترك باب الحمام مواربًا وخرج من البيت لم أقدر على الخروج وخافت الأم وضرتها إخراجي فقد يعود فجأة. المخبز قبالة البيت يشعل الحطب والقش في بيت النار عندما تكون الريح جنوبية يختنق البيت، بيت الخباز لا ينام. أحيانا يدخل الأب جذلان يحمل أرغفة ساخنة أعدها لنا بطريقة خاصة: يعجن الدقيق بالزيتون واللحم أو التن والفلفل الأحمر ثم يضع هذه الخلطة في الفرن، في سكره يحب أن تكون مزته لحم طاجين من الخبز كثيرا ما يعجبه طبخه فيحمله ويطرق باب البيت مسرعا ومتلهفا كي يوقظنا لنأكل ما لذ عنده وطاب.

يحرث الأب نهاره في أرض الملح هذه، بيت دكانته ومخبزه والحي المحوط بالسباخ والبحر، ويتقنع يومه بصرامة جبلت نفسه عليها قساوة مدينة ماؤها وخبزها خلائط من ملح ودم. من هذا كان للأب قبضة قوية على بيته ببنيه وبناته وزوجاته، مسورا مملكته هذه برحمة القسوة أو قسوة الرحمة حسب الظرف والحاجة. مرة طلب جدى منى أن أحضر له في زجاجة قازوزة قليلا من زيت الزيتون من دكانة ابنه. ملأ الأب من برميل الزيت قليلا ثم عزم أن يكمل من برميل آخر هو لزيت يعرف بالتريبيا وهو غير زيت الزيتون وأرخص وأقل قيمة. اندهشت للأمر لكن لا يمكن لي أي تعليق، عدت إلى جدي الذي علق قبل أن يستلم الزجاجة: دارها الله أيسامحه.

فجر اليوم التالي أخذني أبي كالعادة معه للدكانة قبل أن يفتح الباب شاهد بحيرة من الزيت، لم ينبس ببنت شفة أمسك بيدي مهرولا وعند بيت جدي توقف يطرق الباب، دخل إلى حيث يقعد الجد آخذا في تقبيل يديه طالبا السماح. الجد أعمى يتلحف عباءة صوف على الجلد والعظم، وكمتصوف خيل لي أنه يقتات من ترديد آيات القرآن والذكر ومدح الرسول، لم يكن يفك الخط لكنه حفظ الكتاب عن ظهر قلب، اعتزل الناس مكتفيا بأنه فك لغز الحياة وانحل في الوجود. كشبح من طيب تراءى لي هذا القارئ الموجود من خلال ما يردد في خلوته، من الحرف عنده طائر لا يجب أن يؤسر في دواة وحبر ولا أن يرقن: ما يرقن سيكون طعاما قديما لا يمكن إنقاذه وغذاء للعث، جدى حكيم نقش في صدره معارفه لهذا كرهت الورق، كثيرا ما شهدت على مريض يستغيث ببركة جدى، الذي يتمتم جهرا بآية قرآنية مشفوعة بأدعية سرية على رأس المريض حيث يضع يده، ولأن الشفهي مخلوط بالروح عادة لم يخرج هذا المريض من بيتنا إلا شفي عفي. ما أن صار للأب أولاد حتى عزل الجد في خلوته واتخذ من الحفيد مرسال. أما الجدة فاتخذت من بيتها متراسا بعد أن اتخذ الابن بيتا خاصا، وأعلنت الحرب على زوجتي ابنها الذي لم يطاوعه قلبه أبدا أن لا يستمع لمواجعها ولطلباتها من حوائج الزينة النسائية في محاولة لسحن كبدت نسوة ابنها، لكن كبدت ابنها كما كانت تدعوني فله كل التدليل، وأجادت طبخ الأكل التقليدي وهذا ما عزمت الجدة على اعتباره فخها المفضل لاستدراج ابنها وحفيدها

الأول، بين يوم وآخر تطبخ البازين من دقيق الشعير الخشن بالقديد أو لحم القعود- إن تمكنت من فك قروش من الابن- وتطبخ المقطع أو الحساء، وفي بيتها أصرت بالحاح على التنور وأن تعد أرغفتها فيه، ولم تعترف حتى لنفسها أن حربها خاسرة وأن الوقت يلعب ضدها متحالفا مع عدواتها، في زمن غدت فيه الجدة بحق هي أم الأم بعد أن انعزل الزوج في بيت خاص.

جدتي لأمي هي حكايتي، هي السارد ومن حكاياها حكايا المدينة، ككل مدينة فصاحتها شفاهية، من حلاوة الروح: عذوبة الأمومة طلقت الفراش وتركت الدفء، زحفت لصغاري على الركب حتى دميت، بالدم رصدتهم وبحجاب الأم حصنتهم وكانت بنغازي تناديني فلبيت مسرعة النداء. من قمينس بلدة النعناع إن جادت السماء وبلدة العطش إن لم تجد، وجدتني أفر كما يفر المرء من أمه وأبيه وصاحبته، ويفر ببنيه من جوع أو خوف لأمل وأمنية كذا كنت أفر من قمينس حيث لا شغل ولا مشغلة، فقد توفر الماء، وقصرت اليد عن المحراث فما في الجب من حب ولا مال، فتحول الماء لسراب وبنغازي مآب لملئ جيب البطن والرأس وجيب السروال إن وجد. خادمة ولا الموت بالحسرة قلت والخطى تحث إلى المشرق فالصبح لاح، في بنغازي بيوت لآل مصراته تجار البلاد أصحاب المال، وإن لم يقدرون غب الحرب على الحشم قدروا على الخدم. ساعة خرجت وبني إلى الطريق، لم يكن في الأفق حمامة أو يمامة، لكن الأمل

يرفرف في الأنحاء. بنغازي مدينة مسحورة، الأرض بيضاء فهي سباخ متراميـة الأطراف يحدها الأزرق كشبه جزيرة، في مرمى البصر جبل أخضر بينها وبينه أحمر سهل من طين برقة الحمراء، هي بساط والرحبة والقار قار يونس بوابتها الغربية، كما الربوة ربوة سيدي يونس بوابتها الشرقية، والأفواه أو الفويهات كما يصغرها البدو قرى كما كف اليد صغيرة ومبسوطة وحاميات من عثار السفر وراحة من تعب، هي مسحورة ليس بالأخلاط من أزرق وأبيض وأحمر، لا باليباس والرطب والسائل، لا باليم والوعر والسهل، لا بهذا ولا بذاك، لكن بطلوعها بقعة بقعة فهي مسارب وخلجان يحوطها ماء أجاج، تحوط الحياة التي تنبثق عنها كما العجب أو ثغاء الحملان، مأوى الذائح والذبيح والفار من سباع الأرض والدهر، حين هممت بها كان التوق وقد أشعله الأمل دليل الفؤاد وزيت الروح، طلعت بنغازي المسحورة فجأة عجوزا تتسربل ثوب العجز تطلب وتلح على القعود، هي مدينة الغريب دون نزاع، تتلبس الروح الشفيفة وتشغف القلب الملهوف، راحة مذاقها ملح وخبزها الألفة، كالجديد في القدم حلم وكالقديم في الجديد ماض ولي، وكما في الأرض في الخاطر ثمة مطرح لكل أحد حيث كل مطرح ليس لأحد. بنغازي مدينة مسحورة، قبل أن أجيها عرفتها، فهي طوق الحلم، وجدت لما لم تكن موجودة، مدسوسة في غياب الزمن، كما هي يابسة مدسوسة في البحر فهي رطب الحلق عرق البلح، كما الأمنية ننسجها بالتوق ونجسدها بالمكابدة- هي أليف اللغة لأنها مدينة بشرية، من صنع البشر الذين

تحدوا الطبيعة التي حاولت جهدها إخفاءها عنهم، لما حوطتها بالملح والماء، إنها المدينة التي نصنعها كما نصنع أنفسنا فيها، هي منحوتة رغبة ونقش شهوة وأيقونة روح وشهقة نفس وتبرعم الجسد وكأس الحياة، هكذا تجلت عن خفاء فهي مدينة نهر النسيان- كما جاء في كلام الأولين، حيث المآب الأخير، لم حوطتها بالملح والماء، إنها المدينة التي نصنعها كما نصنع أنفسنا فيها، هي منحوتة رغبة ونقش شهوة وأيقونة روح وشهقة نفس وتبرعم الجسد وكأس الحياة، هكذا تجلت عن خفاء فهي مدينة نهر النسيان- كما جاء في كلام الأولين حيث المآب الأخير، لم تفتح مرة فهي التفتح الأبدي، في الخرائط مركونة في الركن كما البئر في البيت، الخيال في النفس، المنى في الجسد والروح في الكلام، بنغازي مدينة الحقيقة غائبة عنا في الوصف والتوصيف، هي متجر الذهب الأبيض، ومحل المتعقبين من العبيد، محطة آخر القوافل، وأول محطة لغارات طير الحديد، حتى تحولت سماؤها إلى غربال من أثر ما اخترقها من قنابل ورصاص ومتفجرات آخر، من فوق ومن تحت ومن يابس وبحر، فإنها مدينة الغارات الجوية في الحرب الأخيرة، لما كانت أرضها مفتوحة لكل أحد بنغازي ليست مدينة أحد ومدينة كل أحد جمعت وأوفت، جمعت من كل فوج فتحت مساربها، هي مقر الغرباء ومقام النسيان، قيامة النفس التواقة وحصير التعب، مسكن الجن والأنس وما بينهما، ومنارة (سيدي اخريبيش) تشي بها للسفن التائهة والبحارة المساكين، والقراصنة الفارين من أشباح المطاردين وأساطيل الدول العظمى،

لهذا هي بيت شمل يغمر السائح وملاذ الغريق- قال قريتلي: حينما استولى النصاري القريت على جزيرتنا، وتركتنا فلول الأتراك المهزومة، فررنا بالإسلام ديننا من عقاب أهلنا الذين عدونا من الخائنين، أوينا بنغازي، وقال لي قرصان مالطي لما حوصرت القرصنة ومنع البحر عنا كانت بنغازي المأوى، كذا قال انقليزي وقالت يونانية فتحت خمارة هنا لما عاثت جيوش ألمان وطليان ببلادي وكذا فعل أرنأوطي ( ألباني )، ركن ألمان من تعب- تعبوا من طموح قادة بلادهم وعسفهم- ببنغازي، وشامي ويمني ومصري جاء بهم الترك، فبعد عنهم موطنهم اتخذوا بنغازي وطنا، وجعلوا منها جمعهم مدينة ولما جئتها سبقني الكثيرون من أهل البلاد، الفزازنة خبازون وأهل الغرب بناؤون والبدو شيالون، ومنهم من قدم منذ قدم، فكان أول من أهل الأرض وصيرها مدينة بنغازي الحقيقة التي أوتني من جوع وخوف، بنغازي المسحورة التي تعطي نفسها لكل من عجنته الصعاب وألف المكابدة، كل عنيد صاحب تغريبة، هي أرض الملح وفي الملح خبز تخبزه الأيدي من شقاء، تحوله الروح الوثابة إلى جار أليف في زرايب العبيد بالصابري مستعمرة السود والفقراء من قش وبقايا الحرب من زنك وحديد، وفي السبالة بالكيش نجع فقراء البدو حيث شيدوا بيوتا من الصفيح فتحلقت الحلاليق والبراريك بالمدينة، وساكنيها الأقدم في البركة وسيدي حسين اللذين يربطهما بالبلاد، وسط المدينة، مسرب من اليابسة يجانبه السباخ، حين نزلت بنغازي رأيت بأم عيني أهلها يعودون بعيد الحرب من

حيث هجوا في البوادي والجبل، كما رأيت أهل طرابلس يهجون عنها إلى دواميسنا بجبل غريان، عاد أهل بنغازي إليها وقد غدت حطاما وكبرت في سنوات الحرب فصارت أعجز من عجوز، البيوت دكت وحطامها أغرق الشوارع حتى سدت، والميناء جبانة للسفن، والموت يخرج لسانه في كل درب للسائرين، وكنا نتخطاه ليس عن جدارة وإتقان بقدر ما هي الصدفة في البدء كانت الصدفة هكذا أحببت بنغازي من أول نظرة، كما ولدت في غريان من أم اسمها عربية وهي عربية وأب جبالي بربري يدعى بريبش، كما تزوجت البشير العربي، وكما قطعت سرتي في الجبل الغربي شدتني سرة للجبل الأخضر، لأسكن سفحه، في هذه المدينة التي ليست كالمدن، فهي ليست مدينة كما ليست قرية، هي جمع شمل يسكنه النفس قبل الجسد، ضفة للبر وعنق تشرئب للبحر، لما أطلت على طلعت الروح راضية مطمئنة، كان عناق من خرج عن صحراء سرت، ومن خرج عن البحر فرحا بأنيس، وإن كان غريبا فبنغازي الغريبة، عن الجبل بعدت وفي البحر سكنت، إلى الصحراء فتحت يديها للناجين- وكنت منهم رغم كل ما دسه الطليان والأنقليز والألمان من لعب الموت في شوارعها وعلى ضفافها وفي أحشائها من بيوت وعمارات هدمت، في الحضن دستني وعن القنابل والألغام أبعدتني وأبنائي، في عمارة متهدلة سكنت كما الناس، في شوارعها سرحنا نجمع بقايا الحرب من نحاس قنابل متفجرة- بعضها ختل الناس وأخذهم بغتة وهم يحاولون تحويلها لقوت يومهم، وكان تاجر يدعي السوسي، يجمع من

الناس ما يجمعون من بقايا الحرب التي آثارها تفعل فعلها حتى بعد زوالها لهذا قتلت الآثار من قتلت وأحيت من أحيت، وكما شردت أطفالا أغنت رجالا وعهرت نساء، علمت الصبيان النهب والتسول، فتحت ملاجئ ومدارس ليلية وإدارة انقليزية ومعسكرات ورأيت لأول مرة أهل المدينة أهلى فسمعتهم يسمون أنفسهم ليبيين، رأيتهم جماعات جماعات: الاستقلال أو الموت الزؤام، تساءلت عما يحدث قيل يتظاهرون من أجل حرية بلادنا فرحت دون أن أعرف السبب، وكان ابني الأكبر في هذا الوقت يسطو على دارات الأنقليز من ضباط وبعض الجنود الذين قيل إنهم استرال، وبنغازي تنهض من جب عميق دكت فيه فنهضنا بها. أجرت بيتا بشارع بوغولة زقاق بالروين، بعيد أن اشتغلت خادمة في بيت المال عائلة جعلتني منها لما بينت لهم مقدرة في التعلم والأتقان، في بيتهم راديو وكان أمرا جلل وهلم من كل شيء حديث وجد أيامها، وهم أغنياء وسط فقراء لكنهم به بالغنى شغلوا الكثير من رقاد الريح وأوهم من مسغبة ورعب بعد الحرب، وتميزت في الطبخ الحديث مكرونة سباغيتي صلصة ومبكبكة، محشيات براك وطواجين لحم وسمك كما في الشعبي من بازين، كسكسي، رز مبوخ ومطبوخ، والناس يقتاتون من الموت من بقايا الحرب اقتت من بقايا العائلة التي أخدم، ما بعد الجوع إلا الشبع، اتخمت المدينة بمآسيها فلم تجد وسيلة للحد من ذلك إلا بأن تذهب في المأساة إلى مداها، بقدرة غامضة تحولت إلى (الحاضرة) التي تحضر إليها وتجمع حولها كل معاناة الحرب

الطويلة منذ مجئ الطليان حتى دخول الانقلين، مؤتمرات وخطب واعتقالات واجتماعات وسجون، ومهمتي أن أطبخ القدور تلو القدور في بيت المصراتي الذي تحول لمضافة لأناس قدموا من درنة ومن طرابلس وفزان ومن مصراته والزاوية الغربية وحتى من بلدتي غريان، يناقشون السياسة والتجارة. وفيه رأيت عجبًا! رجالاً وأي رجال متعلمون وآل جاه يلبسون الإفرنجي والوطني: الجرد، الكاط الملف، الشنة الحمراء أو السوداء، يتحلقون حول ورقة يسمونها جريدة الوطن يقرأون ويعلو صوتهم ثم ينصتون لإذاعة لندرة ويتخاصمون ثم يتعارفون ويفترقون ليجئ غيرهم، فلقد صارت بنغازي القبلة وعاصمة إمارة برقة التي أميرها إدريس السنوسي، لم تنته الحرب قلت في نفسي إلا لتبدأ حرب أخرى، لم أر فيها السلاح لكن رأيت الكدر والحيرة، فلأول مرة لا أعرف من أنا ولا من سوف أكون، اختلط عليَّ الأمر وأنا أطلب من ابني البكر أن يفكر في الزواج رغم صغر سنه قلت: انبيت البكر ونرتا .... ثم تساءلت أريده صاحب بيت واسم أم أريد أن أتخلص منه، أم أني أنا التي تريد بيتا لكن تخفي الأمر حتى على نفسها. ما أصعب البدايات! أي بدايات هكذا داخت بنغازي إثر الحرب، وفي فترة كأنها خدعتني ببساطها الأحمدي، وأني خدعت النفس وزينت العجوز بما في دكان العطار، فقد كشر الدهر عن أنيابها أو هكذا راودتني نفسي لما وجدت جنيهها المصري عملتها الجديدة يذوب كما تذوب الأحلام، ووجدتني غرباوية يقولها أصحاب السبق في التوطن بالمدينة، ووجدت الملاهي الليلية:

الريفيرا ونساءها الإنجليزيات والإيطاليات واليونانيات ... والسينما: برينتشي .. ونساءها المصريات، كوكا وتحية كاريوكا وشارع (الشطشاط) قد أخذ أبنائي، كما أخذ القمار والخمارات أبناء الفقراء الذين استطاعوا أن يغتصبوا القرش بالكد والعرق الأسود من أيام الغصة، لكن بنغازي مدينة مسحورة فسرعان ما شمرت عن ساعدها ودارت فيها الطواحين غب أن حصد الزرع الذي عاما عن عام يكون صابة، فتزوج البكرى امرأة مدينة، وفي ريقي ذابت بنغازي وكنت أذوب في حلوى بر الترك التي يصنعها كانون، سحت في الزلابية والمخارق والسفنز ما تعلم ابني الوسط خليفة صنعه، غاصت قدماي في السبخة وكأني مرصودة، تشبث ببنغازي فأخذني وجد، طلقت الرجال ورضيت بها حامية وظل، مدينة الشرق الحاضرة التي ليست من ولا كالمدن في شيء.

في البلاد في شارع اللواحي كنا في منزل جدتي حين صرخت أمي، كنا بين الحين والآخر نزور أمها في منزلها لما يسمح الأب بذلك، نجلب معنا قفة تضم خضاراً ولحماً وزيتًا وعلبة طماطم، ما يفترض أنه غذائنا، هذه المرة كان اللحم ربع خروف على غير العادة، علق خالي الصغير اللحم بسنارته حيث وصلنا مع قدومه، انغرست السنارة في يد أمي.

قبل هذا اصطاد خالي هذا سمكة فروج كبيرة جلبها لأمي كي تعدها كطعام ذلكم اليوم، كان يدور في الأحاديث أن البحر اصطاد

صبيًّا منذ يومين. لما فتحت الأخت بطن الفروج وجدت إصبعا صغيرا، أنكر خالي وادعى إنها من تخيلات أخته لكن أمي لم تعد تطيق صبرا لذكر البحر فما بالك أبناءه وبناته الأسماك. هكذا حرم علينا تناول السمك في بيت أبي الذي كثيرا ما اضطر وشهوته الفذة السمك، أن يرحل زوجته أمي لبيت أهلها حال تغيب الزوجة الثانية ليقوم بطبخ ما جلب من سمك في الغالب اصطاده وحينا اشتراه، يومها تكون وليمة ملكية كما يقول وكما هي حقا. بهذا وغيره كانت الأم ظل البيت. لم يكن أحد يتحقق من وجود ظله إلا ساعة غضب الأب الغاضب كل الساعات. فإذا كان الأب العصا في بيت كبيتنا فإن الأم من يتلقى هذه العصا دون وجع دون كلل، من حبور عصافيرها تستمد صبرها ومعنى وجودها. حرجانه أخذت أمي مرة لبيت أهلها، أمها تحصد الزرع عند عائلة بدوية في البر بالرجمة التي تبعد ممشى ليلة ونهار للراجل، أخذت غصبا أزبد أخوها ورغا معللا تصرفه هذا: أن زوجها هجرها بعد لم تنجب طفلا وقد تعدت السن اللازمة عمرها تجاوز الستة عشر. ليلتها لم تكتمل شغف يشدها تسللت حافية راجلة، تندس بين ثنايا الليل وتؤنسها الذئاب بعوائها، تتعثر فتمسك بشعر الليل من شجيرات البطوم والشماري عند سفح الجبل الأخضر وكدت العزم على أن راجلها ملاذها. فلق الصبح عزمها فتوثبت كذئبة تركض في طريق شقته بفكرة أن تخطب لزوجها امرأة ولادة، ابنت خالته أرملة ولدت وفجعت في وليدها:

- سأفرحها وإن حزنت، فإن لم يكن لي ولد يكون له ولد.

لكن لم تطق صبرا حملت بي أنجبت ولدا قبل أن تنجب ضرتها ابنة بشهر، احتفي الأب بالولد- صرت ابن أبيه- كما لم تحتف الأم التي تحولت للإنجاب وللاهتمام بما تنجب، حسبها أن تكون المرضعة ودفء الفراش والفؤاد الملتاع بهم، لهم جميعا.

## وين حوش بوسعدية؟

ون حوش بوسعدية ... مازال لقدام شوية، "بوسعدية" الإفريقي المدجج بالعظام وعلب الصفيح الفارغة الممسك بعصاه يرقص هنا ويقفز هناك، يقطع خيوط فكرها ويخبلها فتلاحقه مع الصغار مرددة: وين حوش بوسعدية ... مازال لقدام شوية، تنتبه فجأة دون الصغار مكبلة بالخوف من هذا العفريت الأسود الحي. أختي تمسك بقميصي غارسة أظافرها الصغيرة، لأول مرة تتحقق من ما تم تخويفنا بإنه سيطلع لنا إن فعلنا ما نهينا عنه، أمها وأمي يدعيان أن العظام ما يكون العقد الذي على رقبته والناصع البياض على جلده الفحمي العاري هي عظام أطفال أغضبوا أمهاتهم. الأخت تخرج للشارع أقل من أخيها، خاصة المنتصف الثاني للنهار، لهذا لم تر بوسعدية إلا هذه المرة وكنت رأيته في العام الماضي، يرقص، يقفز شاهرا رمحه وتجلجل بإيقاعات مختلفة علب الصفيح التي يسور بها قدميه، يدق طبله، يصرخ ويعيد الرقص، يخرج من زرائب العبيد وهناك يختفي. كل عام يخرج في موكب من أهله السود من نساء ورجال وأطفال يجللهم الورع مطبلين مزمرين ضاربين الدفوف حتى وليهم سيدي داوود، يبيتون في مقبرة وليهم الصالح يقيمون مزارهم

السنوي في طقس أفريقي استثنائي لا تراه المدينة في غير هذا اليوم. لو لم يكن مسقط رأسي حي الصابري لما تمكنت طفولتي أن تجد في بوسعدية مملكة للدهشة تخصب مخيالي بسر آخر: من هو بوسعدية، من أين يجئ إلى أين يذهب؟ وهذه الهيئة حيثية بوسعدية لما لا يمكن لنا أن نستعيرها؟ كل عام تمطرنا هذه الأسئلة لننام فاغرى الأفواه منتظرين أن يجيب بوسعدية في العام القادم. لأن البنات قارات أكثر منا كنت أشاهد أختي وصويحباتها تنحني الواحدة منهن وتضع الثانية يديها على كتفي المنحنية متمشية في المكان فيما التي خلفها تتساءل: وين حوش بوسعدية؟ تجيب القائدة المبصرة مازال لا قدام شوية. منذ أجيال تبحث البنات عن حوش بوسعدية. فيما كنا نكتفي بانتظار ظهوره السنوي في موسم الربيع يطلع علينا من ثنايات الوداع كنبتة سحرية.

حين لا تمطر كنا نخاف ويسربل الهلع فراشنا كما توسم وجوه الكبار بالعطش وتتيبس شفاههم، من ثنايا التوجس والترقب يطلع الودع عروس المطر: أم قطمبوا يالصغار/ جاية تشحت في لمطار/ أم قطمبو بصخيبها/ تطلب، ربي ما يخيبها/ الزريعة تحت الطوب/ حن عليها يا مطلوب/ الزريعة بددناها/ حن عليها يا مولاها/ حس جدي قال ما/ يريد نقيطه م السما.

نحمل عروستنا في جولة نردد لحنا فنمطر من كل بيت أو جمع نمر به بالماء أو ماء الزهر أي طيب، كل مرة يسرق المطر نستعير أجمل

ملابس لأجمل وأطيب نساء الحي كي نلبس أم قطمبو التي كثيرا ما كانت بحق جالبة المطر. لكن أختي وكل البنات- من درسنا كثيرا أنهن زريعة إبليس- لم يرضينا بهذه إجابة لهذا يعدن السؤال دون كلل: وين حوش بوسعدية؟

البنات زريعة إبليس حقا. فجأة يطلع للواحدة منهن في صدرها كرتان، لم نتمكن مرة من جس هاتين الكرتين في حين كثيرا ما تسنى للواحدة منهن في لعبة العريس والعروس أن تجس الثمرة الزائدة التي بين أفخاذنا. فجأة تختفي هذه الواحدة منهن.

حجبت في البيت: اندسسنا نتكشف ما يحدث، وإن طوردنا نحن الصبيان من المكان، جذبتنا الوشمة الخط الرفيع الأخضر المزرق الممتد من داخل الشفة السفلى إلى ما تحت الذقن وتلك النقطة بين الحاجبين تعلوهما قليلا، ثم نقطة على الجانب الأيمن من الأنف، ونقطة على الجهة اليسرى من الشفة العليا.

جهزت أمي لوشم أختي دعت نساء الحي وأهلها وأقيمت لأجل ذلك ليلة الحناء، أكل وغناء، ثم جئ بالوشامة التي أخذت في جرح أختي بمبضعها الحاد، كلما سال الدم تضع غنج الفتيلة الأسود على الجرح بعد أن تمسح الدم بالماء المملح، الجميع فرح إلا أختي التي تبكي بحرقة وخالتي تتغنج بفرح ممسكة بيد ابنة أختها وهي تردد: تقول راقدة بالنوم/ البنت عادة عيون خالها. خالتي هذه متزوجة رجل بدوي وتعيش في البوادي، خلتها تعامل أختي كما

تتعامل مع الماعز والخرفان، كثيرا ما شاهدتها تحلب وتمخض وتمسك التيس حتى يركب العنزة، عند زيارتنا لهم في بادية بلدة قمينس. في هذا البلد المعتم بالعجاج حينما تنضج الفتيات الصغيرات فإنهن يحجبن عن النور، ويلقي بهن في حجرة مظلمة، وهن لا يهربن من هذه القيود، أنهن فحسب يلتعن كحيوان في انتظار....

إن لبد أحد الذكور في البيت، ممنوعا من الشارع لأي سبب كأن لم يدرس جيدا أو لم يعد أمس للبيت إلا متأخرا، يتلقى وابلا من العزار، من أمام بيته أو خلفه في الشارع نردد جمعا: حارنين ع القنان/ مابوا/ يطلعوا .. يلعبوا/ في الزنقة / خوافين من اليهود:/ لباسين/ طواقي سود/ ضرابين/ بلا بارود. أمسك بي عنتر نزلتا يداه مثل ليل من خلف ظهري، واوو، واوو، واوو، فصل فخذي بعنوة شخب دم، زغاريد- شياطين تصرخ في وجهي- زغاريد، صحت ولم أعد أتبين شيئا، ألم يمزقني من بين فخذي: هل صاحبتي في لعبة العروس والعريس نزعت الثمرة، أم الفاعل شيطان أخرس، ما طولبنا كثيرا أن نحفظها من ألاعيبه؟ راقبت المشهد بدهشة في اليوم الأول، الليلة كبيرة تتدافعت قريبات وصاحبات وجارات أمي من خرم الباب ما يشبه فتحة قفل، منذ العشية يدور همس حول تجهيز حنة، مجئ الدرباكة، إعداد وليمة الليلة من لحم الخروف الذي ذبح في الصباح . غناء يصدح والدرباكة تضرب على آلتها بعنف وحبور وفي ردنها تضم قروش تمنح لها كلما أجادت ضبط الإيقاع، فيما البنات

ترقص والسيدات يصفقن ويغنين، آخر الليل حنت يديَّ دون زخرف. اليوم الثاني فاغرا الفاه راقبت عن بعد بوجل وحيطة تدافع رجال من صحب ومعارف أبي إضافة للجيران والأقارب، أعد غذاء باذخٌ، رجل يحمل بين يديه شنطة قيل شنطة الطهار الذي أعرفه! هو من صحبي وكثيرا ما حك خده المشعر كالشوك على خدي الناعم، يخافه الصبية الأكبر مني دون أن أتبين السبب. ألبست قميصًا أبيض واسعًا دون سروال، خيط كما يبدو بالمناسبة التي لم أتبين كنهها، رسم على القميص بالزعفران ختمة سيدنا سليمان، النجمة السداسية وكتبت عبارة ما شاء الله، ألبست على الرأس طاقية حمراء صغيرة بشنوارة وفي مقدمة الطاقية خيط سمكة صغيرة وقرن وخميسة من الذهب. وضع على الأرض نطع خروف مقلوب وعليه رمل، انتزعت من طفولتي: ربط الثمر بخيط جذبت القلفة التي تغطي الحشفة حتى برزت للأمام واستأصل السكين قطعة من الروح: اللهم صلّ على سيدنا محمد، ما شاء الله. زغردت النسوة وغنت جارتنا البدوية: إن شاء الله بعد تطهير/ يبقى ركن ويشيل طايحه، غنت صديقة لأمي: يشقيك في نظيفة الناب/ بعد طهار يا مينة الولد، ردت عليها خالتي: إن شاء الله بعد تطهير/ تجيب عقدها في هيكلك. أخذ خالي طاقيتي ودار بها على الجمع الذين كانوا يباركون ويضعون بعض المال، أدخلت للبيت- بعد أن وضع على الجرح شيء من نسيج العنكبوت وعقاقير الطهار وعلق لي حجاب، في الداخل كانت أمي صم بكم وفي ذهول واضعين قدمها اليمنى على

سوار من ذهب في ليان به ماء، كانت أمي قد تحصلت بالمناسبة من أبـي على رداء جديد غطيت به، توالت الزغاريد والتهاليل. في اليوم السابع أخذت للبحر وغسلت الروح المذبوحة من ماء سبع موجات متتالية. بعدها بأيام قفزت على ابنة الجيران التـي عيرتني بأنني قد أصبحت مخروما مثلها، فيما ألسنة أخواتي الأصغر أخذت تردد: وين حوش بوسعدية؟

## الصول بوليفة....

تكتظ المدينة في أحيائها، تكتظ الأحياء في أزقتها، تكتظ الأزقة بأطفالها، أما الساحات الضيقة فتكتظ بالصبيان، الذين يتخذونها مسكنا طيلة النهار وشيئا من الليل.

ليبرة اللعبة المفضلة، نرسم على أرض الساحة الترابية دائرة بعد أن ننقسم لفريقين، الدائرة سجن، فريق منا بوليس والفريق الآخر مطاردون، من يقع منهم في يد البوليس يوضع في السجن وإن تمكن فرد من فريقه أن يدخل الدائرة دون علم البوليس فإنه يفك أسر رفاقه بأن يصرخ: ليبرة، ليبرة، ثم يلوذون بالفرار.... وهكذا.

كذا هي بنغازي مرتع اللصوص والبوليس في أحيائها الفقيرة، وهي كل أحياء المدينة بأستثناء حي البلاد وحي الفويهات، عقب الحرب قبل النفط كثيرا ما شاهدنا على ذلك والأكثر سمعنا، لهذا حلمنا جميعا أن نكون في سلك البوليس: عدني الجميع رجل الحوش كلما غاب أبي وإن لم أتعد العاشرة. عند هزيع الليل، والحي نيام ساعة أن يتغطى بالظلام، نزعتني أمي من سبات وخلفها زوجة أبي ترجب بي بصوت مرتعش: سلم راجلها ... نوض. السبات

يلحفني متقدما نحو السقيفة، حيث يخزن أبي بضاعة الدكان ودقيق المخبز، دفعتني يد بقوة وشدة للسقيفة التي لحظة توسطتها تدافعت أقدام خبطها على الأرض أفزعني هنيهة، لم أتفطن للجلبة التي واكبت فزعي، وفي هذا مس طرف أذني جملة لم أتبين معناها إلا في اليوم التالي عندما عدني الجميع بطلا: هربوا السراقة سلم راجلها.

في اليوم التالي عرف كنه ما حدث وما كثيرا ما يحدث، بعض شباب حي غير حينا بترتيب مع الشباب الأفقر في حينا سرقوا من جيراننا: الدلال شمعون اليهودي بغلته، الحمال على الغرباوي عربته/كروسته التي ينقل عليها البضائع ويجرها بقوة ذراعيه، أما البردعة فمن المنكوب المرجاوي، الذي عقب زلزال المرج وفقده كل أهله، سكن في دكانة تسع جسده، لهذا يعلق البردعة ويطبخ ويأكل قدام الدكان، فيما يترك حماره في فندق الحيوانات. كل هذا وجد سالما أمام بيتنا. لكن ذلك آثار حنق الصول بوليفة، عده مسا بشرفه المهني واعتداء على مملكته، استجوبني في حضرة والدي صديقه الحميم، في جلستهم الليلية وساعة خمرهم في الكوشة، كثيرا ما خفته كما يخافه أهل الحي من رجال ونساء، ما بالك الصبيان من يهابونه ويمثلون شخصيته في كل لعبة ليبرة يلعبونها. فارع القامة بشوارب طويلة يقف عليها الصقر كما تذكره النساء، يمشي كديك، كثيرا ما قارنا مشيته ومشية ديوك الحي السارحة في كل مكب زبالة وما أكثرها في الحي، عيناه كهفان في سواد ليل دون عشاء، كما وصفهما أحد الرفاق ممن يزعمون كتابة

الشعر، بدلة كاكي ذات أزرار نحاسية- في يقيننا من ذهب- لامعة وخطوط أربع على ذراعه وحذاء دائم اللمعان. عاشق النساء معشوق الصبيان من يخافونه، حاكم دار الحي عشق زوجة جميلة فطلب من الزوج: أن يعمل عساسا في عمل اختاره له وعينه فيه، حذره إن عاد للحي ليلة فسوف يبيته في دار خالته أي عنده في مركز البوليس، كذا طمأنه على زوجته وبأنها في حمايته كل ليل. تحت نظره وحمايته ينطلق فقراء زرايب العبيد السود، في الليالي الشتوية التي تمتزج فيها الظلمة الحالكة بالمطر الكثيف، مندسين على جنبات الطريق غائصين في السبخة المحيطة، عراة يدهنون أجسادهم بالزيت، متسلحين بمسحوق الفلفل الأحمر الحار، متربصين لسيارات الجيش الإنجليزي المحملة بالتموين، كجيش من عنترة بن شداد والليل، فريق يكمن في مكانه، أخرون ينزلون في داخل السيارات راشين الحراس بسلاحهم الحار الخارق، يرمون كلما وقع في أياديهم، صناديق، أشولة، علب، في السبخة مصدر قوتهم من الملح صيفا ومكمنهم الشتوي.

كل هذا وكد شخصيته، الصول بوليفة من بمكنته قفل الحي في وجه من لا يحب، حيث لم يعرف عنه كراهيته لأي أحد من حيه، خاصة المجرمين والسكارى المدمنين من يحبسهم دون أن يحيلهم للنيابة، عقابه لهم، لأجلهم. جمع كل من لا يحب وطلب منهم مغادرة الحي حتى يعودوا له باللصوص، الذين أفزعوا فرخ صديقه- وتطاولوا على سلطته.

إن لم يعثر عليهم حارس الليل فإن الوردية/ الحرس البلدي حذيفة لهم بالمرصاد، ما من بضاعة تمرق من تحت نظره. على دراجته النارية معتمرا بدلته الرسمية كل نهار يجوب شوارع وأسواق الحي، لا تتجرأ امرأة برمي ماء غسيلها في الشارع المترب، ما من بائع متجول يسرح دون مراعاة أصول النظافة والنظام، فهل يتمكن تاجر من الخروج عن القانون والأصول؟ هذا هو رئيس الحرس البلدي يتلصص على القاصية والصغيرة فكيف لمرؤسيه أن يفعلوا غير ذلك؟ مشهد اعتيادي أن نرى الوردية، يجوب شوارعنا مزهوا ببدلته الرسمية، رافعا أنفه في السماء وعيونه تنقب الأرض، عند التعب يجلس، بمحاذاة محل والدي صحبة أصدقائه، على كرسي الموتوسيكل ويخرج رواية أرسين لوبين متابعا جريمة جديدة في هذه السلسلة، قليلا ما قطع استرساله في متابعة بطله المفضل وشارك في أحاديث الجماعة، هذا اليوم استثنائي، فقد سخر من والدي مدعيا أن اللصوص لم يستهدفوا إلا البضاعة الحية، فليس من العدل في شيء أن يكون للمرء عنزاتان وللآخر تيسًا بين أفخاذه، يقلق نومه بصياحه. كالعادة وجد الصول بوليفة فرصته فعلق: يبقى أنت التيس ... رد حذيفة الوردية: التيس اللي يلعبوا في حوشه التيوس، فانفعل الصول منسحبا: ورأسك اللي يعتدي على حوش صاحبي ما يشوف الفجر إلا مكلبش. أما والدي فصعق لما انتبه لوجودي فصرخ في وجهي: أمشِ لأمك، قاطعه الوردية مقهقها: امشِ يا حامي الحمى وخليك منهم.

ازدهت شوارعها كالعادة بالعجاج فارتاب كل أحد في كل أحد، صيفها يعجن بشرها في طين سباخها، كل أحد سبخ. عند فم السور من المصلى المحاذي للسبيتار الكبير، تنسكب الجنائز، قاطعه الخيط الأسود المكلل على يمينه بفسحة بيضاء بعد أن سلبت شمس صيف من السباخ ماءها، جمع متدفق تجره أرجل مثقل بحمل صندوق مغطى بجرد أبيض أو رداء ملون أيقونة جنس الميت، يردد اللحن الرتيب: لا إله إلا الله ... محمد رسول الله، وعلى يسار الخيط الأسود يقف آل الصابري كل يوم في مهابة الحزون المفتعل والتبرم المكتوم: كتب علينا، في مغرب حينا جامعة الموت وفي الشرق جبانته. بوابة سيدي اعبيد تجمع صبية الحي، الفقير منهم والفضولي في انتظار وجبة الميت التي يقوم عليها أحد أهل الميت: طنجرة مملوءة بزيت زيتون وأرغفة خبز ساخنة، يغطس نصف الرغيف في الزيت عند التشبع يمنح صدقة للصبية والجائعين للزيت من الكبار، يلتهمون الرغيف وما يتبقى من الزيت على أيديهم يدهن به الرأس والمداس. في جلباب التراب يطلع من جبانته، حفار القبول من انتهى من مهمته صائحا في الجمع طاردا الصبية، بهذا كأنه يستعيد أنفاسه من قبر، فيما يقوم الحارس البلدي بحراسة الموكب، حيث إن كل أحد تمنحه البلدية صفة المغادرة كما تمنحه صفة الوجود. حارس الجبانة أعمى وزوجته مقعدة التي لها عشيق، يتسلل كل ليلة إلى مضجعها وكثيرا ما أخاف الصبية الفضوليين والأكثر جراءة، عند اقترابهم من السور لجس مكمن العفاريت يخرج عليهم بملابس امرأة.

الصول بوليفة مطلع على كل شيء لكن يعتبر وجود العاشق ضمانة عدم العبث بالموتى، وبالنقود التي توضع في صندوق الولي سيدي اعبيد من قبل المرضى والنساء المهجورات والعقيمات والرجال المنحوسين، هؤلاء قبل غيرهم شارك في الجنازة الكبرى لتاجر الشعب، جنازة الحي من حمل الصبية قبل العواجيز والشباب قبل الكهول التابوت كمحمل الحج، تداعكوا وتراصوا مثلما كانوا يفعلون كل صباح وكل عشية: دكانة تاجر الشعب تقع وسط الحي عند صنبور الماء العام من حيث يوردون حاجتهم، الباب الخشبي المطلي باللون الأخضر الغامق يتكون من أبواب أربع تشرع جميعا في الصباح الباكر، في الظهيرة يبقى مفتوحا منها بابان عند المغرب باب واحد ما يدخل فرد، الدكانة مستطيلة ومحشوة بالبضائع ما يحتاجه الزبائن من كل شيء، تاجر الشعب كما يسمى نفسه ويحب أن يسميه الناس محشورا بين أشولة وصناديق وعلب وبراميل، في آخر الدكانة ثمة باب صغير تدخل منه زوجتاه كي يمداه بيد العون وبغذائه. لكل زبون قدر محدد ومعروف، للإفطار والغذاء والعشاء، كما لو كان رشن أفراد جيش، وثمن ذلك مبلغ في مقدرة الزبون.

إن مات الرجل يعول تاجر الشعب عائلته حتى تفتك نفسها من مسغبتها، إن مرض كذلك وإن ليس لديه ثمن الدواء فيد تاجر الشعب ممدوة وجاهزة دائما للدفع، كل زبون يجلب ابن عمه أو زميله ممن يجدون على الحي إلى الدكانه فيتحصل على مبتغاه حتى يعمل

أو يحصل أجره، حتى من يخرج من السجن يجره الصول بوليفة للدكانة ليستدين حاجته، أما حذيفة رئيس الوردية فيمنع عن تاجر الشعب رجاله وعيونه عما يجد من صناديق الكراتين الفارغة وما شابه في غير مكانها.

- أمشِ لدكان الشيخ، أنا ما نبيعش لرقاد الريح...

كثيرا ما زجر سبيريا الزبون الذي لا يعجبه، دكانته للخاصة لهذا يبعث الزبائن ممن يراهم متطفلين عليه إلى تاجر الشعب. عنده بضاعة متميزة من خضار وفاكهة وعلب لم تر في غير محله، أسعاره مضاعفة، زبائنه ممن يلبسون البدل الزاهية ويركبون السيارات الفارهة وهم من سكان البلاد عادة وبعض من ضيوفهم من الأجانب.

- يا حاجة وحده بوخطوة واثنين بوخة وصندوق بيرة.

من كوة في الدكان تطل على البيت تمد زوجته يدها بما طلب ملفوفا، وان منع بيع الخمر في شرق البلاد فإن الصول بوليفة يجعله مسموحا. ولا يكتفي سي سبيريا بتمرده على قوانين الدولة وأعراف المهنة، هو السكران طول النهار يخرج في عشيات الصيف من دكانته عاريا ومجدفا شاتما الدين والدنيا زاهيا مختالا فيما الجميع يعبث معه، وكثيرا ما طال لسانه بنات جاره اللاتي يدرن محل والدهن. في عشيته هذه يوزع ما تبقى من فاكهته والخضار المتميز على أي رجل أو صبي يمر على دكانته ومجانا. ثم في المساء عند الثامنة في أقصى

حد يقفل الدكانة حيث يجتمع في داخله مع أصدقائه، أبي والصول بوليفة، وموظف ليبي في السفارة الأمريكية يوقف سيارته الرسمية بجانب المحل لتبدأ السهرة.

# بورتريه قصر البركة!

الجو ساخن لهذا أفتح أزرار القميص وفي النفس مرجل يضطرب من أرق النفس بالذكريات. يوم كنت صبيا أتقدم الوالد مندفعا نحو بير الكلبة في بحر الصابري، وعن هذا وعن ما بي أنشغل بالشارع وحيويته.

بعد الغداء في حمأة الصيف أتمشى، في مدينتي بنغازي، من حي البركة، حيث أسكن، مخترقا شارع جمال عبد الناصر، الاستقلال سابقا، حتى الكيش أتظلل بالبيوت مراقبا على يميني قصر البركة: لابد أن جنود الترك قد وجدوا فيه مظلة تكفيهم حرارة بنغازي المبالغ فيها أما هذه النوافذ فتبدو كأبواب، فإن الهواء ينسكب فيها على عجل مزيحا في طريقه الرطوبة ما تنفث المدينة بغزارة، حتى يبدو الفضاء كبحر يغرق الأجساد ويجعل منها كومة من لزوجة حامية الوطيس. منذ تجرأت في مقتبل العمر وخالفت الوالد وزحفت من حي الصابري نحو قلب المدينة النابض المتلألئ: تحيرت ما العلاقة بين العلم والأسطورة، حتى رأيت قصر البركة بغرفه الثلاثمئة وخمس وستين، هل أتم الترك في نهاية القرن التاسع عشر هذا البناء بهذا العدد من الغرف كي يشيروا لأيام السنة، أم كي يتركوا أسطورة

تومض للإفول، وكهرم لإمبراطورية ولدت ميتة، ولم تترك في مدينة مثل بنغازي غير اليتم كهذا البناء الذي لا شريك له. كل نافذة نافذة على غرفة لضابط عثمنلي سطوته على تحته، تحته إسطبل وجند في غرف سفلية أسفلها زنازين التي هي نوافذ كل سلطة تركية. آنذاك كانت سلطة الحكومة تطال من تحتها فحسب ومن خرج عنها وأمكنها اصطياده تدكه في حاضنتها المدسوسة تحت الأرض، أرض القصر/ المعسكر. وهذه السلطة لم تغير من أساليبها باعتبارها سلطة الله، السلطة التي لا تاريخ لها فهي تعيد إنتاج ذاتها من هذا الاعتبار، سلطة مطلقة لا حد ولا حدود لها، وقصر البركة بنوافذه الثلاثمئة وخمسة وستين مقرها الذي بقي مقرا لها منذ أفول القرن التاسع عشر حتى مطلع الإيطاليين.

تهت في سراديب تركية من العطن والرطوبة وتاريخ الهواء الراكد، كأن خمسمئة من الأعوام تفوح الآن، لقد جعل الحكام الترك من البلاد مبولة ومن الحكم سوطا ومن السكان عبيدا للملح ومن ظهورهم دوابا، لقد حلبوا كل شيء واتخذوا عن الرقاب إتاوة، حتى أن شبح عزرائيل أمسى الصديق المراد. الأخوة: القيظ، العجاج، الأغبرة وبنادق معسكر البركة مشهرة في ظهر المدينة التي يحيط البحر جانبيها ووجهها.

كثيرا ما جست جبانة سيدي اعبيد أو جبانة اليهود في الزريريعية حيث بيتنا وحيد العلوة، لكن قصر البركة يبدو لي وكأنه

شبح يلد الأشباح وليس مأوى الأشباح وحسب. كذلك مجمل ما هو تركي، مدعاة للخوف وكأن التركية من معاني الوجل، كثيرا ما وصلت هدية من حاكم تركي لشيخ قبيلة متمرد ودخل في صلح وانصاع لدفع الإتاوات، هذه الهدية شوال ضخم من الملح، عند استهلاك المنتصف مثلا، يظهر رأس ابنه أو أخيه وقد دسه ذلك الحاكم كدرس لن نتمكن نحن الأحفاد من نسيانه.

لكن بنغازي، وهي حاضرة برقة الإقليم الشرقي للبلاد، كثيرا ما تمردت على اليد الحاكمة في طرابلس العاصمة مقر السرايا الحمراء قصر الحاكم المطلق اليد.

أقيم قبل خمسة أيام من مغادرتنا طرابلس التي ودعناها صباح يوم 11 فبراير 1817م، احتفال لم يزد عن كونه إعلان حالة الحرب ضد الابن الخارج عن طاعة والده، وفي نفس الوقت كان الإعداد لتجهيز الحملة يسير حثيثا والبي أحمد منهمك في زيارة جميع المرابطية في المدينة طالبا منهم الصلاة والدعوة لتوفيقه. هكذا بدأ الدكتور دي لاتشيلا تسجيل مذكرات رحلته لقطع الصحراء الليبية بروح مغامرة وتعصب يشده لأثر الأجداد الرومان والمسيحيين الأول: لو تأملت خريطة أفريقيا التي نشرها أرو سميث، والتي بين عليها الدروب التي سلكها الرحالة في هذا الجزء من العالم، فستلاحظ أن بعضهم اتخذ طريق فزان في الوصول إلى طرابلس من مصر، كما أن المغامرين قد سلكوا طريق الصحراء الكبرى ما بين

طرابلس وتمبكتوا، أو عرجوا عبر الصحراء في الوصول إلى ضفاف النيل. وستلاحظ أن أحدا لم يغامر في الدخول إلى إقليم البنتابولس، أرض قورينة وبرقة القديمتين، إذ يظهر أن طريق الوصول إلى هذه الجهات قد ترك من أجلي. وسأكون في حماية جيش من عشرة آلاف جندي، وطابور طويل من الأبل مما يقلل الخوف من نقص التموين، وزعيم لهذا شغوف لتصفية أخيه الأقسي.

لا يوجد من بين الوحوش التي عرفتهم أساطير أفريقيا القديمة من هو أفضع ولا أقسى منه، البي محمد الابن الأكبر لباشا طرابلس، بارد وعنيد، صغير في تفكيره، متوحش وبربري المزاج، يطلق العنان لنفسه دون تفكير، ليست هناك حماقة لم يرتكبها، أهم هواياته مشاهدة خدمه وعبيده يموتون ألما بعد إسقائهم جرعات الزرنيخ. لكن أخيه البي قائد حملة تصفية الوحش طبعه كان على خلاف الكثير من المسلمين، على جانب كبير من الحذر، مما جعله يفضل وجود طبيب يصاحبه، ولحسن الحظ كان الباشا يعرف عن مهنتي وطلب بالتالي مرافقتي لابنه.

انشغل الدكتور دي لاتشيلا عن الحملة بتفاصيل المكان وتسجيل ما يرى وما يريد أن يرى وما لا يرى أيضا، وقد وصلوا في اليوم الخامس من مارس إلى المنطقة الفاصلة بين طرابلس وبرقة، وعلى الرغم من تعب الجميع وقلة المياه إلا أنها مناسبة أسرت الجميع ازدادت الفوضى وقل امتثال الأوامر مع استمرار ازدياد عدد

الجيش مما حمل البي على التدخل. وبوصولهم مركز مارات/ اجدابيا، يوجد طريقان يتجه الأول بحذاء الساحل إلى بنغازي، ويتجه الثاني نحو الداخل مخترقا أقليم البنتابولس ومنتهيا إلى البحر عند درنه.

نحن الآن في منطقة بنغازي، المنطقة السهلية الواسعة التي تسكنها بعض القبائل التي أسرعت لمقابلة البي وتقديم برنوص الولاء والإمدادات من جند ومؤونة. قضينا يومين قبل وصولنا إلى الأبيار، التي جمع البي رؤساء قبائلها طالبا منهم العمل على مساعدته في تعزيز جيشه، تأييده الكامل فيما جاء من أجله. جاءت أخبار البي محمد بأنه غادر درنه متجها نحو الحدود المصرية، لاعتقاده أن باشا مصر محمد علي سيقدم له العون أن تتبعه جيش أخيه.

تأخر وصولنا قورينة لأن هم البي جمع القدر الأكبر من الإتاوات، وصلنا في شهر مايو. وقد حدثت بعد قليل من مغادرتنا سلنطه ظاهرة خطيرة، أقلقت بال الجميع إذ ماتت أكثر إبلنا رغم الأحجبة العديدة. ولا أخالني فخورا إذا قلت إنني قد اكتشفت، بطريق الصدفة إحدى النباتات السامة التي تنطبق عليها جميع الأوصاف التي ذكرت حول نبات السلفيوم، ما كان سكان برقة قاموا باستخراج عصير من جذوره لتصديره إلى الخارج. وقد وصف المؤرخ بليني ذلك النبات، الذي يحمل الغنم على النوم ويجعل الماعز

يعطس إن أكله. وعلى ما أذكر أنـي قرأت، في إحدى المناسبات، أن هذا النبات قد وجد في عهد نيرون الإمبراطور، وأرسل له كنبات نادر الوجود، وأخبرنا كثير من الكتاب الثقاة أن نبات السلفيوم نبات يقتصر وجوده على برقة، حتى أنها عرفت باسمه في بعض الأحيان.

وصلتنا يوم 20 يونيو أخبار مطمئنة فأصدر البي أمره بوجوب التحرك السريع لملاحقة أخيه. الطريق إلى درنه صعب، الرحلة شاقة أضاعت الكثير من خيولنا. تأكد لنا لدى وصولنا إلى درنه، المدينة الخلابة ذات الإمكانيات الهائلة، مدى وحشية وقسوة البي محمد، كانت أرضية القلعة لا تزال مغطاءة بدماء وجثث من القتلى الذين في مقدمتهم جواريه، لأنه على ما يظهر، لم يكن يسمح لغيره بامتلاكهن كما أنهن يثقلن انسحابه، كما أن من ضحاياه العديد من أفراد القبائل الموالية له، الذين تخلوا عنه بعد أن عرفوا بوصولنا.

الدكتور دي لاتشيلا الذي غادر طرابلس في رفقة حملة عسكرية لم يكن يظن أنه سيصل نهاية الرحلة سالما: وصلت حملتنا إلى نهايتها السعيدة لأننا لم نلق أية مقاومة، قرر البي سرعة العودة عن طريق الأبيار إلى بنغازي، حيث كان في شوق وعلى أتم الاستعداد للاحتفال بشهر رمضان.

كل شيء في بنغازي على ما يرام، خاصة أن المدينة بدأت تحتفل بمطلع شهر الصوم، ما يضفي عليها مظهرا أهم مميزاته قلب مسيرة الحياة العادية فيها. لكن بنغازي شهدت في شهر المحبة

والسلام هذا، شهدت واحدة من أبشع المذابح. فعلى الرغم من عدم سفك قطرة دم واحدة من لحظة مغادرتنا طرابلس إلا أن حدوث ما سيعكر صفو الجو الآمن الذي عشناه قد أصبح وشيك الحدوث.

قبيلة الجوازي لم يغتفر لها انضمامها إلى الببي محمد، رغم إرسالها بعثة من كبار قومها طلبا لصفح وغفران يوف باشا على ما ارتكبت من حماقة ضده. وقد طلب الأب من ابنه أحمد فيما طلب، أن يظهر تسامحه معها لكن بعد أن ينتهز الفرصة الملائمة لإنزال ضربة تقصم ظهرها وإلى الأبد.

الدكتور لاتشيلا في مسرح الحدث وكواليسه لهذا شاهد الحدث وشهد تأليفه وعلى سبل إخراجه، حيث اقتنع الجوازي بتودد الببي ومساعديه، أصبح رؤوس القبيلة من أولى ذوي الحظوة في مجلسه، لبي المشائخ دعوة لتكريم قبيلته: في صباح الخامس من سبتمبر سنة 1817م كان خمسة وأربعون من أجل أفرادها قد وصلوا في موكب كبير إلى القصر. الببي البشوش في استقبالهم، قدمت القهوة وخطب الترحيب، أظهر الببي شعورا يبدو صادقا لإنهاء الخلاف. هنا بدون مقدمات تدفق الحرس وسيوفهم شاهرة لينفذوا الأوامر التي كانت قد صدرت لهم. في الحال الكثير مات، من قاوم دفع إلى غرفة قريبة حيث ذبحوا، أما من سنحت له الفرصة وهرب فقد لوحق بالرصاص هذا أيضا ما كان مصير من تسلق جدران القلعة، في الحديقة تم غرس كتيبة إعدام.

شاهدت منظرا بشعا ورهيبا. الجثث في أي مكان والدماء تسيل منها بينما البي المضطرب في حالة هيجان وقد جن لا لشيء سوى لأن جنوده لم يتجمعوا بالسرعة اللازمة التي يبتغيها: انطلق عاجلا يتقدم فرسانه ليباغت من لم يتصل بالخبر من أفراد القبيلة: قتل من تبقى من الرجال، ذبح الأطفال كي لا يتيتموا، أما النساء فضربن وعذبن واغتصبن وسبينا وقتل منهن العواجيز فقط. انتهى خلال ساعات ما حدث وما لم يحدث وجني البي من جنايته: أربعة الآف جمل، عشرة الآف رأس من الغنم، ستة آلاف من البقر، كميات من النقود لم تحصَ بعد وبعيض الأسرى فقط للفرجة.

أما مبعوثي القبيلة إلى الباشا، من أجل الصفح والغفران، فلم يلقوا نفس المصير وحسب، بل ألقيت جثثهم للبحر لتسمين السمك الذي سيصطاده الصيادون لمطبخ الباشا خصيصا.

لم يعرف الدكتور لاتشيلا أن السمك الذي التهم الوليمة البشرية ما التهمه أبناء الباشا قد جعلهم شرهين أكثر، لهذا التهم الواحد منهم الآخر بنهم فيما انطفاءة عيناي الباشا الذي حبس في حبوسه أعمى، فقير، لا حول ولا قوة. انتشلته سفينة عثمانية من محبسه ليموت مثل كلابه الضامرة الضامئة التي أكلها الجرب.

# رسائل متبادلة بين صديقين
## من صادق النيهوم إلى رشاد الهوني

**عزيزي رشاد**

لعلها المرة الأولى التي أكتب فيها لك منذ غادرت الوطن. ولعلها أيضا المرة الأولى التي أكتب فيها لإنسان في بلدي الذي أحن إليه، وأتعطش إلى رؤياه، ولكن تمنعني من العودة إليه أمور كثيرة. إنني هنا في مدينة فرانكفورت، في ضجيج شوارعها وهدير آلاتها ومصانعها، ووحشية موسيقاها وصخبها.

أحس شوقا عارما يهز كياني، وحنينا جارفا إلى لمحة خاطفة لمدخل مدينتنا الصغيرة. رغم أكواخها، طرقها المهدمة، ومستنقعاتها الكثيرة الموزعة حولها، أشتاق إلى ناموسة، من سبخة الصابري تلذغ وجهي، وأحن إلى سهرات الدردشة التي لا نمل خلالها من الحديث الفارغ، وأشتاق، أشتاق إلى رائحة الملل التي تعبق في بنغازي.

ورغم كل ما حولي هذه اللحظة، فإنني يا صديقي أحس بفراغ

هـائل، وأحس بوحدة لا يقدر على اقتحامها ضجيج الدنيا وهديرها، لأنني غريب .. ولأن الذين حولي لا يرتبطون بي ذلك الارتباط الغبي الذي نتعصب له.

ولكن، هل أنكر سعادتي بهذه الغربة؟ كلا ... إنني في الواقع سعيد بغربتي، لأنها أقل تأثيرا في نفسي من غربتي في بلدي.

وما أسوأ أن يحس الإنسان بالغربة في بلده. أنت تعلم متى افترقنا.. لقد تركتك في بنغازي تحترف الجلوس على كراسي المقاهي، وتقطع المسافة ما بين بنغازي والبركة على قدميك لأنك لا تملك قرشا يوصلك إلى هدفك. وتدور دورة واسعة حول المدينة هربا من الشوارع الملغمة؛ التي يوجد بها دائنون، في تلك الفترة يا صديقي، كان الإنسان في بنغازي يلتقي بوجه صديقه مئات المرات كل يوم. وكان يكفي أن يكتب على الرسالة المرسلة إليك اسمك فقط لتصلك، وكان من الممكن العثور عليك حين أسأل عابر عن مكانك. ولكننا رغم كل هذا؛ كنا نصرخ، ونضحك من أعماقنا، ونفرش نفوسنا حرة في الشارع، المقهى والمنتدى. ولم يحس أي منا - في يوم من الأيام- حاجة إلى المال، أو ضرورته؛ فقد كان طموحنا عظيما رائعا، ولكن المادة لم تكن كل الهدف، بل كانت علاقتنا روحية خالصة، فلم يعنفنا دائن في أي وقت، ولم يمتنع أي إنسان عن المساعدة حين كنا نطلب المساعدة.

كنا بكلمات قليلة؛ مجتمع أخوة وأحباء، وصداقة متينة

وكانت لنا حريتنا، أمننا وتعاطفنا. كنا مجتمع رجل واحد رغم التفاهات الصغيرة التي كانت تحدث بيننا. لقد أصبح هذا ذكريات قديمة جدا.

فبعد أن تركتك وخرجت إلى العالم الآخر، تصورت أنني تخلصت من عمر قديم، لأستقبل عمرا جديدا لامعا.

عرفت الأصدقاء الجدد والصديقات اللآتي لم أعرفهن طيلة عمري الذي مضى، وتعلمت الرقص، وحصلت على عدة دبلومات، ثم حصلت على الماجستير. وبعد سنوات طويلة من الشبع؛ هزمني شوقي إلى بلدي، إلى شوارعها الخالية، والأصدقاء الذين تقابلهم في اليوم مئة مرة..

ولقد حدث وعدت . ورغم أننا لم نلتق خلال زيارتي، رغم هذا فقد كنت هناك، حيث لم أجد شيئا مما تركت، وحيث صدمتني دلائل القرف التي ارتسمت على ملامح الناس.

أين الأصدقاء ؟ أين مجتمع الرجل الواحد؟ أين أنت يا صديقي بصراخك الذي لم يكن يكف، بالنوادر التي كنا نقوم بها، أين مقهى شتوان؟ سينما الهلال، مطعم الفيكتوريا، والإمبريالي، أين كل هذا؟ ألم تكن المدينة تجتمع في هذه الأماكن؟ ألم نكن نتبادل الود، المحبة، التعاطف، الأخوة، التلاحم، الترابط، الفرحة، المواساة، الشكوى، والصراخ.

ألم نكن مجموعة رائعة تستحق القبل؟ ألم نكن مجتمعا عظيما رائدا؟ إذن.. أين كل هذا. أصبح مجرد ذكريات قديمة! لقد أصاب الناس الذهول، وعبروا السنوات الماضية بقفزات شيطان أعمى.

**صديقي رشاد**

لم تعد بنغازي هي تلك الحبيبة التي ترضعنا الحنان. وتمدنا بالقوة وتجد فيها عدلك وأمنك ، وطمأنينتك. ولهذا فلقد شعرت فيها بالغربة. شعرت أنني إنسان متطفل لا مكان لي. كان الأصدقاء يلوحون لي على الطريقة الأمريكية وهم ينهبون الشوارع بسياراتهم اللامعة، وكأنني لم أفترق عنهم كل هذه السنوات. لم يهتم بي الذين أرسلوني للدراسة في الخارج. ولم يسأل أي إنسان عن تحصيلي، وعن فترة العلم المضنية التي قضيتها بعيدا عن الوطن، وكأنني مجرد حبة رمل في صحرائنا العظيمة الغامضة.

وكما صدمت بالعالم الآخر حين تركت بنغازي، صدمت أيضا ببنغازي حين عدت من العالم الآخر.

كتب عليّ أن أنشطر نصفين حزينين يائسين، غريبين، وأصبح من الواضح أن أختار، فأنا نكرة في بلدي، كما في المدينة الصاخبة فرانكفورت، وأنا غريب في ليبيا كما غريب في هذه الدولة الكبيرة ألمانيا. وأنا في بنغازي أعيش في مجتمع مادي، غريب الطباع، قاسي

الملامح، فاقد الأصول، ولكنني في ألمانيا لا أرتبط بأي مجتمع ... وهنا وطأة من الغربة النفسية وأنت بين أهلك وأصدقائك.

هل أنا مخطئ؟ أتشعرون بالراحة؟ ألا تحسون بالذهول، الدواخ، ألا تتذوقون المرارة التي امتلأ بها فمي؟

إنني الآن أعد للدكتوراه، وجامعتي تتمسك بي، ولقد تزوجت فتاة من الشمال، وولدي يفتح عينيه بصعوبة ليكتشف الحياة من حوله، ولازلت أدق أذنيه بلهجتنا الليبية لربما عاد إلى بلده- يوما ما- فتكون لغته وسيلة لأن يعيش بين أهله في مجتمع آخر ينعم بما يفتقده الناس الآن.

تحياتي لك ... وحبي للجميع.

• صادق النيهوم- فرانكفورت- 7-8-1965م.

## ... ومن رشاد الهوني إلى صادق النيهوم.

**عزيزي صادق**

كم مضى من الوقت؟

إنني لازلت أذرع المدينة جيئة وذهابًا، محاولا في إلحاح أن أطرد كثيرا من الخفافيش، والطيور الليلية التي تعشش في صدري، إن نفسي كمقبرة قديمة مهجورة، وصدري يشبه إلى حد بعيد مغارة سحيقة، مهترئة ترددت فيها وشوشات عميقة الزمن.

وأنت هناك.

في هلسنكي، تضع أمامك كأس بيرة، وتحدق في عيني زوجتك الخضراوين، وتهش على رأس طفلك الذي يحبو، ثم تأخذ ورقة وقلما وتطلب بكل بساطة أن أكتب لك!

ماذا أكتب، وماذا لي أن أحكي؟ كل شيء ممل للغاية، الحكاية مكررة، تقززت منها آذان السامعين، وأنت رغم ذلك تبحث عن كلمة خشنة أو رائحة قديمة أجمعها وأدسها لك في خطاب أصفر. أنا أعرف حاجتك إلى هذا، وأنت غارق في نهار ممطر، رمادي البشرة، وعلى مرمى البصر تنتشر مساحات واسعة من الورد الأصفر الفاقع.

أنا أعرف حاجتك إلى قصصنا الساذجة، وأعرف شوقك الذي لا ينضب، وأعرف كل هذا ولكنني لا أملك أن أطفئ جمرة واحدة صغيرة في سؤالك الحارق. فأنا مطحون مثلك، أنا ممزق ... وفي حاجة إلى من يضم أطرافي بعضها إلى بعض الآخر، وكل الذي يخفف الحدة هو وجودي هنا، وجودي في ساحة المعركة، وليس شرفة بعيدة.

كم من الوقت مضى؟

سؤالنا الخالد، وكأن الوقت هو المأساة، وهو العذاب الذي نذوب فيه، وطوال الوقت- يا عزيز صادق- كنت أذرع المدينة الصغيرة طولا وعرضا تماما كبغل الساقية.

وامتلأت نفسي بآلاف التشنجات، حين حدث هذا... رأيت أن أعتزل الشارع، وأن أدور أيضا كبغل الساقية، ولكن في مكان واحد.. محدد، ومحصور. رأيت أن لا داعي مطلقا للبعثرة ولا داعي لكثير من الغضب، رأيت أن أتهاوى، أن أسقط عند قدمي القدر، وأن أفرغ كل شحنات القلق في زجاجة يشربها أخوتي، أخوتي وأخوتك الذين فقدوا لعابهم، ويبست شفاههم، وتصلبت شرايينهم، تجرحت حناجرهم وتخذلت قبضاتهم.

ليس من طريق آخر أجده أمامي سوى هذا الطريق، هو الوسيلة الوحيدة التي يضيع بعدها سؤالنا.

كم مضى من الوقت؟

أنت تعلم أنني أكره المخاض، أكره لحظات المرض، أمقت لحظة القلق والانتظار. أنت تعلم أني أريد أن أقفز أي سور يعترضني، وأختصر المسافة بين الحافة والحافة في لحظة خاطفة حتى لو سقطت بعد ذلك في البئر.

## يا صديقي صادق

لكن ... هناك أشياء تكشفت لي، أشياء جديدة كنت أستهين بها رغم أنني حذرت منها مرات ... ومرات، أشياء جديدة، تبعث في قلبي الرعب وتثير فيه آلاف المخاوف، وملايين الرعشات. مثل صبي يتعلم المشي أخضع لكثير من الخرافات التي كنا نضحك منها سويا، حين تصرع كثيرا من الصحاب.

هواؤنا يا صديقي ملوث بلطعات الدود وإفرازات الحشرات الصغيرة، وقد كان مقدرا لي أن أهرب سنوات كثيرة ولكنني في النهاية سقطت. ووجدت أصابعي تنغرز في بطن الأرض وتتشبث بالقشات أحيانا.

ووجدتني فجأة أتحول إلى كتلة من الإلحاح أمام آلاف المواقف المحزنة الصغيرة. وحين أخلو بنفسي يتفصد قلبي بالعرق نتيجة لرحلته المجهدة في الطريق المعاكس. والمؤسف أنني بعد هذا كله أتصور بكل بلاهة، أنني قادر على الإفلات من مشاعري المتناقضة وقادر على التوجه مباشرة إلى نقطة معلومة. غير أن الهدف

يضيع والخلجات ترتعش، الظمأ يطوي كل مسافات الغضب وأحس بأنني قد فشلت كما لم يفشل إنسان من قبل.

كم من الوقت مضى؟

وهل تراني استطعت أن أنقل إليك ما يجب أن تعرفه خلال هذه الدقائق؟ وهل تتنبأ لي بحاستك المخلصة إن كنت سأعبر فخاخ هذا المجتمع أم أنني سأسقط في الطريق؟ هل يقدر لي مرة أخرى أن أحمل أشيائي في قبضتي أم أنها ستنزلق من بين كفي كالزئبق؟ أف. أف لكل هذه التساؤلات، أنا أريد فقط أن أسبح في بحيرتي.. وإن كنت أتضايق كثيرا من الأعشاب الخضراء اللزجة المترامية على الضفتين، إلا أن الموضع لا يستدعي القلق، لا يتطلب موقفا واحدا للتفكير، ولهذا .... لا تنتظر كثيرا وحاول معي ولو على البعد، أن تقدم شيئا لهذا الجيل الذي يولد وفي فمه ملعقة من ذهب! شيئا من المرارة نذيبه له في الملعقة، حتى لا يفقد الطعم الذي امتلأت به أفواهنا وحتى لا ينمو صغارنا بنفوس مائعة!

ليس هناك بعد هذا ما يمكن قوله، سوى أنني من جانب آخر بدأت أسترد شيئا فقدته طول عمري وعثرت عليه بعد طول عناء ومعاندة، وربما ... ربما يبتسم الطريق، تتفتح النوافذ المغلقة في وجوهنا وتعود أنت إلينا، إلى الشمس المشرقة، ودفء القلوب ومدينتنا الصغيرة الحبيبة التي لم تخذل أحداً حتى الآن.

• رشاد الهوني- بنغازي- 19-3-1966م.

## شارع الإذاعة،

## سر من رآه، سر من لم يره.

مثقل شارع الإذاعة بفاكهة النفس التواقة ومكتظ بعجائب تسكر العقل الشاطح، قصير القامة طويل التيلة، يمس الشغاف الطازجة، وينكل الطفولة ببرأته النزقة.

في الظهيرة اللافحة

والمطر ثاقب،

يعج شارع الإذاعة

بأحلام متقفة،

وطيور حداثة جافلة.

خلف مبني الإذاعة،

مقبرة مستلقية،

على ظهر هسبريدس.

لهذا- لا غيره-

تسنى لامرأة محتجبة،

أن تخرج لسانها لبرنيس.

شارع ريان شارع الإذاعة، يوقظ العطش في الفؤاد، يبعث الرغاب.

ضيق حد الانفساح، شارع الإذاعة، ومتسع هذا الضيق للزحام. شارع مخبول يخبل كل طليق، فهو غابة من الشراك للصبايا العابثات، ذوات الأجسام البضة، المتعريات بالعرق الذي يلصق الثوب ويعجنه بالبدن، هن السافرات بالحجاب.

شارع الإذاعة موجته قصيرة، فخ يلتقط التنهدات المكبوتة ويبثها على عجل، سر الشارع المدسوس عن المدينة، لا تضمه، ولا تأخذه سنة نوم، النوام، الغافل، الدساس، المكشوف كالسر الذي حامله غاب، السر الذي لا يجهله أحد، الفضيحة مثلا، ثوب الجميلة تهفه رياح عاتية كي تكشف بنطلون الجينز الذي يضغط مفاتن خوخ لا يكشفها العري ذاته.

شارع الإذاعة كالكذبة لا أحد يصدق أنه شارع ومشرع، وسكين في خصر المدينة حيث لا أحد يحبه، حيث لا أحد رآه، حيث لا أحد لا يحبه، حيث سر كل من رآه وبالتأكيد كل من لم يره.

شارع معتاد، مرتاد، من خصاله خصال كل شارع ممشي،

خصال الضليل، أنوثة مغشوشة بقليل من عصير الليمون بنكهة النسكافية الحراقة، مكياتا، كوبتشينو، كافي لاتي، هجين من بحر أبيض وبحر من رمال أبنوسية.

حقيقي حد الخيال، مكمن العود والقانون والناي والتشيلو والجيتار والطار وكثيرا الدربكة وأحيانا البيانو، ودائما الكمان.

في شارع الإذاعة، قرب الكاتدرائية....

تتداعك إذاعات ثلاث ومحطة التلفزيون، واستوديوهات عدة قديمة وهرمة ولكنها حيوية ونشطة مشاغبة، لا تكل ولا تتنحى كالسلطة الأبدية.

هذا الكمان تقطعه أوتار طويلة، شارع حديقة يوليو الدائم الازدحام بالسيارات لاتساعه، شارع جمال عبد الناصر "الاستقلال سابقا" من فم الميناء حتى قرية سلوق حيث نفى جثمان عمر المختار على بعد خمسين كيلو متر، كما تقطعه أوتار قصيرة، شوارع ثلاثة قصيرة.

لم يتمكن

عبد الوهاب قرينقو،

من كتابة قصيدة حب.

لهذا اختار واحة هون

زنزانة قصية.

كان أكثر حرفية:

لم يتخذ

من شجرة الخوخ ظلا.

لم يتكئ

على عمود الشعر،

في شارع الإذاعة.

شارع الإذاعة معبأ رغم أنه في طول خمس مئة متر وعرض عشرة، مبالغ في كل شيء ومثلي، متخم حتى الثمال، سكران بهذه الثمالة من رواده: موسيقيون، عازفون، مطربون، ممثلون، مخرجون، كتاب وكتبة، الشعراء والمتشاعرات، القاصات والمتقصين، ومحمد الأصفر الذي يكتب يوميات الشارع في روايات من طراز الشرمولة التي هي أكلة شعبية من طماطم أخضر وفلفل حار، أحمر حار، أخضر حار، وحار دون لون وثوم وملح وزيت وبس، فنيون ومصورون، تشكيليون، هواة ومحترفون، وصحفيون دون صحافة، مراسلون ومرسلات، عمال وموظفون وشغالات ومحترفات. والعديد ممن ينتمون لهذا النادي، الذي لا بطاقة له لكن لا يدخله غير المنتسبين له عن جدارة بأي شيء حتى اللاشيء.

هذا الاختزال الذي اسمه شارع الإذاعة، يقع بين بحيرة بنغازي والبحر المتوسط ويندس عنهما بشارعي الكورنيش والبحيرة.

* النورسة،

التي اشتطت.

في شارع الإذاعة،

ضيعها الزحام

عن البحيرة.

* سمكة البوري

هجرت البحيرة.

مرتادة شارع الإذاعة

في سبيل أن تكون،

نجمة.

أنزل مع الجسر الذي هو جسر جليانة، يربط مدينة بنغازي بجزيرة جليانة، للجسر لسانان بين اللسانين يمتد مذوقة المدينة كأنه اللسان الثالثة للحية هو: شارع الإذاعة هذا المكتض في نهايته أن أعطيت الظهر للجسر، هذا الشويرع فيه مكتبة الفضيل بوعمر، مساعد عمر المختار الذي قص رأسه بعد استشهاده وعلق في ميدان البركة من قبل الفاشسيت. ثم مطعم تلو

مطعم ومجمع إداري على الطرز الما بعد حداثية بني في نهاية ستينات القرن المنصرم، مقابل عمارة من دورين لاتينية الطراز أنشئت منذ الثمانين سنة تقريبا، هذا عند تقاطع جمال عبد الناصر في التقاطع الثاني مسرح، المسرح الشعبي، فندق، الفندق الكبير "قراند هويتل"، مكتب سفريات.

عش البشاعة،

في شارع الإذاعة،

قرب الكاتدرائية،

مزدحم بالغربان السود.

النورس الأبيض،

الذي في الصورة المعلقة،

في محل السفريات،

يرقب المشهد

مغتبطا بمنفاه

في شارع الإذاعة مكتب خطوط جوية، مصوراتي النادي الأهلي، فيما سلف كان كنتينة أي محل لبيع المشروبات الروحية، متاجر مواد غذائية وغيرها، ثم مقهى تلو مقهى خلفها مستشفى 7 أكتوبر بردوشومو سابقا، حيث كان ملعب التنس. قبل المنتدى الإذاعي وقبالته مبنى البريد ومبنى الإذاعة ثمة الكاتدرائية.

هذا اليوم أيضا،

في الغابة بالجبل الأخضر

فراشة الضوء،

تنافس

النجمةَ المتوهجة،

الظلامُ

في شارعِ الإذاعة

التهم نهار يوم آخر.

الشبحُ الذي خرج،

من مقهى الشارع

المواجه لمبنى البريد،

لم يتسن له

مقابلةَ النهار،

هذا اليوم أيضا.

في قراند هوتيل الذي يقع في الشارع والذي خلفه فندق المدينة، سكن الكاتب خليفة الفاخري، هناك كان يكتب مقالاته التي تنشر

في الجريدة "الحقيقة" الأهم في البلاد، ويجتمع مع محمد القزير زميله الذي غادر البلاد قبل أن يغدر به الموت.

بالقرنفل
لوعة المشتاق.
النجمة الضحوك،
غيبتها غيوم سحت
وكسف ليل بهيم،
بسمة الشمس اللعوب.
القرنفل، بث أريجه
في شارع الإذاعة،
وفي مقهى الشارع
احتسي كوبتشينو،
في صحة الغياب.

لفت انتباهي عند التفافي ودخولي الشارع، ككل يوم عند منتصف النهار، المشهد الأبيض عند الأفق، يبدو كخلفية للوحة سوداء تتحرك باتجاهي، بين خطين أخضرين على الجانبين، في السواد ثمة برتقالة أو خوخة أو ما شابه ذلك، امتزجت الألوان كلما اقتربت

وازداد الضوء واشتددت الظلال، للأفق زرقة استمدها من الأزرقين اللذين تعزلهما ألوان من البني والأصفر الباهت، أما في الأعلى فثمة لون سماوي مغبر بالبياض. دنوت حتى تلاشيت في المشهد اليومي ولونني به.

وحيد البلبل،

عزف منفرد،

تحت جسر جليانة،

حيث قارب صيد،

انفردت به رياح عاتية.

من شارع الإذاعة،

امرأة خرجت،

قرب الكاتدرائية،

وقفت تنصت.

- لم تعلق.

عند الظهيرة تسلط الشمس كشافاتها على مسرح الشارع حتى يتلاشى، وتخرج من مبنى الصحافة الفتيات العاملات من موظفات وصحفيات وتزدحم واجهة مقهى المنتدى الإذاعي، كلهن

محتجبات متلفعات بالأسود الطليس، كثيرا ما زاحمهن النوارس جماعات جماعات، بينهن تندس حمامة البرتقال.

لا أحد يراها، مثلي.

ظلالٌ سحريةٌ، تتراقصُ

في شارع الإذاعة

حين ترفرف بسمة

شجرة الخوخ،

التي تقطع الشارع

مثلي، لا أحد يراها.

كل يوم يأخذني ذهول المعتاد، وشطح الراضي المرضي، في شارع الإذاعة ينكشف البسيط عن نفسه، حيث تتراءى لي صورة البسيط باعتباره مركب الصعب. فما من سهل كالبحر الأبيض المتوسط، من حيث تستمد بحيرة جليانة روحها، البحيرة الكريمة التي تغدق روحها على الشارع، كي تضمه في حضنها كما يحضنه البحر. هناك في آخر الشارع ترقد القنطرة التي تتحمل الدوس أو جسر هو خيط وصل بين حبيبين بنغازي وجليانة، الركح لاستعراضات يومية لطيور الماء، عاشقات عزف الكمان المنفرد عند الميناء الصغير.

قرب جسر جليانة،

في ميناء الصيد،

حطمه الموج العاتي.

القارب الصغير،

في جيده،

حبل من مسد.

يبدو شارع الإذاعة كشبه جزيرة وفي هذا شابه أمه بنغازي، ومن شابه أمه ما ظلم. صيادو السمك لا يرتادونه لكنهم يحوطونه، صيادو السمك البشري متلهفون على ارتياده، لكن النوارس تتوه عن البحر والبحيرة كي ترتاده.

لم يتسن لشارع الإذاعة مصور واحد رغم أنه أرض منبثقهم، ولا شاعر ولا حتى كلمة، مروا به زرافات زرافات فنانون وساسة وكتاب، صحفيون ورسامون، شعراء، جميلات وقبيحات، عاشقات وميتو القلب، من لا قلب له مر به ولم يرسمه أو يصوره، الشارع الذي ليس كمثله شيء، مختصر الشوارع مترع ما لذ وما طاب وما هو نيء.

في الركينة عند مبنى البريد شجيرة تبكي نصيبها وتذرف الزهر.

غدران الشوق،

عبثت بالشجيرة،

المندسة في ركن
بريد شارع الإذاعة.
الشجيرة غافلة،
في انتظار المطر.
***
اجتاح الحب،
شجرة الدفلي.
في الشارع،
عند مبني البريد،
فاض الزهر.
وعري الشجيرات العجفاء،
الحسد.
***
لم يفطن أحد
في شارع الإذاعة:
عصفور منفرد، توسد

حنايا شجرة الدفلي،

المكتظة الزهر.

فيما مضى لم يكن أمامك غيره كي تصل الجسر الخشبي، تجتازه في النهارات للجزيرة حيث "بنكينت الحوت"، سوق السمك، في الليالي القاصدين ملهى الريفيرا، يقرقع الخشب تحت الأقدام المحمومة ليلة الجمعة.

الأرض فاح عطرها،

المطر أيقظ أنوثتها،

وأشعل الحواس.

النعناعة خبأت شبقها

خلف النافذة الزجاجية

لمبنى الإذاعة.

لشارع الإذاعة مهام عدة منها الهدوء والخفاء، الخفر وقلة السكان والحيلة، فهو عاشق نفسه الذي يحب الآخرين كلما بعدوا عنه. همت فيه ولم يبادلني الهيام ولم يكن لذلك في نفسي ضغينة، فليس أحلى وأعذب من أن تحب الجمال في ذاته وأن يكون الحب لذاته دون تصوف، فليس من شرع هذا الشارع أن يفصح، فصاحته في صخبه الصامت حتى كأنه ليس موجودا إلا بالقوة وبالفعل غامض حد التلاشي.

لكن ثمة من لا يحب أن تكون شجرة الدفلى شجرة دفلى ولا أن يكون شارع الإذاعة شارعا لنفسه.

لم تتمهل

الرياح العاتية،

صيفت شجرة الدفلي.

غرست أنيابها،

في شارع الإذاعة

جندت:

الوجل، التردد، الجفا،

وأطلقتهم

مدججين بالكراهية.

# جزيرة جليانة مثوى التفاحات الذهبية

البحر هائج والأمواج تخرج ألسنتها وترفع هامتها فتثور الغيوم التي تتراكم كحصير أسود يسحبه البر نحوه. الرذاذ يثير شهوة الأرض إلى سيلان الغيم التي يطير المركب على أجنحتها وتمتد أجنحتها فيغطي ظلها بحيرة تريتنوس، بحيرة تريتون المعبود البحري ابن بوسيدون من حبيبته وملكة البحر برنيكي أو برنيقي.

كان تريتون يمد نصفه الأعلى الذي على شكل إنسان في السحب التي غطت بحيرة السلماني لما كان نصفه الدلفيني يضرب شواطئ جزيرة جليانة حيث حدائق الهسبريدس: اللوتس، الرمان، العنب، اللوز، المشمش، الزيتون، والتفاح الذهبي الذي أحاطه حارس الحديقة أطلس - المشغول بسند الأرض- بسور من الماء ما يصعب اجتيازه، لكن بفضل حذق سندباد وبحارته من الجن ومركبه هيكل حوت سيدنا يونس اجتزنا السور وكثبان الماء، من اليم أقمنا جسرا كان كتف تريتون، بحبال الأفق استعنا، خلف جذوة تشعل فوق الماء نارا تواريناان وبعربة الهسبيريدات الثلاثة قفزنا هواء سواني عصمان، ومن قلب جليانة خطفنا التفاحات الذهبية، فإلى البحر ولينا بالمركب وفيه خضنا،

والصعاب الاثنا عشر اجتزنا لما جعلنا الملح، ملح كوية الملح: بنغازي حصننا وتعويذتنا ولبيسيدون قدمنا القرابين فحمانا من غضبه وعلى الشاطئ الشفقي شاطئ تريتونس حطنا وهو يتغنى:

يوما ما يا تيتانوس

ستتعرى شجرتك هذه من تفاحها الذهبي،

بيد أحد أبناء برنيس.

هكذا تنبأ إله النبوءة نيريوس، وهكذا كان فابن الغدران المنبثق عن سباخ كوية الملح قد حاز على التفاحات الذهبية في الرحلة الثامنة التي لم يدونها أحد، لأن ريح القبلي قد أخرس القلم لما انتصر في حربه على قبائل الليبو ومحاهم من الوجود، كما غمر نهر النسيان البلاد فغدا كل شيء له بداية جديدة.

شجرة الخوخ أصل المرأة الشاعرة، الشاعرة الواقفة فوق جسر البحيرة تداعب أوراق ديوان صغير مرددة ما يخصها.

1- الإوزة/ في بحيرة جليانة. الإوزة، غرقت/ في أوحال عبثها.

2- قرب جسر جليانة/ في ميناء الصيد/ حطمه الموج العاتي.
القارب الصغير،/ في جيده /حبل من مسد.

الشاعرة اتخذت من المشهد جزيرة جليانة، حيث العازف ينصت للنوارس التي يرنو إليها المصور مشهرا عدسته.

3- ما مرادُ/ مصطفى الإسكندراني/ من الكمان/ من الوتر المشدود والوتد/ من المرآة/ من وقفته في شارع الإذاعة، قرب الكاتدرائية؟/ لقد عزف لحن التوق/ صد العجاج/ وانبثق القرنفل أبيضا أجاج/ قامت قيامة النوارس/ عند بحيرة جليانة. واستوت الشاعرة على حلمها، انفطر قلبي/ من الكمان/ ما مراد مصطفى الاسكندراني؟

4- طارق الهوني/ يَرْقب النوارسَ/ كي يحنطها في صوره. نوارسُ الصورة/ في انتظار الشاعرة، لتفك أسر الروح. لكن الشاعرة/ غريقة في بحيرة اليقظة/ لم يعد بعد بمستطاعها النوم/ الشاعرة لم يعد لديها أحلام تحلمها/ النورس الوحيد، حط في جزيرة جليانة/ يرقب غرق الشاعرة/ ما لم يلفت انتباه المصور.

كنت واقفا عند الجسر الذي يصل بنغازي بجزيرتها، الجو ساخن لهذا أفتح أزرار القميص وفي النفس مرجل يضطرم، أرطب النفس: الفلاح الذي بذر الأرض، حنطة الروح، وغمرها ماء المنحدر الصعب. لن يجني شوفان الأسى. رأيتها تنصت لأنفاسها الحارة يدنو منها سونيسيوس القوريني شاردا فيها، هذا الفيلسوف ابن طلميثه لسان الجبل الأخضر لسانه أناشيد تنشد: على الألحان الدورية لقيثارتي العاجية/ أود أن أعزف أناشيد ذات انسجام/ هيا انشدي أيتها القيثارة الصافية الرنين/ غني بأوتار دورية جادة.

ولتكن الحكمة رفيقتي: فما أثمنها في الشباب/ ما أثمنها في

الشيخوخة، وما أسماها على الثراء/ إن الحكمة بابتسامها تيسر احتمال الفقر، وتجنب هموم الحياة المريرة/ ويا ليتني أملك ما يكفيني كي لا أسأل في كوخ الجار، وأنحني في المحنة، تحت وطأة الهموم القاسية/ فيا هذه الأرواح السعيدة اشتركت معي في دعواتي وآلامي العديدة/ لم تكن الحياة آنذاك حلوة، لأن الأرض التي كانت وطني أصابها الاضطراب. احفظي أيتها السعيدة لليبيين كل ما حصلوا عليه احفظي لمدة طويلة من الزمان،/ مراعاة لذكر إحسانك، ومراعاة للآلام القاسية التي عانتها نفسي لكن جليانة حيث ملهي الريفيرا يربطها جسر خشبي بأهل المدينة، والشاعرة التي تفتقد الحكمة لم تنصت لغير أنفاسها، لم تفطن للفيلسوف الذي ناشدها الحكمة. الجسر الخشبي حبل من مسد يربط جليانة من حلمتيها للشط، كل ليلة يجتازه محملين بالخمر عشاقها، في براريك أو شليهات يتداعكون، يتعاركون سكارى من خمر وعشق وجنون، ينفتون ضيق صدر المدينة في شاطئ جليانة. يا أحبائي شجاني بعدكم حزن طويل/ اذكروني، كلما لاح لكم وجه جميل / اذكروني، حينما يجمعكم في الكيف ليل/ أنا، ما زلت على عهدكمو ذاك الخليل/ لست بالناسي، لذاكراكم، وإن شط الرحيل!/ كيف ! والقلب لديكم/ ما له عنكم بديل/ فاذكروني، كلما لاح لكم/ وجه جميل. / يا أحبائي، وقد هبت، من الشرق، عليل!/ وذهبتم، نحو جليانة، والوقت، أصيل/ وازدهاكم، شاطئ البحر، يحاذيه النخيل/ وجلستم، عند تمثال، له ظل ظليل/ وشربتم، ذائب العسجد، بالدر يسيل/

فاذكروني عل روحي، يشتفي منها الغليل/ فاذكروني، كلما لاح لكم، وجه جميل.

كنت واقفا عند الجسر الذي يوصل بنغازي بجزيرتها، الجو ساخن لهذا أفتح أزرار القميص وفي النفس مرجل يضطرم، أرطب النفس بقصيدة الشاعر أحمد رفيق المهدوي، حين مرت مجتازة الجسر عند الظهيرة كي ترطب جسدها الضاري، شبه الجزيرة خلعت ملابسها وعارية دست ضراوتها في قلب البحيرة حيث حطت النوارس.

* بنغازي: بين 4 ص /09 / 09/ 03

والخميس 2005/07/09- 44 : 34 : 02م

# إشارة

هذا النص، سيرة بني غازي، يركب حصان الخيال الجامح وحسب. لهذا لا يعطي لغير نفسه حق تجنيسه، فهو ينتمي للكتابة التي لا تُحَمل كاتبها استصدار هوية.

غير أنه من الضرورة الإشارة إلى أن النص يدس بين ثنياه نصوصا مقتطعة من سياقها، القارئ الذي لا يحرقه فلفل العجلة، المطلع غير الهين قادر على إرجاع المقتطع لسياقه. أي أن المتمكن من القراءة سيضع المراجع على طاولة القراءة دونما حاجة لي.

وعندئذ بإمكانه أن يقنع أنه نص ساهمت في تشكيله نصوص عدة، وشكل جنسه من هذا الاعتبار. وكل باحث أو كاتب وجد نفسه في سيرة بني غازي فله أن يتحقق من أن أنفاسه هي التي غمرت روح النص، الروح المنسية في الطين.

# الفهـــرس



## أحمد الفيتوري - كاتب وصحفي ليبي

من نتاجه:

* قصيدة الجنود - دراسة - طرابلس - الدار الجماهيرية.

* في ذكرى رفيق - تحرير - بنغازي - مجلس تنمية الإبداع.

* شيء ما حدث شيء ما لم يحدث - مسرحية - تونس.

* جدل القيد والورد، ستون الشريف - تحرير - شخصي.

* بيض النساء - رواية - تحت الطبع.

* قصيدة حب متأبية - شعر - تحت الطبع.

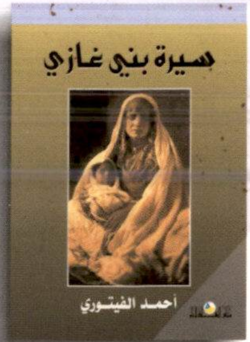
* سريب رواية - تحت الطبع.

* المنسي في الطين - مقالات - تحت الطبع.


* العنوان: ليبيا - بنغازي - بريد عبد المنعم رياض - ص ب 9331.

* البريد الإلكتروني: afaituori@hotmail.com

* موبايل: 00218/0925117123




▪ يقدم مجلس الثقافة العام للقارىء الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًّا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.